المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

تأليف العلامة: سيد سليمان الندوى
ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبد الرحمن



العلاقات العربية الهندية

1216

العلاقات العربية الهندية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢١٦
- العلاقات العربية الهندية
- سيد سليمان الندوى
- أحمد محمد عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

عرب وہند کے تعلقات

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

العلاقات العربية الهندية

تأليف: العلامة سيد سليمان الندوى

ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبد الرحمن



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

الندوى، سيد سليمان
العلاقات العربية الهندية: تأليف: سيد سليمان الندوى؛ ترجمة وتحقيق: أحمد محمد عبد الرحمن - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨.
٣٠٤ ص؛ ٢٤سم
١- العالم العربى - العلاقات الخارجية - الهند.
أ- عبد الرحمن، أحمد محمد (مترجم ومحقق)
ب- العنوان ٥٦٠٫٥٤ و ٣٢٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٦٤
الترقيم الدولى: 6 - 796 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتوى

- مقدمة المترجم 9

- توطئة المترجم 13

- الباب الأول: الرحالة العرب وبداية العلاقات مع الهند............... 25

- الباب الثانى: العلاقات التجارية 59

- الباب الثالث: العلاقات العلمية 99

- الباب الرابع: العلاقات الدينية 157

- الباب الخامس: المسلمون فى الهند قبل الفتح 199

إهداء

إلى بنـاتـى

ثمار قلبى

وزوجتى

شريكة عمرى

المتـرجم

المقدمة

إن أول ما يخطر بالذهن عند ذكر كلمة (الهند)، هو ذلك الجو الشرقى الساحر، المغلف بالغيبيات والروحانيات، الذى ألف الناس أن يقرأوا عنه، فيما وصل إلى أيديهم من كتب عن الهند، سواء كانت أدبية أو تاريخية، أو فيما يرونه من الأفلام السينمائية الغربية، التى تعتنى، أهم ما تعتنى، بإظهار سذاجة أهل الهند وتخلفهم، وانشغالهم بالروحانيات، والغيبيات الساذجة، عن الحياة العصرية ومطالبها، شأنهم فى ذلك شأن أهل الشرق جميعًا، حتى صار لدينا – نحن العرب– المثل القائل، والذى يقال لأى شخص يحاول أن يستغفل أحدًا ما: "هو إنت فاكرنى هندى".

والحقيقة التى لا جدال فيها هى أن الحضارة الهندية اليوم، ومن ثم الثقافة الهندية، تقوم على هذه الروحانيات والغيبيات، بل تنادى بها معظم فلسفاتها وتقاليدها ودياناتها. والإنسان السعيد حقًا لديهم، هو ذلك الذى يستطيع أن يتخلص من شوائب الجسد، ليتصل بعالم الروح. ومع وجود هذه الحقيقة الأولى، فإن هناك حقيقة ثانية مناقضة يلمسها كل من سمع عن الهند أو زارها فى العصر الحديث، وهى أن الهند أخذت تصفى حساباتها مع التراث القديم، لتطرح عنها جانبًا الأفكار الغيبية الساذجة، التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تقدمها، وتنتقى منه، ومن واقع الحياة الهندية الحديثة ومطالبها، ما يكفل لها دفع عجلة التقدم إلى الأمام.

وللأسف، فمعرفتنا – نحن العرب – بالهند لا تتعدى، على حد قول البيروني، العجيب والغريب من حكاياتهم. ولذلك أطلقنا عليها بلد "العجائب والغرائب"، رغم أن الخليج العربى أدى دورًا مهمًا فى النشاط التجارى، وأن العرب أدوا دور الوسطاء فى نقل التجارة، من وإلى شبه القارة الهندية.

والنشاط التجارى للعرب ليس وليد اللحظة، إنما يمتد تاريخه إلى ما قبل الإسلام بقرون عديدة، لكن ليس بالإمكان تناول كل هذا التاريخ التجارى الطويل هنا. لهذا، كان من الضرورى أن نصدر الكتاب بتوطئة، نوضح فيها تاريخ العلاقات العربية الهندية، منذ القرن السادس الميلادى ـ أى قبيل ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية ـ إلى القرن العشرين.

وعند دراسة موقع مصر الجغرافي، يتوقف الدارسون كثيرًا أمام مفارقة لافتة للنظر، فرغم أنها دولة أفريقية جغرافيًا، فهى دولة آسيوية تاريخيًا. فالجغرافيا لم تجعل طرق الاتصال بأفريقيا، طوال العصور التاريخية الأولى، ميسرة أو سهلة، بنفس القدر الذى يسرت به طرق الاتصال بآسيا.

وشبه القارة الهندية هى إحدى هذه الواجهات الرئيسية لشبه الجزيرة العربية. ومن هنا، تقف العلاقات العربية الهندية على أرضية صلبة، تستند إلى تاريخ طويل من الاحترام المتبادل، والمنفعة المشتركة، رغم أن طبيعة العلاقات قد تغيرت نسبيًا، بعد انقسام شبه القارة، عام ١٩٤٧م، إلى دولتى: باكستان والهند؛ حيث دخلت هذه العلاقة مرحلة جديدة، وإن كانت لم تقطع جذورها بالماضى.

ومن هنا، جاءت أهمية ترجمة كتاب (العلاقات العربية الهندية)، للسيد سليمان الندوي، لنرى كيف قدمت المصادر العربية، وغير العربية، قديمًا صورة واضحة للمبادئ، والقيم المتميزة، التى طالما شكلت روافد أساسية للعلاقات العربية الهندية. والكتاب يضع أمامنا عدة تساؤلات، لعل أهمها: إلى أى مدى استطعنا أن نستثمر هذا الماضى المشرق فى تحقيق تعاون بناء بيننا وبين الهند، فى الوقت الحاضر؟ هل تعثرنا فى معرفة قدراتنا الضخمة، فى مواجهة تحديات اليوم؟ أم أن نظرتنا القاصرة تجاه الآخر حالت دون تحقيق كل هذا؟

وتجدر الإشارة إلى أنى حاولت، قدر استطاعتى، الرجوع إلى المصادر العربية، التى استقى منها الكاتب معلوماته، وقد عانيت فى ذلك كثيرًا؛ لأن المؤلف،

فى الغالب، لا يذكر الجزء أو رقم الصفحة من المصدر الذى رجع إليه. وكل ما هو مكتوب بحروف مائلة، هو من إضافات المترجم.

وفى النهاية، لا يسعنى إلا أن أشكر كل من أسهم فى إخراج هذا الكتاب، بهذا الشكل، وأخص بالذكر، فى هذا الشأن، الأستاذ الدكتور مناع عبد المحسن، أستاذ اللغة العبرية؛ لما قدمه من مراجعة، وإبداء للرأى حول الكثير من موضوعات الكتاب، فله منى كل الشكر والتقدير. ولا يفوتنى أيضًا أن أقدم الشكر إلى الأستاذ الدكتور سيد نويشى، أستاذ اللغة العبرية وأتمنى أن تكون هذه الترجمة حلقة من حلقات التعريف بالعلاقات العربية الهندية.

ولا شك أن نشر هذا الكتاب، عن طريق المركز القومى للترجمة، يتيح للقارئ العربى التعرف على مدى عمق العلاقات العربية الهندية. ومن هنا، وجب علينا شكر القائمين على هذا الصرح، مع دعواتنا لهم بالتوفيق والسداد.

توطئة

العلاقات العربية الهندية منذ دخول العرب حتى القرن العشرين

لقد كان الاتصال الفعلى بين الهند والبلاد العربية، فى عصر البوذيين، اتصالاً وثيقًا مع بلاد الشام، وخاصة العراق. وهناك دلائل تاريخية تشير إلى وجود أثر للبوذية فى العراق، وقد سُمى هؤلاء البوذيون بالفرقة "السمنية"، وهذا ما أكده أبو الريحان البيرونى بقوله: "ومما زاد فى النفار والمباينة أن الفرقة المعروفة بالسمنية... هم أقرب إلى الهند، من غيرهم. وقد كانت خراسان، وفارس، والعراق، والموصل، إلى حدود الشام فى القديم، باقية على دينهم..."[١].

وفى هذه الفترة، ارتفع نجم البطالمة[٢]، الذين استولوا على جميع مسارات التجارة البحرية؛ فكانت سفنهم تردُ من مصر واليمن إلى الهند. وقد حاول البطالمة فى العصور الأخيرة، تركيز تجارة الشرق فى مصر، وذلك ببسط سلطانهم على الطريقِ البحري؛ لأن التجارة الواسعة التى كانت تحملها السفن عبر البحار، بين مصر من ناحية، وبلاد العرب والهند من ناحية أخرى، كانت تتطلب، ولا شك، الهيمنة على شاطئ البحر الأحمر، أو على الأقل، المواقع المهمة المطلة عليه.

ومن هنا، نالت بلاد العرب، فى جنوب الجزيرة العربية، شهرة كبيرة فى المجالات السياسية والاقتصادية، واتصلت اليمن اتصالاً وثيقًا بالهند، وظلت على ذلك حتى فجر التاريخ. وعندما ظهر الإسلام، فيما بعد، أصبحت مكة والمدينة هما مركز هذه التجارة.

---

(١) أبو الريحان البيرونى، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٠.

(٢) بطليموس: هو مؤسس هذه الدولة التى استمرت من عام ٣٢٣ ق. م، حتى عام ٣٠ ق. م.. ثم جاء عهد الرومان من بعدهم.

وهكذا ظلت التجارة الهندية – العربية تواصل نشاطها، رغم الاضطرابات السياسية التى لحقت بهذه المنطقة، والتى نتج عنها تشتت شمل أبنائها؛ مما دفعهم إلى الهجرة، والانتقال إلى البلاد الأخرى، وكان لهذه الظاهرة أثر إيجابى، وهو انتشار الثقافة العربية فى هذه البلاد التى هاجروا إليها، وبدهى أن تكون الهند على رأس هذه البلاد. ورغم ذلك، بقيت البلاد العربية تؤدى دور الوسيط، بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط [١].

وظلت العلاقات العربية الهندية بين مد وجزر، حتى جاء الإسلام، وكانت هناك طائفة من قبائل "الزط"[٢] الهندية، تعيش فى الجزيرة العربية. وكانت قد نزحت إلى بلاد العرب، بعد زوال الدولة الكسروية، وذلك حين اتصل الفرس بالهنود، فى عهد "أنوشروان". هذا إلى جانب الاتصال الوثيق، بين جنوب الهند والجزيرة العربية، وذلك بفضل توافد العرب على موانئ الجنوب الهندى، فكان "لمالابار"[٣]، فى ساحل شرق الهند، شرف السبق للتعرف على الإسلام، واعتناقه، قبل غزو العرب لشبه القارة الهندية؛ حيث كان العرب ينزلون بهذه الموانئ، وهم فى طريقهم إلى جزيرة "سرانديب" (سيريلانكا الحالية)؛ لمشاهدة أثر قدم سيدنا آدم، عليه السلام.

ومن هنا، دخلت الكلمات والمصطلحات الهندية فى اللغة العربية، مثل: "موز"، وهو فى السنسكريتية "موجا"، "وكافور"، وأصله "كاربورا"، والصندل (چندن)، وغير ذلك من أسماء الأحجار الكريمة، والسيوف، وأنواع الطيب التى كانت، وما زالت، لها شهرة واسعة فى المجتمعات العربية.

---

(١) د. محمد إسماعيل الندوى، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ط١ – بيروت – بدون تاريخ- ص ١٦ ــ١٧.

(٢) الزط: هى تحريف لكلمة "الجات" الهندية ، وهم قوم يشتهرون بالحرب والبطولة.

(٣) مالابار: هى فى ولاية (كيرالا) بجنوب الهند.

وعلى الرغم من العناية التى وجهت إلى الهند، فإن فتحها لم يتم إلا في عصر الوليد بن عبد الملك، وبأمر حاكمه على العراق، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى أسند بدوره هذه المهمة إلى محمد بن القاسم، عام ٨٩هـ / ٧١٢م، وكان جيش محمد بن القاسم، كما يقول الدكتور الساداتى، فى كتابه "تاريخ المسلمين فى شبه القارة"، يضم اثنى عشر ألفًا من جند الشام والعراق، انضمت إليهم جموع كثيرة من قبيلتى الميد والزط السنديتين، أفاد منهم المسلمون كثيرًا.

وكانت مدينة الملتان (حاليًا فى باكستان) هى أول عاصمة للعرب فى الهند، وهكذا، توالت الفتوحات الإسلامية فى شمال الهند. أما جنوبها، فقد رغب كثير من حكامه فى الإسلام، وحاولوا توطيد أواصر الصداقة مع الدولة الأموية (٦٦٠ـ٧٩٤م)، حتى إن الملوك الهنادكة منحوا الجاليات العربية، التى استوطنت بلادهم، حرية لنشر تعاليم الإسلام، لدرجة أنهم احترموا أولئك الذين أسلموا من أبناء جلدتهم[١]، وحدث امتزاج فعلى بين الفاتحين، وسكان البلاد الأصليين، عن طريق الزواج والتناسل.

ولم يكد يصل العصر العباسى، حتى تدفقت أمواج المماليك الهنود على قصور الملوك، وبيوت الأمراء، فى بغداد، هذا إلى جانب الهنود الأحرار الذين استوطنوا البلاد العربية، وتزوجوا من العربيات، وظهر من بينهم العلماء والساسة، ومن منا يُنكر دور البرامكة ــ وهم من أصل هندى[٢] ــ وهى أكبر أسرة أسدت خدمات عظيمة إلى بلاط هارون الرشيد؟ ومن هنا، بدأ الرحالة العرب فى استكشاف هذا العالم، فذهب المسعودى، فى عام(٣٠٣هـ/٩١٥م)، ووصفها وصفًا دقيقًا.

---

(١) جورج فضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى، فى العصور القديمة، وأوائل العصور الوسطى، ترجمة: د/ سيد يعقوب بكر، مصر، ١٩٥٨م، ص ٤٥.

(٢) سيد سليمان الندوى، عرب وهند كـ تعلقات، لكهنو، ١٩٨٠م، ص٤٣.

وقد جاء أول دعاة الفاطميين إلى الهند من اليمن، ولما تولى الحكم في مصر العزيز بالله الفاطمي، الذي دامت حكومته أكثر من واحد وعشرين عامًا، من سنة ٣٦٥هـ/ ٩٦٦م ــ ٣٨٦هـ/٩٩٦م، أصبحت للفاطميين إمبراطورية واسعة، فاقت أحيانًا الخلافة العباسية قوة، ونفوذًا، واتساعًا للملك، حتى إنه طمع في ضم (السند) العباسية، تحت راية الدولة الفاطمية.

وبالفعل، تمكن جلم بن شيبان من الوصول إلى سدة الحكم، بدعم من قبل العزيز بالله الفاطمي، عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وهو ما أكده البشاري المقدسي، عندما زارها في هذه الفترة: "وأما الملتان، فيخطبون للفاطمي، ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره، ورسلهم وهداياهم تذهب دائما إلى مصر، وهو سلطان قوي "[١].

وعندما قامت الدولة الغزنوية، على يد سبكتكين، في أواخر القرن الرابع الهجري، تم القضاء على الدولة الفاطمية في الملتان، عام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م، وبقيت دولة عربية أخرى، وهي "سندان"، التي كانت تقع على الساحل الشرقي الهندي، وقد قامت على يد فضل بن ماهان، وكانت معروفة للجغرافيين العرب، أمثال: الإصطخري، الذي كتب عنها "وأما مدن الهند فهي: سوبارة، وسندان، وصيمور، والملتان... فهذه من المدن التي رفأناها"[٢].

هذا الحكم العربي لشبه القارة لم يترك أثره السياسي والاجتماعي فحسب؛ بل ترك آثارًا خالدة باقية في أفكار أهل شبه القارة وثقافتهم؛ فأصبحت السند، في هذه الأيام، قطعة من البلاد العربية، على اختلاف أنواعها وفروعها، على غرار ما في الحجاز، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وهذا ما أكده (جواهر لال نهرو) في كتاباته عن فترة الحكم العربي للهند، بقوله: ظلت الخلافة مائة عام تقريبًا في قبيلة تعرف بالأمويين، اتخذوا دمشق عاصمة لهم... وأدخلوا، لأول مرة بالهند، الفن

---

(١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٤٨٠.

(٢) أبو إسحاق الإصطخري الفارسي: المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، ١٩٦١م، ص٧٣.

المعمارى العربى، الذى اشتهر واختلط بالفن الهندى بمرور الزمن، وأصبح له طابع خاص، يتميز به عن الفنون الإسلامية الأخرى"(١).

وأدى هذا التجاوب إلى أن تركت الثقافة الهندية أثرًا كبيرًا فى الثقافة العربية، وكان أول خيوط هذا التجاوب، حين استدعى أبو جعفر المنصور (١٥٤هـ /٧٧١م) إلى بلاطه عددًا من علماء الهند، للاستفادة من تجاربهم، وخبراتهم العلمية، فى علوم الفلك والطب والصيدلة.

ولا شك أن انهيار الحكم العربى فى الهند، كان مرتبطًا بالأحوال السياسية البائسة؛ مما أدى إلى ظهور الأتراك على المسرح السياسى، فى العالم العربى والإسلامى أجمع؛ فذهبت هيبة الخلافة العباسية، وسلب من أيدى الخلفاء سلطانهم ونفوذهم، وانقسمت الدولة إلى دويلات يحكمها أمراء وسلاطين، دون قوة تمكنهم من الوقوف فى أوجه أعدائهم، فانفرد الغزنويون بالحكم فى شبه القارة. ومن ثم، لم تشهد الهند، فى عصر الدولة الغزنوية، أية نهضة للثقافة العربية؛ إذ كانت الثقافة الفارسية هى السائدة، رغم وجود البيرونى، الذى كان يُعد أبرز مظاهر الثقافة العربية الهندية آنذاك.

وهكذا، ظل الاتصال بين البلاد العربية، وشبه القارة الهندية، اتصالاً محدودًا، يقتصر على الولاء الروحى للخلافة الإسلامية فى بغداد فقط، رغم استقلالهم التام عن الخليفة والخلافة. إلى أن جاءت دولة المماليك (٦٠٢هـ /١٢٠٦م ـ ٦٨٩هـ/١٢٩٠م)، على يد قطب الدين أيبك، وفى عهدهم، كانت الخلافة العباسية تلفظ أنفاسها الأخيرة، إلا أن مصر أتيح لها الفرصة أن تكون على اتصال وثيق بدولة المماليك، فى شبه القارة، وذلك بعد أن استوفد الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله من بغداد، فى عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وبايعه بالخلافة، وهو أول خليفة فى الديار المصرية، وقد توفى عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م.

(١) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣٠.

ثم استمرت الخلافة العباسية فى مصر، إلى أن استولى العثمانيون على البلاد العربية، عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م(١)، وقد جلبت هذه الخلافة الإسلامية خيرًا وبركة لمصر؛ فجعلتها مركزًا للثقافة الإسلامية، وكان أهم مظاهرها اتصال سلاطين الهند بمصر.

كانت الأسرة التغلقية، التى أسسها القائد التركى غياث الدين تغلق (٧٢١هـ/١٣٢١م)، تحكم الهند، وهى الدولة التى وفد إليها الرحالة العربى ابن بطوطة، وكان محمد تغلق قد طلب من الخليفة بمصر إرسال وثيقة اعتراف به، وهو ما أكده ابن بطوطة فى رحلته: "وكان السلطان قد بعث بهدية إلى الخليفة، بديار مصر، أبى العباس، وطلب إليه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند، اعتقادًا منه فى الخلافة؛ فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه، مع شيخ من الشيوخ، بديار مصر"(٢).

ومن هنا، وطد السلاطين الهنود علاقاتهم بمصر، وهذه العلاقة ظلت تنمو وتزدهر بمرور الزمن؛ وذلك لأن مصر أصبحت، فى ظل الدولة المملوكية، قوة عظيمة فى البحر المتوسط، وصاحبة السيطرة على أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب، وصاحبة الدور الرئيسى فى الحروب الصليبية، فى أواخر القرون الوسطى. وازدهر، على يد السلطان ناصر قلاوون، طريق البحر الأحمر وموانئ مصر(٣).

وبهذا استطاعت مصر أن تتبوأ مكانةً دوليةً، فى مجال التجارة العالمية، وبدهى أن يكون للهند نصيب موفور، ودور كبير فى هذه التجارة العالمية. ومما يذكر، فى ميدان التجارة الهندية – العربية، ميناء الگجرات (إحدى مقاطعات الهند

---

(١) النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٠٩ ـــ١١٠، نقلاً عن: تاريخ الصلات، محمد إسماعيل الندوى، بيروت، ب. ت، ص ١٤٧.

(٢) ابن بطوط، الرحلة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٤٥٤.

(٣) د/ إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٧٢ــ ٨٤.

الآن)، على الساحل الغربى؛ حيث كان يتردد عليها التجار العرب، منذ أقدم العصور؛ ولذلك أصبحت مركزًا تجاريًا كبيرًا للعرب؛ مما جعلهم يحرصون على أن تكون لهم فيها جاليات عربية، شاهدها معظم الرحالة العرب، أمثال: سليمان التاجر، وأبى زيد السيرافى، والمسعودى.

وكان سلطان الكجرات على صلة وثيقة بالسلطان الغورى فى مصر. وقد حدث، فى هذه الفترة، أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م، فوصل فاسكو داجاما، فى ثلاث سفن، إلى الهند، بعد رحلة استغرقت أربعة أشهر.

وفى عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، هاجم البرتغاليون المراكب التى كانت تحمل الحجاج والمتاجر إلى البحر الأحمر، ثم ازداد نشاط البرتغاليين فى نقل البضائع الشرقية، من الهند إلى البرتغال مباشرة، وأغلق البرتغاليون، عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م، مداخل البحر الأحمر أمام السفن العربية، واستولوا على جزيرة سومطرة (باليمن الآن)، عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م، قرب مدخل البحر الأحمر، عند القرن الأفريقى. وبهذا، تحكموا فى الطريق المباشر بين شبه القارة ومصر[١].

وقد أدى ميناء "كاليكوت"، الذى استحوذ عليه البرتغاليون، فى جنوب الهند، دورًا كبيرًا فى الملاحة الهندية. وقد شاهد ابن بطوطة هذا الميناء الشهير، وسجل مشاهداته. والجدير بالذكر أن هذا الجزء الهندى لم تدخله الجيوش الإسلامية، فى أى عصر من العصور، ولم تمتد إليه الفتوحات الإسلامية، بل انتشر الإسلام فيه على يد التجار العرب، والمتصوفة، وهؤلاء هم الذين شيدوا المساجد والمدارس، التى شاهدها ابن بطوطة[٢].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١ ــ ٢٩٤.

(٢) ابن بطوطة – الرحلة – ص ٥٥٩.

ومن هنا، كان لا بد لمصر أن تطلب من ملوك الهند طرد البرتغاليين؛ وذلك لإنقاذ مكانتها التجارية العالمية. ومن حسن الحظ، أن سلاطين الگجرات، وهم من المسلمين، كانوا يكرهون البرتغاليين، ويُحبون مصر، بوصفها دولة إسلامية رائدة. وتذكر لنا المصادر أن السلطان الغورى أعدّ حملة حربية، من جدة إلى الهند، وغادر الأسطول القاهرة، في ٩١١هـ/١٥٠٥م، بقيادة الأمير حسين الكردى، نائب جدة، وظل الأسطول يتقدم حتى هزم البرتغاليين على الشاطئ الغربى للهند، عام٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، غير أن البرتغاليين استطاعوا، فى السنة التالية، أن ينتقموا بتحطيم الأسطول المصرى، وبذلك تمكنوا من تعطيل التجارة تمامًا، بين شبه القارة ومصر[١].

وفى عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م، قامت الدولة المغولية، على يد ظهير الدين بابر؛ أحد أحفاد تيمور لنك، الذى اكتسح البلاد الإسلامية. وفى هذه الفترة، انقطعت الصلات التجارية بين الهند والبلاد العربية؛ وذلك لظهور العثمانيين الأتراك على المسرح السياسي، واستيلائهم على العالم العربي، وسقوط الدولة المملوكية فى مصر. ولم يفكر العثمانيون فى الهند مطلقًا. ومن ثم، ظلت شبه القارة بعيدة كل البعد عن الدولة العثمانية. وفيما يتعلق بالعلاقات التجارية، لم يهتم المغول، فى بداية أمرهم، بتحسين الموانئ الهندية، وتقوية الأساطيل التجارية، (ويعزى هذا إلى أن الگجرات والمناطق الساحلية، ظلت دولاً مستقلة، حتى عام٩٨٠هـ /١٥٧٤م، حيث ضمها السلطان أكبر فى نهاية الأمر).

ولم يكن (بابر) وأحفاده يهتمون بالموانئ الهندية؛ مما شجع البرتغاليين، ثم الفرنسيين والإنجليز، على إنشاء مراكزهم فى سواحل شبه القارة، وتقوية مراكزهم التجارية، لكن (أورنجزيب)، آخر الحكام المغول الفعليين، وجه عناية خاصة إلى هذه الناحية؛ فبنى الأساطيل، وطرد الإنجليز من موانئ "بمباي"و"سورت"(كلاهما

---

(١) إبراهيم على طرخان: صر فى عصر دولة المماليك والجراكسة – ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

بالهند الآن)، لكن وفاته حالت دون القضاء التام عليهم، فاستفحل أمرهم، فيما بعد، واستولوا على المناطق الساحلية، ثم توغلوا رويدًا رويدًا فى شبه القارة، حتى استعمروها، عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م.

وفيما يتعلق بهذه الفترة، فإن المنطقة العربية والهندية كلتيهما، كانت تواجه الاستعباد السياسى، على يد الغرب، والتخلف الاجتماعى، الذى كانت مجتمعاتهم تئن فيه، نتيجة بسط النفوذ السياسى الأوربى؛ حيث صار هو الوسيلة المضمونة للاستغلال الاقتصادى، والاحتكار التجارى، وظلت بريطانيا صاحبة السيادة المطلقة على المنطقتين.

وما من شك فى أن المصلحين، من أمثال: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعرابى، وغاندى، ونهرو، وأبو الكلام آزاد، ومحمد على جناح، وغيرهم؛ قد جمعوا بين الزعامة السياسية والإصلاحية، فعملوا على الانتقال من عقلية العصور الوسطى، إلى عصر النهضة، والتقدم الفكرى.

فلم تعد السياسة، فى كلتا المنطقتين، مقصورة على الزعماء السياسيين، كما كانت عليه فى الماضى، بل انخرطت الجماهير فى الحياة السياسية؛ لإدراكها مدى أهمية الحرية فى حياتها. وفى هذه الفترة، حدثت اتصالات محدودة بين العالم العربى والهندى، سواء كانت على المستوى الفردى أو الجماعى؛ وذلك بسبب القيود التى كانت تفرضها السلطات الاستعمارية على تحركاتهم؛ فالمهاتما غاندى كان يُكن الكثير من الاحترام لسعد زغلول، ويتعاطف مع العرب، حول قضية فلسطين.

وظلت العلاقات تنمو وتزدهر، إلى أن دخلت مرحلة جديدة، بعد تقسيم شبه القارة إلى: باكستان والهند، عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م؛ حيث استقلت معظم الدول العربية، وبدأ دور جديد من العلاقاتَ الهندية العربية؛ فطبيعة القضايا السياسية والاقتصادية، التى كان يواجهها الشعبان بعد الاستقلال، تختلف عما كانت عليه فى

السابق. فقد كان عليهما أن يواجها قضايا جديدة، مثل: الحفاظ على الحرية السياسية، والسلام العالمى، والأسلحة النووية، وما إلى ذلك. لكن ظلّت الروابط الثقافية والفكرية هى حجر الزاوية فى العلاقات العربية الهندية، وذلك عن طريق اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، التى يدرسها الهنود، فى أكثر من أربعين جامعة ومؤسسة علمية؛ فهناك العديد من الإسهامات الهندية فى العلوم العربية، والثقافة الإسلامية.

ومن الأهمية بمكان أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين، استطاعت الهند، مع عدد من الدول العربية، أن توجد موقفًا سياسيًا مشتركًا فى حقل السياسة العالمية، وكونوا مع بعض الدول جبهة عدم الانحياز، حول كثير من القضايا الدولية المهمة فى المحافل الدولية، وموقف الهند من العدوان الإسرائيلى على الأردن، وسوريا، ومصر، عام١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ليس سوى مظهر لاستمرار السياسة ذاتها، التى تبنتها الهند تجاه القضايا العربية[١].

ولا ننسى موقف مصر، فى١٣٨٢هـ/ يناير ١٩٦٢م ، عندما هاجمت القوات الهندية المستعمرة البرتغالية، فى مدينة "جوا"، على الساحل الهندى الغربى ــ هذه الجزيرة ظلت تُحكم من قبل البرتغاليين، زهاء ٤٥٠ عامًا ــ وسارعت السفن البرتغالية، قادمة من البرتغال، تحمل القوات والإمدادات، عن طريق قناة السويس؛ لتشد أزر حاميتها هناك، فما كان من مصر إلا أن رفضت السماح للسفن البرتغالية الحربية بالمرور بقناة السويس، فى طريقها إلى "جوا"[٢]، وتم استيلاء الهند على المقاطعة البرتغالية.

ومن هنا، اتسمت العلاقات الهندية العربية دائمًا بطابع التعاون الوثيق، وهو ما نلاحظه فى طبيعة العلاقات مع مصر، باعتبارها أكبر الدول العربية أهمية، ثم

---

(١) د / مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، تعريب: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧.
(٢) أحمد عبد المنصف محمود: فى بلاد البقرة المقدسة، دار الكتاب العربى، القاهرة، ب. ت، ص١٢٧.

مع دول الخليج. فالعلاقات مع مصر تميزت بالربط بين حركات الاستقلال الوطنى فى الهند ومصر، ممثلة فى العلاقة الحميمة بين جمال عبد الناصر، وجواهر لآل نهرو؛ حيث قادت الدولتان حركة عدم الانحياز، فى عصر الحرب الباردة، وجمعت بينهما أوجه التشابه، فى السياسة الداخلية والخارجية.

أما العلاقات مع دول الخليج، فقد اتسمت دائمًا بالطابع التعاونى؛ حيث تعد هذه الدول شريكًا تجاريًا مهمًا للهند، وأكبر سوق لها فى الشرق الأوسط، فضلاً عن التعاون العسكرى بين الهند وهذه البلاد، ناهيك عن العمالة من أبناء الهند فى دول الخليج، واعتمادها على هذه المنطقة فى سد احتياجاتها من النفط والغاز؛ الأمر الذى يجعل أحد أهداف السياسة الخارجية للهند هو المحافظة على علاقة طيبة بالبلاد العربية.

والخلاصة، إن الهند اليوم مدركة تمامًا لمصالحها فى العالم العربي، كما أن العالم العربى مدرك لعلاقاته بالهند، خاصة بعد المكانة الدولية التى حصلت عليها الهند، فى نهاية القرن العشرين؛ نتيجة للتقدم الاقتصادى والعلمى والتكنولوجي. ورغم ما يكنه الهنود من احترام للعرب، فإن ثمة عددًا غير قليل من الهنود، لا يعرف عن العرب إلا البترول وأبا الهول والأهرامات، كما لا يعرف العرب عن الهند إلا الغرائب وأسماء بعض نجوم السينما وكشمير.

الباب الأول

الرحالة العرب وبداية العلاقة مع الهند

جزيرة العرب والهند بلاد أمم عظيمة، وأماكن عبادة دينية، وأرض مقدسة طاهرة عند أهلها، ومن المهم فى هذا الصدد معرفة أهل البلاد الأصليين فى الهند، وثمة اختلاف كبير فى هذا الشأن، وربما سمعنا بدعوى الآريين، فى هذه القضية، ولكن أسمعت بدعوى العرب القديمة؟

لقد مضى على قدوم الآريين هذا البلد آلاف السنين؛ حيث حل الآريون البنجاب، من وسط آسيا، وظلوا يتقدمون، حتى انتشروا على ضفتى نهر الجمنا والجنجا(١). لكن دعوى العرب أن علاقتهم بالهند علاقة قديمة، منذ بدء الخليقة، وأن هذا البلد موطن آبائهم.

وحيثما تذكر قصة آدم، عليه السلام، فى الأحاديث والتفاسير، نجد روايات متعددة توضح أن سيدنا آدم، عليه السلام، طُرد من الجنة، ونزل إلى جنة الأرض، وهى الهند، فوضع قدمه الأولى فى سرانديب(٢)، وما زالت آثار أقدامه موجودة فى أحد جبالها، حتى الآن.

وقد ذكر ابن جرير، وابن أبى حاتم، والحاكم(٣)، أن اسم الأرض التى هبط إليها آدم فى الهند، هو "دجناء". فهل يمكن أن يقال: إن "دجناء" هى الكلمة الهندية "دكهنا" أو "دكهن"، والتى تطلق على جنوب الهند؟

---

(١) *هما من الأنهار المقدسة لدى طائفة الهندوك.*

(٢) *سرانديب هى دولة سيرلانكا حاليًا.*

(٣) هذا التفسير منشور فى كتاب السيوطى – ج الأول – صـــ ٥٥ ، كما أنه موجود بروايات أخرى بعد ذلك بمصر، كما ينبغى الاطلاع على الباب الأول من كتاب "سبحة المرجان فى تاريخ هندوستان". *(ورد فى كتاب السيوطى، "الوسائل إلى مسامرة الأوائل"، ج٤: أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، والحاكم، وصححه عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: إن أول ما أهبط الله آدم، أهبطه إلى أرض الهند، وفى لفظ (بدجلى بأرض الهند).*

وبما أن العرب كانوا يجلبون البخور والبهار، من جنوب الهند؛ ثم أخذت تنتشر فى جميع بقاع العالم، لهذا يمكن القول: إن هذه الأشياء إلا ذكرى تلك الرياحين، التى أتى بها آدم من الجنة، ومن بين هذه الهدايا، فضلاً عن التمر، ثمر الليمون والموز.

وثمة رواية أخرى تقول: إن الجوافة فاكهة من فواكه الجنة الموجودة فى الهند. ويقال: إن أربعة أنهار نبعت من الجنة، هى: النيل، والفرات، وجيحون، وسيحون، فالنيل نهر فى مصر، تقوم عليه الزراعة. وكذلك نهر الفرات، بالنسبة للعراق؛ فهو سبب نضرته وخضرته. وجيحون نهر فى التركستان، وأهميته مثل أهمية النيل لمصر، والفرات للعراق.

أما سيحون، فهو اسم لنهر فى الهند، فهل يعتبر الجنجا هو نهر الجنة الرابع؟ وإن كان البعض قد أقر بأنه نهر السند.

لقد أفرد (مير آزاد بلجرامي) صفحات عدة، فى كتابه "سبحة المرجان فى آثار هندوستان"، فصّل فيها القول عن فضائل الهند، فقال: إن آدم أول من هبط أرض الهند، وفيها نزل عليه الوحى، فالهند الأرض التى نزل فيها أول وحى من الله.

وبما أن نور محمد، صلى الله عليه وسلم، كان أمانة فى جبين آدم، عليه السلام، فيثبت من هذا أن بداية ظهور محمد، عليه الصلاة والسلام، كان على هذه الأرض، ولهذا قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيما معناه: "تأتى إلىّ ريح طيبة من الهند".

على أية حال، فإن جميع هذه الروايات، طبقًا لمقاييس تخريج الأحاديث، تعتبر أحاديثا ضعيفة، إلا أننا نستخلص من هذه الروايات، وهذا هو الاعتقاد

السائد، أن علاقة المسلمين بشبه القارة الهندية تبدأ بغزوات محمود الغزنوي[1]، حيث جاء المسلمون، واستقروا فى الهند. بيد أن هذا اعتقاد خاطئ؛ إذ الحقيقة أن المسلمين لم يعدوا الهند بلادًا مفتوحة، بل اعتبروها وطن آبائهم، ومن اعتقد غير ذلك، فعليه أن يعرف أن المسلمين قد قدموا إلى الهند قبل محمود الغزنوى، بمئات السنين، وقامت لهم مجتمعات عمرانية، فى أماكن متفرقة.

وبعد الإسلام، حصلت أسرة السادات *(آل البيت)* على مكانة مرموقة بين العرب والمسلمين، ويعود نسب الجزء الأكبر من هذه الأسرة إلى الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين، رضى الله عنه، ولم تكن والدة الإمام زين العابدين عربية، ويدّعى الفرس أنها فارسية، ومن أسرة ملكية؛ إلا أن بعض المؤرخين أقر أنها من السند[2].

ولو سلّمنا بصحة هذا الرأى الأخير، فليس ثمة ما يدعو إلى إنكاره، وقبول مشاركة الهند فى ميلاد أشرف أسرة للمسلمين والعرب وأطهرها، وسواء كان ثمة مسلمون آخرون لهم علاقة بالهند، أم لم يكن، تبقى أسرة زين العابدين على، على الدوام، ذات عرق هندى.

وقد فتح محمود الغزنوى (لاهور)، عام ٤١٨ هـ، بعدما بدأ قدوم الأفغان والأتراك المسلمين، من ممر خيبر إلى شمال الهند، فى القرن الرابع الهجري، وظل الجنوب الهندى، من مليبار وكارومندل حتى الكجرات، خارج سيطرة المسلمين، لمئات السنين.

---

(١) محمود الغزنوى (٩٧٠ ــ ١٠٣٠م): هو ثالث سلاطين الدولة الغزنوية، وأشهرهم على الإطلاق، اشتهر بتشجيعه العلوم والفنون والآداب.

(٢) انظر (المعارف) لابن قتيبة، وابن خلكان، تذكرة على بن الحسين زيد العابدين – رضى الله عنه – *"يلاحظ أن رقم الصفحة، ومكان الطبع، وسنة الطبع، غير موجودة فى الأصل".*

وعندما فتح السلطان علاء الدين الخلجي[١] الكجرات، عام ٦٩٧م، ضمها إلى مقاطعة دهلي. أما فى اتجاه مدراس[٢]، فكل ما حدث أن جيوش علاء الدين عبرت حتى سواحل مليبار وكارومندل[٣]، ولم يحالفه الحظ فى هذا، فظل حصن بيجانكر[٤] حائلاً أمام تقدم المغول والأفغان، لعدة قرون. كما أن الدولة البهمنية[٥] باتت فى عراك مع بيجانكر، طيلة عمرها، ولكنها لم تتقدم أكثر من منطقة كرشنا. ولم يقض عليها، بصعوبة بالغة، إلا تلك الثورات الخمس، التى خرجت من تحت رماد الدولة البهمنية، عام ١٥٦٥م.

ورغم هذا، ظلت إمارات هندوكية صغيرة قائمة، حتى عهد أورنجزيب عالمجير [٦]. وهكذا وضع المسلمون أقدامهم فى مناطق أركات، وميسور، ومدراس، لفترة وجيزة جدًا، وإن لم يستطع أحد منهم أن يثبت أقدامه لمدة طويلة.

ونود أن نلفت النظر إلى أنه لم تكن الغاية من هذا إلا توضيح، متى وقع أثر الموجات القادمة من ممر خيبر، مباشرًا كان أم غير مباشر؟ وفى أى مناطق شمال الهند كان هذا الأثر؟ فمقالنا إن هو إلا توضيح لهذه العلاقة.

---

(١) علاء الدين الخلجي: هو أشهر الحكام الخلجيين، جلس على عرش الهند، عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، انبرى فى فترة حكمه لصد هجمات المغول عن الهند، عام ١٣٠٤هـ، وتوفى عام ٧١٥هـ/ ١٣١٦م.

(٢) مدراس: هى ولاية بالهند حاليًا، وتسمى بولاية تمل نادو أو شنائى، فى جنوب الهند.

(٣) ماليبار وكارومندل: منطقة بجنوب الهند، وكانت من أوائل المناطق التى دخلها المسلمون.

(٤) حصن بيجانجر: كانت عاصمة إحدى الدويلات الصغيرة، التى انقسمت عن الدولة البهمنية، فى جنوب الهند، فى القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت عاصمة دولة بيجانكر.

(٥) الدولة البهمنية: هى الدولة التى أسسها علاء الدين بهمن، فى الجنوب الهندى، عام ٧٤٢هـ/١٣٤٧م، وكانت تدين بالمذهب الشيعي، وقد انقسمت إلى دويلات صغيرة، ولم يفكر سلاطين الدولة المركزية، فى الشمال، فى إعادة هذه الدويلات إلى حظيرة دولتهم، إلا فى فترة متقدمة، أى فى أواخر القرن السابع عشر الميلادي.

(٦) أورنجزيب: هو آخر السلاطين المغول الأقوياء، جلس على العرش، عام ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م، واتخذ لنفسه لقب (عالمجير)، هذا وقد أجرى أورنجزيب العديد من الإصلاحات فى البلاد، بعد توليه الحكم، وتوفى ١١١٢هـ/ ١٧٠٧م، وبعده بدأت الدولة المغولية فى الانهيار، إلى أن سقطت فى يد الإنجليز، عام ١٨٥٧م.

البنجاب، عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م

السند، عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م

دهلي، قنوج، اودهـ، بنارس، عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م

بهار والبنغال، عام ٩٣ – ٥٩٥ هـ / ٩٥ – ١١٩٩ م

الدكن "ديوجير"، عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٧ م

مهراشترا ومدراس، عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م

وبهذا يمكننا شرح العلاقات المشتركة بين الهنود والعرب، وبيانها فيما يتعلق بكل إقليم من أقاليم الهند، حتى بداية الفتح، على يد القادمين من ممر خيبر.

ويمكننا أن نطلق على بلاد الهند، وشبه الجزيرة العربية، إنها بلاد متجاورة، يجاور بعضها بعضاً؛ إذ لا يحول بينهما إلا البحر. ولو مُدت الطرق الطويلة والعريضة؛ على سطحه، لربطت بين الدول بعضها البعض، وكلتاهما تقع على الشاطئ المقابل، فلو أمسكت إحدى يدى هذا البحر، بأرض الحرم، لأمسكت اليد الأخرى، بأرض الآريين.

ومن الطبيعى، أن تكون البلاد الساحلية بلادًا تجارية. إذن، فالتجارة هى العلاقة الأولى التى ربطت إحداهما بالأخرى. فمنذ آلاف السنين، والتجار العرب يتوافدون إلى سواحل الهند؛ لحمل المنتجات الهندية، وتصديرها إلى أوربا، عن طريق مصر والشام. ليس هذا فحسب، وإنما كانوا يأخذون هذه الأمتعة إلى شمال الهند، وبعض الجزر الهندية، وحتى الصين واليابان.

وكان طريق العرب البحرى يبدأ من مدن مصر والشام، إلى شواطئ البحر الأحمر، ومنه إلى الحجاز واليمن. ومن هناك، عن طريق المراكب الشراعية، كان يقصد البعض مناطق أفريقيا والحبشة، والبعض الأخر يتجه صوب شواطئ حضرموت، وعمان، والبحرين، والعراق، مرورًا بسواحل إيران، فى خليج فارس.

وكانوا إما ينزلون فى ميناء بلوجستان، أو يتقدمون صوب ميناء السند، فى كراتشي، ثم بعد ذلك، يتجهون إلى ميناء كتهياوار والكجرات، ومنها إلى تهانه وبمباى وكهمبايت، حتى يصلوا إلى كاليكت وراس كمارى. وأحيانًا كانوا يقيمون، فترة من الزمن، فى شواطئ مدراس، وأحيانًا أخرى، كانوا يواصلون سيرهم إلى سرنديب اندمان، ومنها مباشرة، يطوفون كل موانئ مدراس، حتى يدخلوا خليج البنغال. وهناك، يمرون على موانئ البنغال، برهما وسيام، ومنها إلى الصين، ومن هذه الطريق، كانوا يعودون.

وما الغرض من هذه الخريطة البحرية إلا توضيح أن مراكب العرب كانت تطوف مدن الهند، وجزرها بشكل دائم، وكانت رحلاتهم هذه مستمرة، حتى قبل التاريخ.

وكان الفينيقيون هم أول من عرف التجارة البحرية. وفينيس اسم يونانى؛ وهو ما يعرف فى العبرية بالكنعانى[1]. ويطلق عليهم الآراميون أيضًا، وأطلق العرب عليهم اسم إرم[2]، وهو الاسم الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم:

---

(١) كان الإغريق يسمون الكنعانيين بالفينيقيين.. ولم يطلقوا، فى بادئ الأمر، هذا الاسم إلا على أهل الشاطئ.. ثم أطلقوه على الجميع بعد ذلك. والظاهر أن هذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية الأصل؛ لأن جميع الأمم الأخرى لا تعرف الكنعانيين بهذا الاسم، ولا باسم آخر قريب منه. وكان بنو إسرائيل يسمون القبائل الكنعانية بأسماء مناطقها؛ فيقولون: أهل صور، وأهل صيدا.. كما كانوا يطلقون عليهم اسم الكنعانيين " أنظر: تاريخ اللغات السامية، تأليف: إسرائيل ولفنستون – دار القلم، بيروت لبنان – الطبعة الأولى، ١٩٨٠م – صـــ ٥٦ و ٥٧ .

(٢) إرم: تقول عنها المصادر: إنها اسم لقبيلة عاد بن آدم بن عوص بن سام بن نوح، وهو اسم جد عاد من ولد "إرم" بن سام، العمالقة والجبابرة.

وهناك من قال بأن "إرم" اسم الجنة التى بناها شداد بن عاد؛ تحديًا منه لسيدنا هود، عليه السلام، عندما سمع منه ذكر الجنة، فقال: لأبنين جنة مثل جنة ربك، وقيل إن "إرم" هى دمشق؛ لأنه ليس فى البلاد مثلها، لكثرة خيراتها. لمزيد من التفصيل، انظر: أبو عبد الله القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٢ – بيروت – ١٩٩٣م – صـــ ٤٣ . =

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (١).

فعن العرب دخل، إلى لغتنا، تعبير "بهشت ارم"؛ أى: جنات الإرم.

وحول من هم الفينيقيون؟ يقول الباحثون: إنهم كانوا عربًا، نزحوا من سواحل البحرين، واستقروا بالشام. وكان البحرين ميناءهم الشرقى، والثائر فى الشام، كان ميناءهم الغربى، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومنه كانوا يعبرون إلى جزر اليونان، وشواطئ أوروبا وأفريقيا، وفى الشرق، كانوا يطلعون على أحوال إيران والهند، والصين، وعن هؤلاء الأقوام، بدأت الثقافة والحضارة فى اليونان، وتأسست كارتهج (قرطاجنة) سواحل شمال أفريقيا، ولكن تأثيرهم فى البلاد الشرقية، لم تنم إلى علمنا معرفة تامة عنه.

يعلم الجميع أن المخطوطات (المكتوبات) الهندية كلها، بل جميع المكتوبات الآرية، تكتب من الشمال إلى اليمين. لكن الأمر الذى يبعث على الحيرة والتعجب؛ أن بداية مكتوبات الآريين كانت تبدأ من اليمين إلى الشمال، على منوال طريقة اللغات السامية. أضف إلى هذا أن طريقة كتابة الأعداد قد تعلموها من هؤلاء التجار (العرب). وهناك مقالة، فى دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، عن "بداية تاريخ تدوين اللغة السنسكريتية"، وضّح كاتبها هذا الأمر، فى هذه العبارة التالية:

"ما زالت قضية بداية الحروف الهندية تثار حولها الشكوك، حتى الآن. وأقدم نموذج للكتابة الهندية، تلك المخطوطات المحفورة على الصخور، وهى بلغة البالى (وهى البراكرتية، التى كانت تستخدم فى الكتابات الدينية للبوذيين، جنوب

= وخلاصة ما جاء فى كتب التفسير، أن شداد بن عاد، و"إرم" هما ركنان أساسيان لقصة واحدة، وهى قصة مناظرة شداد لسيدنا هود، عليه السلام، الذى أرسله الله لقوم عاد الأولى، وهم أهل "إرم"، الذين كانوا يسكنون الأحقاف، بين عمان وحضرموت، وقد عرفوا بأن الله لم يخلق مثلهم؛ فى قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم. محمد على الصابونى – صفوة التفاسير – ج ٣، بيروت – ١٩٨١م – ص٥٥٦

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٦ و ٧.

الهند)، تلك اللغة التى كتبت بها الأحكام الدينية، التى أمر بحفرها ملك الأسرة المورية، أشوكا، عام ٢٥٣ ق.م. وكانت مملكته تضم ضواحى بشاور، على الحدود الشمالية الغربية، شمال الهند، ومن كرنار، فى الكجرات، حتى سواحل مدينة كاوه ودهولى، فى إقليم كتك، على السواحل الشرقية.

أما المكتوبات التى ظهرت فى أقصى الغرب، بالقرب من مناطق كبوردا جدهى، أو شبهاز جدهى، بجوار المنصورة[1]، فقد كتبت بحروف هجائية مختلفة تمامًا عن المكتوبات الأخرى، فهى تقرأ من اليمين إلى الشمال، وهى ما يطلق عليها عمومًا "اللغة البالية الآرية"، وهى نفسها الحروف التى استُعملت فى عملات "نقود" حكام اليونان، وايرينا بالهند.

أما الحروف التى كانت تقرأ من الشمال إلى اليمين، فكان يطلق عليها "البالية الهندية"، وكان يطلق على النوع الأول من الحروف، سالفة الذكر، اسم الخط الكهروشى، أو "الخروش"، أو الكندهارا، والذى يبدو أنه مأخوذ من لغة سامية، أو لغة آرامية، ولم يبق له أى أثر، فيما بعد، فى كتابات الهند.

أما النوع الثانى فهو الخط البالى الهندى، أو الخط البراهمي، ومنه خرجت الحروف الهندية، وهو مشكوك فى أصله، مع أنه قد وصل إلى مرحلة كبرى من التطور، فى عهد الملك أشوكا، وبدأ استخدامه فى أغراض علمية، بشكل يبعث على الحيرة، إلا أن بعض حروفه كانت مأخوذة من الحروف الفينيقية، التى هى بدورها قد تكون مأخوذة من الحروف الهيروغليفية المصرية. وقد نتج عن هذا التشابه الاعتقاد بأنه ربما يكون فى الأصل خط سامى. وقد لا يعرف الهنود أبدًا، كيف وصل إليهم هذا الخط؟ وصفوة القول: إن البروفيسور بوهلر (Buhler) قدم نظرية فى هذا الشأن، تقول: "ربما يكون التجار العراقيون هم أول من عرف الهنود بهذه الحروف، فى القرن الثامن قبل الميلاد، وبما أن هذه الحروف كانت قد

---

(١) المنصورة: هى إحدى المدن التى أسسها المسلمون، فى إقليم السند، عندما فتحها محمد بن القاسم.

اتخذت شكلها النهائى فى مكتوبات أسرة الموريا واندهرا، وانتشرت بشكل كبير، فإن هذا يجعلنا نُسلم، ولا ريب، أن فن الكتابة كان رائجًا، ومستعملاً لمختلف الأغراض، قبل عصر أشوكا بفترة طويلة فى الهند. وإن كان لا ذكر له فى أدب ذلك العهد، فقد يرجع ذلك إلى أن البراهمة كانوا راغبين عن كتابة مؤلفاتهم المقدسة".

بقى لنا سؤال عن الأعداد الهندية، وطريقة كتابتها؛ وما وجد فى مكتوبات خروشى، بداية التقويم الميلادى، يوضح لنا هذه الطريقة؛ إذ كانت الأعداد الثلاثة الأولى تكتب من خلال خطوط، أما رقم٤، فكان كالصليب المعقوف (المائل)، وكانت الأعداد من خمسة إلى تسعة تكتب هكذا:٤+١، إلى آخره، حتى رقم ٩، الذى كان يكتب: ٤+٤+١، وكان للأعداد ١٠، ٢٠، ١٠٠ رموز خاصة.

أما الأعداد الأخرى، مثل: ٥٠، مثلاً، فكانت تكتب:٢٠+٢٠+١٠= ٥٠. وربما كانت هذه الطريقة محاكاة لطريقة سامية أو آرامية. وفى المخطوطات البراهمية (حتى القرن السادس الميلادى)، كانت تستعمل أعداد من نوع آخر؛ فكان العدد من واحد إلى ثلاثة يكتب بخطوط مائلة. ومن العدد٤ إلى٩ وكان للآحاد، والعشرات، والمئات، والألوف (١٠، ٩٠، ١٠٠، ١٠٠٠) علامات خاصة، وقد تكون هذه الطريقة مأخوذة عن المصريين.

أما الطريقة التى كانت تستخدم فى الكسور العشرية، والتى وجدت، أولاً، فى مخطوطات منطقة الكجرات، فلربما تكون من اختراع المنجمين والرياضيين، من أهل هذه البقعة.

ولكن مما يثير الدهشة والعجب، أن العديد من أهل الهند، فى عصر المهابهارت[1]، كان على معرفة باللغة العربية، وبما أن هذا أمر صعب تصديقه، فإن اعتراف أحد الكهنة الكبار به، لا يجعله محلاً للإنكار أو الشك، من جانبى.

إن سوامى ديا نندجى، مؤلف كتاب (سينهارتهــ بركاش)، كتب فى الباب ١٤٧، من الجزء الأول: "فى عصر المهابهارت، وعندما أرادت أسرة الكورو أن تبنى مكانًا؛ لكى تحرق فيه أسرة الباندو؛ حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، كلم ودرجى يدهشتر باللغة العربية، فأجابه أيضًا باللغة العربية". فلو صح هذا القول، لتبين لنا مدى قدم العلاقات العربية الهندية!

وثمة صورة من صور الاتصال بين العرب والهنود، عن طريق ملك فارس، الذى كانت منطقة بلوجستان والسند خاضعة لسلطانه. وعن طريق هذه السيطرة، دخل بعض قبائل السند المحاربة فى جيش الفرس. وقد ذكر العرب اثنين من هذه القبائل، وهما: الجات (الزط)، والميد (الميد)، وهما من أشهر قبائل السند.

ففى حديث، رواه عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: "إنه رأى مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أناسًا لهم صورٌ، وأشكالٌ خاصة". وكل ما ذكره عنهم يماثل وجوه الجات[2].

ويفهم من هذا الحديث، أن العرب كانوا على دراية (بالزط)، فى القرن السادس الميلادي. وعندما انهزم الفرس، رأى الزط البواسل أن يستفيدوا من هذا، فدخلوا فى زمرة جيش المسلمين، بعدة شروط. وقد احترم القادة المسلمون الزط، وأدخلوهم فى قبائلهم، فولّاهم الإمام على – كرم الله وجهه – فى موقعة الجمل،

---

(١) *المهابهارت: الملحمة القومية للهنادكة، ينيف عدد أشعارها على المئتى ألف، فيها وصف حروب أبناء العمومة، كورف وپاندف، ألفت فى القرن السادس، أو الخامس قبل الميلاد.*

(٢) الترمذى، أبواب الأمثال. *لم أجد هذا الحديث فى المصدر المذكور، ولا أعرف من أين أتى به المؤلف!*

بيت المال، فى البصرة[١]، ووطّنهم الخليفة معاوية - رضى الله عنه - سواحل الشام، فى مواجهة الروم، وعمّر بهم الوليد بن عبد الملك، فى عهده، مدينة إنطاكية[٢].

لفظ هند:

قبل قدوم المسلمين، لم يكن ثمة اسم للبلاد؛ إذ كان لكل إقليم من الأقاليم اسمه الخاص به، وكانت كل إمارة تعرف بعاصمتها. وعندما سيطر أهل فارس على أحد أقاليم هذه البلاد، سمّوه "هند هو"، نسبة إلى النهر الذى يعرف باسم "نهر السند"، وقد عرفه العرب باسم "مهران"، وفى اللغة الفهلوية (الإيرانية القديمة)، كانت السين السنسكريتية تقلب هاء؛ ولهذا نطقه أهل فارس "هندو"، وهكذا أطلق على البلاد: بلاد الهند.

أما المدن التى كان العرب على معرفة بها، غير السند، فقد أطلقوا عليها اسم "الهند"، وبهذه الطريقة، انتشر الاسم فى جميع بقاع العالم، بصوره المختلفة، فقلب الإفرنج حرف الهاء ألفًا، وأطلقوا عليها: إندو، وبعدها صارت إنديا India، وهو ما اشتهرت به فى العالم.

أما القادمون من ممر خيبر، فقد أطلقوا عليها: الهندوستان، طبقًا للنطق الفارسى، أى: أرض الهنود. والأمر الأكثر عجبًا، أن هذا الاسم (لفظ هند) كان محببا عند العرب؛ فسموا بناتهم به؛ فزاع صيته فى الشعر العربى، مثل ليلى وشيرين، فى الشعر الفارسى.

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) بلاذرى - ذكر أساوه *"الإمام أبو الحسن البلاذرى - البلدان، راجعه وعلق عليه: رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - ١٩٩١م - صـــ ٣٦٩.*

فتوحات العرب فى شمال الهند:

كانت العلاقات بين العرب والهند على هذا النحو، الذى ذكرناه، وبعد ظهور الإسلام، اتجه العرب صوب الهند، بعد فتح فارس؛ إذ اعتبر العرب أن فتح كل المناطق العمرانية الجديدة، التى كانت تحت سيطرتهم، أمرًا ضروريًا؛ إذ بعد فتح مكران وبلوجستان، وجد العرب حدود السند أمامهم، وهم فى حاجة إلى تأمين تجارتهم البحرية، فى إحدى موانئ الهند.

وفى عهد الخليفة الثانى، عمر بن الخطاب، تم إرسال أسطول بحرى عربى؛ للسيطرة على أحد الموانئ المناسبة هناك. وبالفعل، سيطر البحّارة العرب على مرسى صغير، يسمى"تانه"، بالقرب من "جهان آباد"، إحدى مدن "ممباى"، ولا يزال هذا المرسى موجودًا حتى الآن.

وكان أول هجوم قاده العرب، عام ١٥ هـ/ ٦٣٦م، على هذا الميناء، بأمر من حاكم "البحرين"، وبعدها واصل الجيش الهجوم على بهروج (بروص). وتزامن مع هذه الحملة، هجوم قام به أحد القادة العرب، يدعى "المغيرة"، على مدينة "الديبل" التى كانت ميناء لإقليم "السند"، والتى هى بالقرب من "كراتشى" اليوم.

وبعد هذا الهجوم ببضعة أعوام، وبالتحديد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أرسلت كتيبة بحرية للإشراف على هذه الموانئ مرة أخرى. وفى عهد الخليفة الرابع على – رضى الله عنه (من ٣٩هـ/ ٦٦٠م)، بدأ القادة العرب الإشراف على هذه المناطق، وبعدها، أصبح هذا المنصب مستقلاً، ومعمولاً به من قبل الحكومات العربية التالية بعد ذلك.

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، عام ٨٦هـ/٦٠٥م، كان الحجاج واليًا له على مناطق الشرق المفتوحة: مناطق العراق، وإيران، ومكران، وبلوجستان؛ فسعى الحجاج إلى توطيد علاقاته بالهند وجزرها. وكان التجار العرب يفدون إلى هذه المناطق دائما، إلا أن سفنهم كانت تتعرض لعمليات القرصنة

والسلب والنهب، فى معظم سواحل الهند. وحتى عهد البيرونى، ٤٢٤هـ، كانت مدينة "سومنات"[١]، وغيرها من المناطق، ملاذاً لهؤلاء اللصوص[٢]. *(البيرونى، كتاب الهند، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ١٠٩ ، ٢٠٠٣م).*

على كل حال، فإن بعض التجار العرب، الذين كانوا فى سريلانكا، قد وافتهم المنية فيها؛ فما كان من أمير سريلانكا، إلا أن أرسل أبناءهم وزوجاتهم إلى العراق، فى مركب بحري. وبالقرب من ميناء "ديبل" بالسند، تعرضت سفينتهم لهجمات اللصوص، وتم اختطاف النساء. فاستغاثت النساء بالحجاج، فما إن علم الحجاج، حتى كتب إلى "داهر" أمير السند، يطلب منه إطلاق سراح هؤلاء النسوة؛ فاعتذر "داهر" عن تلبية هذا الأمر، باعتبار أنه خارج حدوده، وقد تم من قبل لصوص (قراصنة) البحر. فلم يقتنع والى العراق بهذه الحجة، خاصة أن أمرًا آخر قد حدث فى هذه الفترة نفسها، وهو أن بعض المتمردين من العرب قد هربوا من مدينة "مكران"، ولجأوا إلى السند، وكوّنوا جبهة تحت رعاية الأمير داهر؛ فأجج هذا الأمر النار، وجعل الحجاج يرسل ابن أخيه الشاب، محمد بن القاسم[٣]، على رأس جيش، قوامه ستة آلاف من الجند، من "شيراز" إلى السند، ويدعمه ببعض الجيوش والمعدات، عن طريق البحر، ويعضده بجيوش أخرى، عن طريق البر من إيران.

وصل محمد بن القاسم، عام ٩٣هـ، ولم تمض ثلاث سنوات، حتى دانت له وخضعت المناطق الممتدة من "الملتان"، المجاورة لكشمير الصغيرة (كان العرب يطلقون على البنجاب اسم كشمير الصغيرة)، حتى حدود "مالوه"، وأقام حكمه على العدل والإنصاف فى السند.

---

(١) سومنات: *هى المدينة التى بها المعبد الذى حطمه محمود الغزلوى، فى الكجرات، ولهذا المعبد قداسة عظمى عند الهنادكة، لدرجة أنهم بادروا بتجديده، عند قيام جمهورية الهند.*

(٢) البيرونى – كتاب الهند – ١٠٢.

(٣) محمد بن القاسم *(٩٨هـ/ ٧١٧م): فاتح السند، وواليها فى عهد الوليد بن عبد الملك، قُتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفى.*

أما الجنود الهنود، الذين قاوموا العرب في جيش "داهر"، فأطلق عليهم البلاذري (٢٥٥هـ/٨٥٥م) اسم التكاكرة، والتي هي جمع تكاكر العربية.

وعندما توفي الوليد، عام ٩٦هـ، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك من بعده، كان بينه وبين الحجاج وأسرته وعماله عداوة شخصية؛ فعزل محمد بن القاسم، واستدعاه، مع غيره من قواد الحجاج، مقيدًا إلى الشام، فعذب وقتل. ولا داعي هنا لذكر أسباب قتله، كما ذكرها أولاد "داهر"؛ فقد تم نفيها أكثر من مرة. لكن مما تجدر الإشارة إليه، أنه عندما رحل محمد بن القاسم من السند، بكى عليه أهل السند، وصوروه بالكيرج[1].

وقد تعاقب على هذه المنطقة العديد من القواد، منهم الجنيد، وكان ذا همّة عالية، فهاجم السند، من مدينة كجهـ، عام ١٠٧هـ، بدءًا من مرمد، ومنها إلى ماندل، حتى وصل دهنج، ومنها إلى ميناء بهروج. وكان أحد قواده قد وصل إلى مدينة آجين (مالوه)، ومنها إلى الكجرات، فاتحًا مدينة سميد وبهيل مال، ثم عاد إلى السند، لكن كل هذه الفتوحات إن هي إلا عاصفة سرعان ما خمدت.

وفي عام ١٣٣هـ/٧٥١م، تولى العباسيون الخلافة، وزالت دولة الأمويين، وأصبحت العراق عاصمة للخلافة، بدلاً من الشام. فقرّب هذا الهند من مركز الخلافة الإسلامية. وفي عام ١٤٠هـ/٧٥٩م، عين هشام واليًا على السند؛ فأرسل أحد قواده، وهو عمر بن جمل، بأسطول بحري إلى الكجرات، لكن القائد لم يوفق في حملته هذه.

وفي النهاية، قاد هشام الأسطول بنفسه، وسيطر على مدينة قندهار، بالقرب من بهروج. وهناك، شيّد مسجدًا رمزًا لانتصاراته. وكان هذا أول أثر إسلامي في بلاد الكجرات، والمسجد الأول في الهند، بالإضافة إلى السند.

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان – باب فتح السند ـ صـ ٤٢٦.

وبعد أن تولى المهدى الخلافة، بعد المنصور، قام عبدالملك، بأمر من الخليفة، بمهاجمة الكجرات. وفى عام ١٦٠هـ/٧٧٨م، فتح مدينة باريد، التى تعرف فى الهندية باسم "بهاربهوت"، والتى هى أيضًا بالقرب من بهروج. والمثير للدهشة أن الوباء انتشر فى صفوف الجيش؛ فمات به ألف جندي، فاضطر قائد الجند أن يدلف راجعًا مرة أخرى.

وظلت بغداد قوية، وفى عنفوانها، حتى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي، الذى توفى عام ٢٢٧هـ، حتى دبَّ فيها الضعف والوهن يومًا بعد يوم؛ فانفصلت السند والهند، واستقلتا عنها، كما استقل الأمراء العرب بإماراتهم لعدة أيام، لكن الهنود سلبوها منهم مرة أخرى. ولم تقم هناك إلا إمارتان عربيتان شهيرتان؛ إحداهما الملتان، والأخرى إمارة المنصورة بالسند. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمراء الهنود قد أحسنوا معاملة الرعايا المسلمين، وحافظوا على مقدساتهم الدينية[١].

سر هزيمة أهل السند:

قبل الخوض فى الحديث عن هذا الأمر، يجب أن تعرف ما سر أن بضعة آلاف من الجند المسلمين، الذين قدموا من أماكن بعيدة، قد تمت لهم السيطرة على هذه البلاد، فى هجمة واحدة، وسرعة فائقة؟ وسبب هزيمة السنديين عندى، هو ذلك السبب الذى عن طريقه تمت سيطرة قوم على أقوام أخرى فى العالم. وهذا ما يؤكده كلام العرب، بشكل قاطع، ففى أواخر القرن الأول الهجرى، وأوائل الثامن الميلادى، كان المذهب البوذى يروج فى السند. وقد أطلق عليهم العرب (السنية)، وسنفصل القول عن هذا اللفظ، فيما بعد. وذكر جميع الجغرافيين أن ثمة منطقة للبوذيين[٢]. وكان اسمها الصحيح، كما ورد فى كتاب "جج نامه"، شش نامه –

---

(١) كل هذه الأحداث جاءت فى كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري.

(٢) البشارى المقدسى، وابن حوقل – ذكر السند.

بودهــ بور[١]، وثم ذكر لمعبد باسم "نو ويهار"، وهو معبد للبوذيين، وكان كاهنه يدعى "سنيه"، وقد كان مناوئًا للبراهمة. ويؤيدنا فى هذا الرأى المؤرخ "اليت"، حيث يرى أن المذهب البوذى كان المذهب السائد فى ذلك الوقت، فكتب يقول: "وحيث إن البوذية كانت رائجة فى السند، حين احتك المسلمون بالهنود الوطنيين، فحتمًا تكون كلمة "بد"، مأخوذة من "بدهــ"، وليس من "بت" الفارسية، التى هى تحريف لكلمة "بودهــ" غالبًا" وهناك دلائل كثيرة تؤيد أن البوذية كانت منتشرة فى وادى السند، وإن كان هذا لم يذكره الرحالة الصينيون بصفة خاصة، وتؤيده أقوال ابن خرداذبه. وليس ثمة ذكر، فيما ورد من إشارات وتلميحات، فيما عرف عن العرب من كتابات، يؤيد وجود عداء بين البراهمة والبوذيين، وأنه كان يناوئ بعضها بعضًا؛ إذ إن الحكايات الدينية المشتركة بينهما (خاصة طريقة العبادة والجزاء) دقيقة جداً، ولا تسترعى انتباه أى أجنبي. وعندما يُذكر الكهنة، كان يطلق عليهم عمومًا "سنى"، وكان فيل الإمارة أبيضًا، وهذا له مغزى مهم عندهم.

وحفلت الكتب العربية بذكر ألف من الكهنة البراهمة يسمون بهذا الاسم، وكانوا يحيون معتقداتهم، وعاداتهم الدينية، كلما أرادوا، وكان محمد بن القاسم قد سمح لهم، بإذن من الخليفة، أن يحملوا قعابهم (سلطانية)، ويطوفون على الأبواب؛ من أجل الحصول على الطعام، وهذه عادة دينية خاصة بالكهنة البوذيين إلى اليوم، وآخر هذه العادات أنهم كانوا يخلدون ذكرى الفاتحين، بإقامة تماثيل لهم.

تشير هذه الأمور جميعًا، وبشكل طبيعى، إلى البوذيين، لا البراهمة. وفضلاً عن هذه الدلائل الإيجابية، فثمة دلائل سلبية، تفيد فى هذا الأمر؛ حيث لا يوجد أى ذكر لأعمال الساتى (عادة حرق الزوجة مع زوجها)، أو عبادة البقر، أو الاستحمام فى الأنهار المقدسة. ولا توجد ثمة إشارة إلى سيطرة الكهنة، والمشعوذين، والسحرة، وغير ذلك من الأعمال، والعادات الأخرى"[٢].

---

(١) اليت – المجلد الأول – صـــ ١٣٨.

(٢) تاريخ اليت – المجلد الأول – صـــ ١٠.

ويتضح من مطالعة أول كتاب فى التاريخ الإسلامى القديم، يتعلق بالسند، وهو كتاب "جج نامه" (واسمه الآخر هو: تاريخ السند و الهند ومنهاج السالكين)، أن الخلاف كان قائما فى السند بين البراهمة والبوذيين، وأن كلتا العقيدتين كانتا تنتشران فى بعض البيوت بهذه الطريقة، كأن يكون أحد الأخوة برهميًا، والآخر بوذيًا.

وبناءً على هذا، وبعد الاطلاع على أحوال أمراء السند، أجدنى مضطرًا إلى تقرير هذه الحقيقة، وهى أن الملك (جج) كان هندوكيًا برهميًا، وقد قضى على الأمراء البوذيين الصغار بإثارة الفتن بينهم، أو جعلهم من رعاياه[١].

وقد كان هذا الملك حاكمًا للسند، أواخر القرن السادس الميلادي، وتولى الملك بعده أخوه جندر، وكان هذا الملك يدين بولائه الشديد للبوذية؛ فأجبر من ترك مذهبه على العودة إلى البوذية مرة أخرى[٢]. فنهض البراهمة الهندوك للتصدى له، لكن النجاح لم يحالفهم فى حربهم معه.

وتولى العرش بعده ابن الملك جج "الأمير داهر"، ويبدو لى أنه كان هندوكيًا برهميًا. وطبقًا للمعايير التاريخية، يتبين أن المسلمين عندما كانوا على حدود السند، كانت المعارك دائرة بين أصحاب العقيدتين، فوجد البوذيون أنفسهم مسلوبى الإرادة فى مواجهة البراهمة، فتقدموا بالصلح مع المسلمين.

لذلك رأينا أنه عندما وصل جيش محمد بن القاسم إلى مدينة (نيرون)، تقدم أهل المدينة هذه، مع كهانهم البوذيين، كما أرسلوا سفراءهم إلى الحجاج بالعراق؛ لطلب الأمان.

وهكذا، استقبل أهالى (نيرون) محمد بن القاسم خير استقبال، وقدموا له المعونات والإمدادات، وأدخلوه مدينتهم، والتزموا بكل شروط الصلح معه. ليس

---

(١) جج نامه – اليت – المجلد الأول – صـــ ١٤٢ ، ١٥٢.

(٢) أيضًا – صــــ ١٥٢ , ١٥٣.

هذا فحسب، وإنما عبر جيش المسلمين نهر السند، ووصل إلى مدينة سدوسان، حيث ترك الكهنة البوذيين مليكهم "بجـــ رائـــ"، وقبلوا دفع الفدية عنه، وناصروا المسلمين، وصاروا رسلاً للسلام(١).

وذهب رؤساء قبائل الجات إلى واحد من الساسة المعدودين فى السند؛ للتشاور معه: أنقاتل جيش المسلمين؟ فأجابهم بقوله: "لو أمكنكم هذا فسيكون خيرًا، لكن ينبغى أن تعلموا أن كهنتنا ونساكنا قد تنبأوا يومًا بأن المسلمين سيفتحون هذا الوطن". لكن الناس لم يؤمنوا بكلامه؛ فخسروا، ثم قال: إنكم تعلمون جيدًا إرادتى وعزمى، لكن هذه النبوءة قد سطرت مسبقًا فى صحف البوذية، أن المسلمين سيفتحون الهند، وأنا بدورى أومن بها إيمانًا حقيقيًا، وإن الأمر واقع لا محالة. وبعدها، ذهب الحكيم إلى محمد بن القاسم، وأخبره بعزم طائفة الجات. وحكى له قصة نبوءة كتبهم؛ فأكرمه محمد بن القاسم، وأحسن وفادته، هو وأصحابه، وبهذه الطريقة، جاء كل القادة المعارضين من البوذيين إلى الملك داهر، وقدموا الولاء والطاعة لمحمد بن القاسم(٢).

يتضح من هذا، أن البوذيين فى السند قد وازنوا، أو قارنوا، بين المسلمين من ناحية، وبين البراهمة الهندوك من ناحية أخرى، فرجحت كفة المسلمين على البراهمة، كما أن هناك سببًا آخر، وهو حُسن معاملة المسلمين للبوذيين فى مناطق أفغانستان، وتركستان قبل ذلك، وكانت الكثرة الغالبة منهم قد اعتنقت الإسلام؛ مما كان له أكبر الأثر فى البوذيين من الهنود.

الرحالة والجغرافيون العرب:

يعد كتاب "المسالك والممالك" لابن خرداذبه، عام ٢٥٠هـــ، أول كتاب بالعربية يذكر أحوال الهند الجغرافية آنئذٍ.

---

(١) البلاذرى – صـــ ٤٣٧ , ٤٣٨.

(٢) جج نامه – اليت – صـــ ١٠٦.

١- ابن خرداذبه (٢٥٠هـ)

كان ابن خرداذبه صاحب الخبر[1]، أيام الخليفة المعتمد العباسى، فى القرن التاسع الميلادي، لأجل هذا ألف الكتاب، فى جغرافية البلدان والأقاليم، ومسالك الذهاب والإياب إليها. وقد فصل فيه القول عن طرق التجارة البرية والبحرية الهندية. وفيه ذكر للطبقات المختلفة هناك، على الرغم من أنه لم يذهب إلى الهند، لكنه استند، فى معلوماته، على جغرافية بطليموس. ويضاف إلى هذا المعلومات الخاصة التى يجمعها الإخباريون، كما أن طبيعة عمله جعلته على علاقة دائمة بالتجار، والمسافرين إلى هذه البلاد؛ لهذا تبدو معلوماته، وكأنه أحد الرحالة الهنود، وقد نشر "دى غويه" De Goeye الكتاب، عام ١٨٨٩م، فى مطبعة بريل بليدن.

والمدن التى ذكرها ابن خرداذبه، فى باب السند، تدلنا على أن العرب كانوا يعتبرون المناطق ما بين الكجرات والبلوجستان، هى حدود السند. وقد حصر لنا مدن السند، كالتالى:

"القيقان – وبنه – والميد – والقندهار... قصدار – والبوقان – قندابيل – وقنزبور – وارمابيل – والديبل – قنبلى – وكنبايا (كهمبايت) – وسهبان – سدوسان – والراسك – والرور – ساوندرى – والمولتان – والمندل – والبيلمان – وسرشت – والكيرج – مرمد – قالى (كالي) – دهنج – بروص (بهروج)". صـ٥٥. ثم بعد ذلك، اتبعها بذكر مدن الشمال الهندى المشهورة: "سامل – هورين(اجين) – وقالون – قندهار (كندهارا) – قشمير (كشمير)" صـ٦٨. *(ابن خرداذبه – المسالك والممالك – بغداد).*

ويذكر ابن خرداذبه طبقات الهند السبعة: "والهند سبعة أجناس، وهم: أشرافهم، فيهم الملك، تسجد الأجناس كلها لهم، ولا يسجدون لأحد. والبراهمة وهم

---

(١) اشتهر ابن خرداذبه مؤرخًا، وكان يطلق على المؤرخ إخباريًا، ففهم المؤلف أنه من رجال المخابرات فى عصره.

لا يشربون الخمر والانبذة. والكسترية، يشربون ثلاثة أقداح فقط لا تزوجهم البراهمة، ويتزوجون فيهم. والشودرية وهم أصحاب زراعة. والبيشه وهم أصحاب صناعات ومهن. والسندالية (جندال)، وهم أصحاب اللهو واللحون، وفى نسائهم جمال، والذنبية (دوم)، وهم أصحاب لهو ومعازف ولعب.

وملل أهل الهند اثنان وأربعون ملة، منهم من يثبت الخالق – عز وجل – والرسل، ومنهم من ينفى الرسل، ومنهم النافى لكل ذلك، والهند تدرك بالرقى ما أرادوا (ص٧١).

٢ – سليمان التاجر (٢٣٧ هـ)

هو أول رحالة عربى وصلتنا رحلته، التى طبعت فى باريس، عام ١٨١١م، باسم "سلسلة التواريخ". فقد كان تاجرًا، سافر من ميناء العراق، يجوب البلاد، حتى وافى الصين. وقد طوف كل موانئ الهند. فكتب رحلته، وأحواله المختصرة، عام٢٣٧هـ. وقد مر عليها أكثر من ألف ومائة عام. وتعد المرجع الأول، الذى ذكر بحر الهند "هركند"؛ ومن ثم، حفظه العرب بهذا الاسم. وهركند هذا يطلق على الجزء الذى يجرى من حدود جنوب الهند. فيقول سليمان:

"يقال إنها ألف وتسع ماية جزيرة... وهذه الجزائر تملكها امرأة، ويقع فى هذه الجزائر عنبر عظيم القدر... وهذه الجزائر، التى تملكها المرأة، عامرة بنخل النارجيل (جوز الهند)، وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان، وثلاثة، وأربعة... ويقال إن أهل الجزائر لا يكون أصنع منهم، حتى إنهم يعملون القميص، مفروغًا منه نسجًا بالكمين والدخريصين (القميص) والجيب، ويبنون السفن والبيوت". (دائرة المعارف الهندية – أخبار الصين والهند – تأليف: سليمان التاجر – أبو زيد السيرافى – تحقيق وتحليل: إبراهيم الخورى – ط١ بيروت – ١٤١١هـ/١٩٩١م – ص ٣١).

ويضيف: "وفى آخر هذه الجزر سرنديب... وهى رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الديبنجات... وعليه هبط آدم - عليه السلام... ومن وراء هؤلاء جزيرتان، بينهما بحر، يقال لهما اندمان. وأهلها يأكلون الناس أحياء، وهم سود، مفلفلو الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، قدم أحدهم مثل الذراع، عراة، ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم، لأكلوا كل من مر بهم". (٣١ــ٣٣)

ويكتب عن بعض شواطئ جنوب الهند، فيقول: "إنهم يرتدون المآزر فقط". كما نقل أمرًا فى غاية الغرابة، يمكننا من خلاله التعرف على وجهة نظر أهل هذا العصر، فيما يتعلق بالعالم: "أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة. فأول من يعدون من الأربعة، ملك العرب. وهو عندهم بالإجماع، لا اختلاف بينهم فى أنه أعظم الملوك، وأكثرهم مالاً، وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير، الذى ليس فوقه شىء، ثم يعد ملك الصين نفسه، بعد ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهرا (ولى عهد الملك رائـــ، ملك الكجرات) ملك المخرمى الآذان" (ص٤١).

وقد ذكر لنا سليمان التاجر أسماء أربعة ملوك لسواحل الهند؛ أولهم، الملك بلهرا، ملك الملوك. وقد نظم جيشه طبقًا للنظام العربى. وسك النقود، مكتوبًا عليها بداية جلوسه على العرش. فقال: "فأما بلهرا هذا، فإنه أشرف الهند... وماله دراهم... وتاريخه فى سنة من مملكة من كان قبله... وملوكهم يعمرون، وربما ملك أحدهم خمسين سنة. ويزعم أهل مملكة بلهرا، أنه إنما تطول مدة ملكهم، وأعمارهم فى الملك، لمحبتهم للعرب، وليس فى الملوك أشد حبًا للعرب منه. وملك بلهرا وأرضه، أولها ساحل البحر، وهى بلاد تدعى الكمكم، متصلة على الأرض إلى الصين. وحوله ملوك كُثُر يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم" (ص ٤١ ــ٤٢).

أما أصل كلمة "بلهرا"، فقد كان ثمة خلاف حولها، لكن ثبت بالبحث أن أصلها "ولبهــ رائــ". وكمكم هى التصحيف لكلمة (كوكن). وظلت أسرة هذا الملك تحكم مدة طويلة.

ثم يذكر لنا بعد ذلك، ملك منطقة "جزر"، وأصل جزر هو "كجر"، وملكها هو ملك الكجرات، فيقول عنه: " فمنهم ملك يدعى ملك الجزر، وهو كثير الجيش، ليس لأحد من الهند مثل خيله، وهو عدو العرب، غير أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك، وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه، وهو على لسان من الأرض... وأموالهم كثيرة، وإبلهم ومواشيهم كثيرة... وليس فى بلاد الهند آمن من السرق منها". (ص ٤٢)

وبعده يأتى ذكر ملك مملكة "طافن" الصغيرة، واصفًا نساءها بالحسان؛ فهن آية فى الجمال، فيقول: "وإلى جانبه ملك الطاقى (الطافن)، وهو قليل المملكة، ونساؤهم بيض، أجمل نساء الهند. وهو ملك موادع لمن حوله؛ لقلة جيشه" (ص٤٢).

وقد اختلف المحققون الأوروبيون، حول أصل كلمة "طافن". فقد قال بعض المحققين: إنها مدينة "اورنج آباد"، القريبة من الدكن. وقال البعض الآخر: إنها بالقرب من " كشمير"، لكنى أعتقد أن " طافن " هى الشكل الممسوخ لكلمة "دكهن".

ثم يذكر ملك مملكة "رهمي"، ويقول: "ويلى هؤلاء ملك، يقال له دهرم (رهمي)... ودهرم هذا أكثر جيشاً من ملك بلهرا... ويقال إنه إذا خرج إلى القتال، يخرج فى نحو من خمسين ألف فيل... وفى بلاده، الثياب التى ليس لأحد مثلها". (ص ٤٢ ــ٤٣). ويعتقد أنها كانت مملكة الملك رام، بالقرب من دهاكه.

وقد وضع هذا الملك العديد من قوانين الهند، مثل: "فإنه إذا ادعى رجل آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي: أتحامله النار؟ فيقول: نعم. فتحمى حديدة إحماءً شديدًا، حتى تظهر النار فيها. ثم يقال له: ابسط يدك. فتوضع على يده سبع ورقات، من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة، فوق الورق، ثم يمشى بها، مقبلاً مدبرًا، حتى يلقيها عن يده. فيؤتى بكيس من جلود، فتخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان؛ فإذا كان بعد ثلاث (المقصود ثلاث ليالى)، أتى بأرز غير

مقشر، فيقال له: افركه، فإن لم يكن في يده أثر، فقد فلح، ولا قتل عليه، ويغرم الذى ادعى عليه مناً من ذهب، يقبضه السلطان لنفسه.

وربما غلوا الماء في قدر حديد أو نحاس، حتى لا يقدر أحد أن يدنو منه، ثم يطرح فيه خاتم حديد، ويقال: ادخل يدك، فتناول الخاتم. وقد رأيت من أدخل يده، وأخرجها صحيحة". (٥٠ – ٥١)

ويقول أيضًا: "وإذا مات الملك، ببلاد سرنديب... ثم يهيأ له الصندل، والكافور، والزعفران، فيحرق به، ثم يرمى رماده في الريح. والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار... وربما أحرق الملك، فتدخل نساؤه النار، فيحرقن معه،وإن شئن لم يفعلن". (ص٥١)

كما بين أن السلطان بالوراثة، وله أولياء عهد؛ حيث كانت الوظائف والمهن بالوراثة، على هذا النحو: "وأهل بيت المملكة، في كل مملكة، أهل بيت واحد، لا يخرج عنهم الملك، ولهم ولاة عهود، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات، لا تكون الصناعة إلا فيهم... وليس تنقاد ملوك الهنود لملك واحد، بل كل واحد ملك ببلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند" (ص ٥١ ــ ٥٢).

وعن عادات الزواج، يقول: "وأهل الهند... إذا أرادوا التزويج، تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان". (ص ٥٤)

وعن عقوبة الزنا والسرقة، يقول: "وإذا أحضر الرجل امرأة، فبغت، فعليها، وعلى الباغى بها، القتل في جميع بلاد الهند". (ص٥٢) أما عقوبة السرقة": فإذا سرق السارق فلسًا، فما فوقه، تؤخذ خشبة طويلة، فيحدد طرفها، ثم يقعد عليها، على إسته، حتى تخرج من خلفه". (ص٥٣)

والشيء الذى نتعجب له اليوم، أن الناس في الهند كانوا يطلقون لحاهم. وقد ذكر رحالتنا": والهند يطولون لحاهم، فربما رأيت لحية أحدهم، ثلاثة أذرع... وأهل

الهند، إذا مات لأحدهم ميت، حلق رأسه ولحيته". (٥٣) ويضيف:" والهند، إذا حبسوا رجلاً أو لازموه، منعوه الطعام والشراب، سبعة أيام". (ص ٥٣)

والقتل عقاب قاطع الطريق: "ويقتل قاطع الطريق... والهند يقتلون ما يريدون أكله، ولا يذبحونه. فيضربون هامته، حتى يموت. ولا يغتسل الهند من جنابة... والهند يغتسلون كل يوم، قبل الغذاء، ثم يأكلون... وأهل الهند يستاكون، ولا يأكل أحدهم حتى يستاك، ويغتسل". (ص ٥٤)

ومما يثير العجب عند العربى، أن هذا البلد فيها تمر، وهو أمر تعجب منه الرحالة العرب. "وللهند نخل... ولهم ساير الشجر، وثمر ليس عندنا، وساير الفواكه عندهم كثيرة". (ص ٥٤)

وتعدد الزوجات عندهم (أهل الصين والهند) مباح. "وليس الصين، ولا الهند بأصحاب فرش. ويتزوج الرجل من... الهند ما شاء من النساء. وطعام الهند الأرز". (ص٥٣)

وقد أخذ الصينيون عقيدتهم من الهند. " وليس لأهل الصين علم، وإنما أصل ديانتهم من الهند. وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البدده، وأنهم هم أهل الدين". (ص ٥٤)

ويضيف: "والطب بالهند والفلسفة... ولهم علم بالنجوم... وللهند خيل قليلة" (ص ٥٤)

وعن المقارنة بين الصين والهند، يقول: "وأنهار البلدين جميعًا عظام... وأهل الصين أجمل من الهند... وأهل الهند يلبسون فوطتين(المآزر)، ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر، الرجال والنساء". (ص٥٥)

٣ - أبو زيد السيرافى (٢٦٤هـ)

نشأ أبو زيد فى (سيراف) الميناء الشهير، على الخليج الفارسي. ووجد هذا التاريخ (٢٦٤هـ) على كتابه. وقد التقى به الرحالة المسعودى، عام ٣٠٠هـ، فى سيراف، وكان من التجار العرب. وقد قرأ رحلة سليمان التاجر، وفيما بين خمسة وعشرين وثلاثين عامًا، كتب تكملة لها. وكان يسافر ما بين سيراف، والهند، والصين، من أجل التجارة البحرية، وقد كتب يقول: "وقد تغير أمر الصين خاصة، وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز إليهم، وخرب البلد، وزالت رسومه، وتفرق أمره". (ص٦٠)

ويضيف: "ومما حدث فى زماننا هذا، ولم يعرفه من تقدمنا، أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر، الذى عليه بحر الصين والهند، يتصل ببحر الشام(البحر الأبيض المتوسط) ". (ص٦٠)

وكان أول رحالة عربى يذكر اسم (مهراج) ملك (جاوه)، ثم يذكر: "ومن أخبارهم فى القديم أن ملكًا من ملوك (القمار)، وهى الأرض التى يجلب منها العمود القماري... وهم رحالة. كلهم يحرمون الزنا، والأنبذة كلها، فلا يكون فى بلادهم ومملكتهم شيء منه، وهى مسامته لمملكة المهراج، والجزيرة المعروفة بالزابج". (ص٧٢)

"وساير ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ، ويدينون به". (٧٤) والتضحية بالنفس، تعد من الأمور العادية: "فى مملكة بلهرا، وغيره من ملوك الهند، من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ. وتمكنه فى قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم.

وفى ملوكهم، من إذا قعد الملك، طبخ له أرز، ثم وضع بين يديه، على ورق الموز. وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة، باختيارهم لأنفسهم، لا بإكراه من الملك، فيعطهم الملك من ذلك الأرز، بعد أن يأكل منه. ويتقرب رجل رجل

منهم، فيأخذ منه شيئًا يسيرًا، فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز، إذا مات الملك أو قتل. أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم، فى اليوم الذى مات فيه، لا يتأخرون عنه، حتى لا يبقى منهم عين أو أثر". (ص٨٢)

وقد ذكر رحالتنا العديد من هذه الأحداث، فيقول: "وأمر اليسارة التى تكون ببلاد الهند، وتفسيرها المطر، فإنه يدوم عليهم ثلاثة أشهر تباعًا، ليلاً ونهارًا". (ص٨٦).

ثم يذكر بعد ذلك فقراء (نساك) البوذية: "وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجين، عراة، قد عظت شعورهم أبدانهم وفروجهم. وأظفارهم مستطيلة كالحراب؛ إذ كانت لا تُقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة. وفى عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس. فإذا اشتد به الجوع، وقف بباب بعض الهند، فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ، مستبشرين به". (ص٨٦ ــ ٨٧)

ثم يذكر أحوال جوارى جنوب الهند، ثم أحوال صنم (الملتان) الشهير، وبعدها يصف البلد التى تشتهر بجوز الهند، ويذكر أحوال التجارة بها.

وفى النهاية يصف ملوك الهند: "وملوك الهند تلبس الأقراط، من الجوهر النفيس، فى آذانها، المركب فى الذهب، وتضع فى أعناقها القلائد النفيسة، المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ، مما تعظم قيمته، ويجل مقداره. وهو اليوم كنوزهم وزخائرهم، ويلبسه قوادهم ووجوهم، والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم، وعليه فوطة قد استتر بها، وفى يده شيء يعرف بالجترة، وهى مظلة من ريش الطواويس، يأخذها بيده". (٩٣ ــ ٩٤)

وقد تعجب الرحالة، حين رأى أن الناس لا يأكلون معًا: "ومنهم صنف، لا يأكل اثنان منهم فى غضارة واحدة، ولا على مائدة واحدة، يجدون ذلك عيبًا فاحشاً..... وأما ملوكهم، فى بلادهم ووجوهم، فإنه يتخذ لهم فى كل يوم موائد ويسف خوص النارجيل سفًا، ويعمل منه كهيئة الغضارة والصحاف؛ فإذا أحضر

الغذاء، أكلوا الطعام من ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غذائهم، رمى بتلك المائدة، والغضار، والمسفوف من الخوص، مع ما بقى من الطعام، إلى الماء".(٩٤)

كما يشهد هذا الرحالة بأن " أكثر ملوكهم يظهرون نساءهم. إذا جلسوا لمن دخل إليهم، من أهل بلدهم وغيرهم. لا يحجبون عن النظر إليهن". (٩٤)

٤ - أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبوعى (٣٣١هـ)

رحالة عربى كبير، تمتد رحلته من عام ٣٣١هـ حتى ٣٧٧هـ. قدم تركستان من بغداد. وقابل ملك بخارى، نصر السامانى (ت- ٣٣١هـ)، ثم رحل إلى الصين، مع أحد سفرائها، وخرج من الصين إلى تركستان، ثم كابل والتبت، مرورًا بكشمير، حتى وصل إلى الملتان والسند، ومنها إلى سواحل الهند الجنوبية (كولم). وقد طبع كتابه، فى برلين، عام ١٨٤٥م، مصحوبًا بترجمة لاتينية. غير أنى لم أره، وقد ذكر ابن النديم تلخيصًا له فى فهرسه(المذكور فى كتاب الفهرست، لابن النديم هو أبو دلف العجلى لا الينبوعي!)، وياقوت فى (معجم البلدان)، والقزوينى فى (آثار البلاد)، وقد اطلعوا على هذا الكتاب، وقالوا إن به تفصيل معبد الملتان، ومنتجات مدراس ومصنوعاتها. وفى الغالب، هو أول رحالة عربى دخل الهند عن طريق البر.

٥ - بزرك بن شهريار (٣٠٠هـ)

بحار فارسى، تقلع سفنه من موانئ العراق إلى سواحل الهند، ومنها إلى الصين واليابان، ثم يعود من حيث أتى. وقد كتب مشاهداته ومشاهدات رفقائه باللغة العربية. وفى كتابه، أحداث متفرقة عن جنوب الهند، ومنطقة الكجرات. ومن الأحداث المهمة التى ذكرها، أن ملكًا هنديًا قد ترجم القرآن؛ لكى ينعم النظر فى آياته. ومن بين المدن الهندية، التى ذكرها فى كتابه، مدن: كولم - كله - كشمير السفلى (البنجاب) - ميسور (جيسور) - سوباره - تهتهـ - تهانه - مانكير،

(مهانكير عاصمة الملك ولبهـ رائـ)- سيلان. وفيه قصص عن الزهاد والرياضيين، ومن يقتلون ويحرقون أنفسهم، وأعجب ما فى الكتاب، أنه يستخدم كلمة "بنيا" للتجار فى أماكن متفرقة، وهى كلمة هندية خالصة. وقد أطلق التجار العرب، فى آنئذٍ، على المركب الصغير لفظ بارجة، وهى كلمة مأخوذة من الكلمة الهندية "بيرا"، وجمع بارجة بوارج، إلا أن لفظ "بوارج" جاء فى الكتاب؛ ليدل على القرصنة البحرية، على الرغم من أن الهنود يستخدمون هذا اللفظ نفسه للدلالة على المحفة (مركب النساء)، أو بمعنى السرير ذى الخمسة أرجل. وفى كتابه أيضًا ذكر للمنبوذين (صـــ١١٨). وقد طبع كتابه فى (ليدن) عام ١٨٨٦م، مصحوبًا بترجمة فرنسية، ولكن الترجمة الإنجليزية نشرت فى نفس الشهر الذى طبع فيه الكتاب.

٦ - المسعودى (٣٠٣هـــ)

هو أبو الحسن علي، مؤرخ ورحالة، وجغرافى مشهور، ولا يشق له غبار، قضى ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا فى الأسفار. بدأ رحلته من بغداد، فطوف بالعراق، والشام، وآرمينيا والروم (آسيا الصغرى)، وأفريقيا والسودان، هذا بالإضافة إلى بلاد الزنج، ثم سافر إلى الصين، والجزيرة العربية، والحبشة، وفارس، وأنهار الروم. وما بقى من كتبه العديدة الضخمة إلا كتابين، هما: (التنبيه والإسراف)، وهو كتاب مختصر، أما كتابه الثانى الضخم، فهو (مروج الذهب ومعادن الجواهر). وفى هذا الكتاب كم كبير من المعلومات، وكأنه تاريخ للإسلام، إلا أن مقدمته تحتوى على مجمل تاريخ الأمم كلها، منذ بدء الخليقة، ومن بين هذه الأمم، الأمة الهندية. وقد أطنب فى الحديث عن أحوال البحار.

وقد ذكر أنهار الهند، عدة مرات: نهر برائد (الراوي)، ونهر الجنجا، وأنهار البنجاب الخمسة (صـــ٣٧٢)، وذكر منابع كل نهر على حدة، كما ذكر مدينة قنوج، وهى مدينة غير قنوج الشهيرة، التى تقع فى السند، وكان ملكها يعرف بالملك بؤوره، وحدد موقعها. كما ذكر أنه لم ير أعلى وأشهق من جبال التبت

(صـــ٣٨٩). ويتضح من كلامه، أنه يقصد جبال الهمالايا. كما ذكر تعدد اللهجات التى يتحدث بها الناس فى الهند (صــ٣٨١). والأكثر عجبًا، قوله: "والقندهار تعرف ببلاد الرهبوط (الراجبوت)" صـــ٣٧٢. *(المسعودى، م ٣٤٦، مروج الذهب، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط٤ مصر ١٩٦٤م، ج ١، ص ١٦٥).*

وقد وصل إلى كهنبايت، عام ٣٠٣هـــ، وكان يحكمها فى ذلك الوقت أحد التجار البراهمة، واليًا من قبل الملك "ولبهـــ رائـــ"، صــــ٢٥٤، وعند وصوله إلى الملتان، عام ٣٠٠هــ، ذكر لنا أسماء الملوك والوزراء العرب هناك (صـــ٣٢٦). وكتب المسعودى كتابه "مروج الذهب" بعد أن أنهى رحلته، عام ٣٣٢هـــ. وقد نشر هذا الكتاب بباريس، فى تسع مجلدات، مصحوبًا بترجمة فرنسية، وطبع فى مصر، عدة مرات.

٧ - الإصطخرى (٣٤٠هـــ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى، المنبوذ بالإصطخري، من سكان الكرخ ببغداد. كان رحالة، ومن علماء الجغرافية المشهورين. زار أكثر بلاد آسيا، وله كتابان: أحدهما هو كتاب "صور الأقاليم"، والآخر هو كتاب "المسالك والممالك"، وقد طبع الكتاب الأول فى (كوتها) عام ١٨٣٩، والآخر طبع فى (ليدن) عام ١٨٧٠م، وفيه ذكر لبلاد الهند والسند، وكابل، وبلاد ما وراء النهر. هذا بالإضافة إلى ذكره لبلاد العرب والفرس. وهناك تفصيل وافٍ عن بحر الهند الذى كان يطلق عليه بحر فارس. وقد قدم الإصطخرى الهند، عام ٣٤٠هــ/ ٩٥٠م، وقابل فيها معاصره الرحالة ابن حوقل، وذكر فى كتابه مدينة مهانكر اسم مملكة الملك بلهرا "ولبهـــ رائـــ"، ويبدو من كلامه عنها أن هذه المملكة قد تفرقت إربًا، فأصبحت ولايات صغيرة، ويضيف أن كل ملوك هذه الولايات كانوا يخضعون

لسلطانه (يقصد "ولبهــ رائــ"). *(الإصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١١٩، مصر، ٢٠٠٤م).*

ثم يحدثنا عن مدن الملتان، والمنصورة، والسند، والور، ونهر السند. وما كان القصد من تأليف كتابه هذا، الحديث عن أحوال البلدان فقط، وإنما الكتابة عن جغرافية العالم، ورسم الخرائط الدالة عليه، ومن بينها خريطة السند أيضًا.

٨ - ابن حوقل (٣٣١هـ/٩٤٣م - ٣٥٨هـ/٩٧٩م)

كان تاجرًا من تجار بغداد، وتركها عام، ٣٣١هـ/٩٤٣م، وسافر إلى أوربا وأفريقيا وآسيا، وطاف أسبانيا وصقلية، حتى وصل إلى الهند. وصور هذه الأقاليم كلها فى خرائط غير موجودة، فيما بين أيدينا من نسخ مطبوعة، إلا أن السيد " اليت" قد شاهد نسخة خطية ناقصة، فى مكتبة ملك منطقة اودهــ. فأضاف إلى كتابه خريطة إقليم السند؛ تلك الخريطة التى وجدها فى النسخة الخطية لكتاب ابن حوقل.

وهذه الخرائط رغم أنها غير صائبة؛ لأنها خرائط توضيحية فقط، ليست وظيفتها تحديد الموقع على وجه الدقة، إلا أنها تعد أول خريطة جغرافية عن إقليم من أقاليم الهند. ويظهر فى هذه الخريطة أماكن العمران، من الكجرات حتى سيستان.

وهو أول جغرافى عربى يخبرنا فى كتابه، عن طول الهند وعرضها، فيقول: "يدخل فى حدود الهند جزء من كشمير والتبت والسند" صــ٩.

"وأما بلاد السند.... وفى شرقى ذلك كله، بحر فارس، وغربيها، كرمان، ومفازة سَجستان وأعمالها، وشماليها، بلاد الهند، وجنوبيها مفازة ما بين مكران والقُفص، ومن ورائها، بحر فارس، وإنما صار بحر فارس يحيط بشرقى هذه البلاد، وجنوبيها من وراء هذه المفازة، من أجل أن البحر يمتد من صيمور، على

الشرقى، إلى تيز مكران، ثم ينعطف على هذه المفازة، إلى أن يتقوس على بلاد كرمان وفارس، وهذه صورة بلاد السند" *(ابن حوقل، صورة الأرض، ج٢، ط٢، ليدن، ١٩٣٩م، دار صادر ببيروت، ب.ت، صـ٣١٧).*

"طول أرض الهند يبدأ من مكران، مرورًا بالمنصورة وبدهـ، وكل إقليم السند، حتى نهايته عند قنوج، ومنها إلى الأمام، حتى بلاد التبت، التى لا يوصل إليها إلا بعد أربعة أشهر. أما عرضها، فيبدأ من نهر فارس حتى قنوج، التى تأخذ طرقها مسافة ثلاثة أشهر".

ورغم أن هذا الكلام يعد ناقصًا، فإنه يعد المحاولة الأولى لذكر حدود الهند.

٩ - البشارى المقدسى (٣٧٥هـ)

هو شمس الدين محمد بن أحمد البشارى، من بيت المقدس فى الشام. أنهى كتابه، عام ٣٧٥هـ، سافر إلى بلدان العالم الإسلامى فى عصره، فقط. وجاء إلى الهند، ولكنه لم يتجاوز إقليم السند. وأهم ما يميز كتابه أنه يحتوى على خرائط هذه الدول، ولكنها مازالت مخطوطة، لم تطبع بعد، واسم كتابه "أحسن التقاسيم فى معرفة .الأقاليم"، وآخر أبواب هذا الكتاب عن السند، وأمامنا تلك النسخة التى طبعت للمرة الثانية، عام ١٩٠٦م، فى ليدن.

وثمة ميزة أخرى فى كتاب المقدسى، ألا وهى تقسيم الممالك إلى أقاليم، والأقاليم إلى مدن؛ ثم ذكر كل مدينة على حدة، وذكر تجارها، ومنتجاتها وصناعاتها، وعقائدها، وعملاتها؛ فحظى كتابه بأهمية كبرى، وشهرة واسعة. وقد ذكر أحوال السند فى أربع عشرة صفحة.

١٠- البيرونى (٤٠٠هـ)

الجميع يعرف مؤلف كتاب "تاريخ الهند"، فلا حاجة بنا إلى ذكر حياته، وسوف أكتفى بذكر أن أصل البيرونى مدينة "خيوا"، بخوارزم، وعندما قدم الهند،

لم تكن حملات محمود الغزنوى قد بدأت بعد، وقد ألف كتابه بعد محمود الغزنوى بعامين.

وللبيرونى من الكتب، فضلاً عن كتاب "تاريخ الهند"، كتب عدة، أهمها: "القانون المسعودى"، وقد ذكر فيه كثيرًا من مدن الهند؛ محددًا فيه طول كل بلد من بلادها وعرضه. وكتاب "تاريخ الهند" مكتوب باللغة العربية، ونشرت له ترجمتان بالإنجليزية والهندية، وفيه تفصيل كامل عن جغرافية الهند.

١١- ابن بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

ولد فى طنجة، واستقر بفاس، فى المغرب، قدم الهند، فى عصر السلطان محمد تغلق[١]، وشاهد كل شبر فيها، وذكر مشاهداته بطريقة جميلة، امتازت بالدقة فى الملاحظة، والأمانة فى الرواية، وذلك فى رحلته " تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، " المعروفة برحلة ابن بطوطة.

وأهم ما فيها، بالنسبة لنا، هو الجزء الخاص بأحوال جنوب الهند، عندما لم يكن المسلمون قد فتحوها بعد.

١٢- المؤرخون والجغرافيون الآخرون.

قد ذكرنا، فى الأسطر السابقة، هؤلاء الرحالة، الذين قدموا الهند بذواتهم، ولكن هناك العديد من المؤرخين والجغرافيين العرب، الذين كتبوا عن الهند، منهم: ابن رسته (٢٩٠هـ)، وقدامة بن جعفر (٢٩٦هـ)، ثم البلاذرى (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وكتابه القيم "فتوح البلدان"، وابن النديم البغدادى، صاحب كتاب "الفهرست" (٣٧٠هـ).

---

(١) *محمد تغلق: تحدث الرحالة ابن بطوطة، فى رحلته، عن هذا السلطان حديثًا طويلاً، فذكر له كثيرًا من الفضل والعلم، ولم ينكر ما عرف عنه من غرائب الأطوار والطباع، توفى عام، ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م.*

كان هؤلاء من المتقدمين، أما المتأخرون فمنهم: الصوفى الدمشقى (٧٢٨هـ /١٣٢٦م)، صاحب كتاب "عجائب البر والبحر"، والجغرافى العربى، الصقلى الإدريسى (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، والفارسى زكريا القزوينى (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، صاحب كتاب "آثار البلاد"، وأبو الفدا (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، صاحب كتاب "تقويم البلدان"، وياقوت (٧٢٧هـ/١٢٢٩م)، صاحب كتاب "معجم البلدان" الضخم، والنويرى المصرى (٧٣٣هـ/١٣٣١م)، صاحب كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، وشهاب الدين العمرى (٧٤٨هـ/١٣٤٦م)، صاحب كتاب "مسالك الأبصار وممالك الأمصار".

وقد تم طبع أجزاء من كتاب الإدريسي، وخمسة مجلدات من كتاب " نهاية الأرب"، وجزء واحد فقط من كتاب "مسالك الأبصار" فى مصر، وفى كل هذه الكتب، ذكر لبعض أحوال الهند.

ولو جمعت كل أحوال الهند، من هذه المؤلفات، ستكون تكملة لكتاب البيت الناقص، وستتضح لنا منها معلومات كثيرة حديثة، عن هند القرون الوسطى، وللأسف، فقد أهمل المؤرخون الأوربيون أحوال الهند القديمة، واعتمدوا فقط على المعلومات اليونانية عن الهند، وحاولوا أن يخرجوا منها كل نقص. وجعلوا الكتب صدقًا على قولهم، واجتهدوا كثيرًا فى البحث والتنقيب عن كل اسم، ولو أنفقوا جزءًا من جهدهم فى معلومات المؤرخين العرب، لكانوا قد أكملوا فراغ تلك القرون، بين التاريخ الفارسى واليونانى.

الباب الثانى

العلاقات التجارية

تحيط المياه شبه الجزيرة العربية من ثلاث جهات، كما أن تربتها تفتقر إلى الخصوبة. وحيث إنها مأهولة بالسكان قدر لها أن تكون منطقة تجارية. ومن يُمن الطالع أن كبرى بلدان العالم تقع على تخومها، فيحدها "العراق"، وبلاد "الشام"، من الشمال، و"مصر" وأفريقيا، من الغرب، أما شبه القارة الهندية، و"إيران"، فمن الشرق.

وكانت هذه الدول جميعًا ذات علاقات مباشرة مع شبه الجزيرة العربية، بيد أن حديثنا هنا سوف يقتصر على شبه القارة الهندية. تقع "البحرين" و"عمان"، و"حضرموت"، و"اليمن"، و"الحجاز" على سواحل البحر الأحمر، والخليج العربى، والمحيط الهندى. فثمة فرصة للتجارة البحرية، وقد استعرضنا سابقًا، خريطة الملاحة البحرية (الرحلات البحرية) بين العرب وشبه القارة الهندية، التى كانت تبحر من السواحل الهندية إلى "اليمن"، ثم تحمل بضائعها على الجمال، فتسلك الطريق البرى المؤدى إلى سواحل البحر الأحمر، فترد "مصر" و"الشام"، ومنها إلى أوربا.

ومذ وعينا أحوال التجارة العالمية؛ نجد العرب يشتغلون بالتجارة، قوافلهم تمر ذهابًا وإيابًا، عبر هذا الطريق. ولدينا أقدم الكتب التاريخية فى العالم وهى "التوراة"، التى ورد فيها أن القوافل التجارية كانت تمر عبر هذا الطريق، فى عهد سيدنا يوسف – عليه السلام – أى بعد جيلين من عهد سيدنا إبراهيم – عليه السلام– وعبرته نفس القافلة التى حملت سيدنا يوسف إلى مصر (الميلاد ٣٧-٢٥).

هذا وقد ذكر المؤرخون اليونان هذا الطريق، وأن العرب كانوا يسيطرون على التجارة الهندية، منذ عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - مرورًا بعصر ماركو بولو وفاسكو دي جاما[1].

وعندما استولى الإغريق على "مصر"، سيطروا على هذه التجارة، حيث كان الطريق من "مصر" إلى الشام آمنًا لهم، ففقدت التجارة العربية رونقها، وذهب بريقها، فما عادت كما كانت، وقد كتب محرر مادة "العرب"، في دائرة المعارف البريطانية، يقول: "كان السبب الرئيسي وراء هذا الخير الوفير الذي عم جنوب شبه الجزيرة العربية الغربي (حضرموت واليمن)، مرور البضائع التجارية بين "الهند" و"مصر"، عبر البحر الأحمر أولاً؛ ثم تكمل مسيرتها برًا على الساحل الغربي، وقد توقفت هذه التجارة آنذاك، حيث إن ملوك "مصر" البطالمة قد مهدوا طريقًا مباشرًا من "الهند" إلى "الإسكندرية"[2].

ويبدو أن اليونانيين قد استولوا على جزيرة "سوقطرا[3]" من أجل ذلك، وأقاموا بها مستعمرة تراءت آثارها، فيما بعد، للملاحين العرب المسلمين[4]. ويبدو أن هذه التجارة لم تصبح جميعها في أيدي الإغريق، حيث يشير (اجاثاركيدس)،

---

(١) الفنستون - الباب العاشر من كتاب تاريخ الهند (التجارة).

(٢) المجلد الثاني، الطبعة الحادية عشرة، صـ٢٦٤.

(٣) سوقطرا: جزيرة كبيرة، تبعد ميلاً عن رأس فرتك، و١٥٠ عن رأس التوابل جردافون، وجوردافون: اسم سنسكريتي(دفيباسوخاذرا)، معناه: جزيرة النعيم، حرّفه اليونانيون، وجعلوه ديوسكوريذو، واحتفظ العرب بـ"سوخاذارا"، وجعلوه "سقطره" بإملاءات عديدة، ووصفها العديد من الجغرافيين العرب، منهم أبو الفدا والإدريسي، وسأورد ما قاله الإدريسي في نزهة المشتاق: "... جزيرة سقطرى التي ينسب الصيد إليها، وبينها وبين الساحل مجريان بالريح الطيبة، ويقابلها من بلاد اليمن مدينة مرباط وحاسك.... والجزيرة واسعة القطر، جليلة القدر... وأكثر نباتها شجر الصبر... وهي كما قلنا تتصل من جهة الشمال ، والغرب ببلاد اليمن، بل محسوبة منه، ومنسوبة إليه".

(٤) أبو زيد السيرافي ـ الرحلة، طبعة باريس، صـ١٣٤.

المؤرخ اليونانى، إلى "أن السفن كانت تأتى من الهند إلى سبأ (اليمن)، ثم تصل إلى "مصر"[1]، وذلك قبل عهد السيد المسيح بقرنين من الزمان".

ويذكر أرتى ميدروس - الذى كان قبل المسيح بمائة عام: "يشترى قوم سبأ (إحدى قبائل اليمن) البضائع التجارية من الدول المحيطة بهم، ثم يبيعونها إلى جيرانهم، وبهذا تصل البضائع، يدًا بيد (مباشرةً)، إلى أهل الشام، وشبه الجزيرة العربية"[2].

ويثبت مما نقلناه، ومن مصادر غيره، أن سطوة العرب على التجارة لم تنته فى ذلك العصر، بل استمرت جنبًا إلى جنب مع اليونان[3].

أما الطريق الآخر بين العرب والهند، فكان عن طريق الخليج العربي، الذى ظل مفتوحًا بين العرب والفرس من سكان السواحل، فيحملون بضائعهم برًا وبحرًا، عبر جميع المدن الهندية الساحلية، وجميع جزر المحيط الهندى، ثم مرورًا بـــ"البنغال"، و"آسام"، حتى "الصين"، ثم يعودوا قافلين من هذا الطريق نفسه.

كان الطريق بين أوربا و"الهند" طريقًا بالغ الأهمية، ولا يزال كذلك، وعن طريقه حدثت ثورات كبيرة فى التاريخ، وقد مر بنا أن هذا الطريق كان تحت سيطرة العرب، فى بادئ الأمر، ثم حين استولى الإغريق على "مصر"، سيطروا عليه، وذلك قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون.

وعندما ظهر الإسلام، فى القرن السادس، بلغ العرب ذرى المجد، فسادوا البلاد من مصر حتى الأندلس، من القرن السادس فصاعدًا، وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط، ليصبح فى حوزتهم: جزر "كريت"، و"سائبرس" (قبرص)،

---

(١) الفنستون- تاريخ الهند- المجلد الأول، ١٩١٦م، صـــ١٨٢.

(٢) Dunker- History of Antiquities الجزء الأول، صـــ٣١٠ - ٣١٢.

(٣) للمزيد انظر الفنستون - تاريخ الهند - المجلد الأول، ١٩١٦م، صـــ١٨٢.

وغيرها، وأصبح تحت يد العرب أكبر طريق تجارى فى العالم، سيطروا عليه عدة قرون.

وفى القرن الرابع عشر الميلادى، حاول الأوربيون بكل ما أوتوا من قوة إجلاء العرب عن بلاد الروم، فى وقت كانوا يحققون انتصارات فى الأندلس، وشمال أفريقيا، وكادوا يغيرون على الطريق؛ غير أن الأتراك أخذوا يطلون برؤوسهم من آسيا الوسطى. ومن ثم، ظل الطريق البيزنطى تحت سيطرة المسلمين؛ مما اضطر الأوربيين إلى أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند، فاكتشفوا طريق (رأس الرجاء الصالح) حول "جنوب أفريقيا"؛ حيث تركوا شمال أفريقيا، والبحر الأبيض المتوسط.

وقد سلك هذا الطريق البرتغاليون والألمان، ثم الإنجليز والفرنسيون، فسلبوا التجارة الهندية التى كانت فى حوزة العرب. وقد جرت معركة بحرية كبيرة بين الشرق والغرب، على سواحل الهند، وانتهى هذا الصراع لصالح الغرب، إذ كانت هذه الهزيمة هى بداية هزائم أهل الشرق اللاحقة.

وقد اشترك فى هذه المعركة البحرية أساطيل المصريين، والعرب، وإمارات الدكن الهندية، الإسلامية والهندوكية، ضد أساطيل الأمم الأوربية. وكانت النتيجة أن سيطر الأوربيون على تجارة جميع جزر الهند وسواحلها تقريبًا، منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا. وذلك فضلاً عن تدمير كل السفن التابعة للتجار العرب فى "مدراس"، وكان يطلق عليهم اسم "موپلا"، والذين كانوا يسيطرون على التجارة فى المنطقة وجزرها.

فأخذ الحلم يراود الأوربيين فى امتلاك أقرب الطرق إلى البحر الأبيض المتوسط، ففكروا فى حفر قناة السويس بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، ثم الاستيلاء على "مصر" وقناة السويس؛ حتى يظل هذا الطريق التاريخى آمنًا فى أيديهم إلى الأبد.

هذا ما نجده فى كافة كتب التاريخ من أحداث بشأن تردد التجار الأوربيين على الهند وجزرها، والتى تحمل فى طياتها جانبًا كبيرًا من تاريخ العلاقات التجارية بين العرب والهنود، فى أدوارها المختلفة. أما الطريق التجارى الآخر بين العرب والهنود، فكان فى الخليج العربي؛ الذى ظل تحت سيطرة العرب على الدوام، وظل مركز التجارة ينتقل من هذه المدينة إلى تلك، ومن هذا الميناء إلى ذاك, فى ظل تقلبات أنظمة الحكم فى كل من "عمان"، و"حضرموت"، و"العراق".

ميناء "أبلة"

كان ميناء "أبلة"، الواقع قرب "البصرة"، أكبر موانئ الخليج العربى وأشهرها بالنسبة لشبه القارة الهندية، وذلك فى عهد الفرس، وقبل الفتح العربى للعراق، عام ١٤ هـ. " وكانت "الأبلة" عند العرب تسمى أرض الهند "[١] لكثرة التبادل التجارى وتدفقه منه. وكانت السفن القادمة من الهند والصين، ترسو فيه، وتبحر منه أيضًا.

وفى الإجابة البليغة لأحد الرحالة العرب، حين سأله سيدنا عمر – رضى الله عنه – عن رأيه فى الهند؛ وهو الحجاج بن القرية[٢] "قال: أخبرنى عن الهند. قال: بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر"[٣] – جوابٌ شافٍ عن أهمية التجارة مع الهند، ومنتجاتها.

وحين تم فتح العراق، عام ١٤هـ، أمر سيدنا عمر – رضى الله عنه – بالاستيلاء على هذا الميناء، فكتب: "فليجعلها قيروانًا للمسلمين"[٤] *(ياقوت الحموى،*

---

(١) للمزيد من التفصيل حول (أبلة)، انظر: "الأخبار الطوال" لأبى حنيفة الدينورى، سنة ٢٢٨هـ، صـ١٣٣. ليدن، و"معجم البلدان"، لياقوت الحموى، الجزء الأول، صـ٨٨، والجزء الثانى، صـ١٩٦ (مصر) و"تاريخ البصرة"، لنعمان أعظمي- بغداد، الحاشية، صـ١١.

(٢) *هو أيوب بن القرية، كان أحد أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس، عامل الحجاج على البصرة..*

(٣) الدينورى ــ الأخبار الطوال ــ صـ٣٢١ (ليدن).

(٤) ياقوت ــ معجم البلدان – المجلد الثانى – صـ١٩٦ – مصر .

معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٤٣٢)، ومنذ ذلك الوقت، ظلت هذه المدينة ميناءً بحريًا[1]. حتى دمرتها حرب الزنج، عام ٢٥٦هـ، على الرغم من أن العرب قد أقاموا الميناء العراقى الشهير، ألا وهو ميناء "البصرة"، عام ١٤هـ، فإنه لم يستطع أن يزحزح المكانة التجارية لميناء "أبلة"، وسبب ذلك غالبًا هو أن "البصرة" كانت مركزًا سياسيًا وحربيًا، أكثر منها مركزًا تجاريًا بحتًا، غير أن التجارة الهندية والصينية والحبشية، ظلت تتدفق تدريجيًا إلى ميناء "البصرة"؛ مما أضفى عليه رونقًا خاصًا، رغم الانقلابات السياسية. خاصة بعد أن سيطر العرب على إقليم "السند"، أواخر القرن الأول الهجرى؛ حيث أصبح مركزًا لحركة التجارة الهندية، وقد ارتفعت واردات رسوم السفن والمراكب؛ فزادت ميزانية الخلافة فى بغداد زيادة مطردة، حتى وصلت، إبان عهد المقتدر بالله (عام٣٠٦هـ)، إلى ٢٢٥٧٥ دينارًا فى العام الواحد.

سيراف

"سيراف" أكبر موانئ الخليج الفارسى أهمية بالنسبة للهند، بعد ميناء "أبلة"، وتقع على حدود "فارس"، وتبعد عن "البصرة" مسيرة سبعة أيام. وقد سطع نجم "سيراف"، وازدادت شهرتها، فى القرن الثالث الهجرى، عندما أصبحت مقرًا لكبار البحارين، وكبار رجال التجارة البحرية، كما أن السفن القادمة من "الصين" و"الهند" كانت تأتى إليها محملة بالبضائع التجارية.

ومما كتبه أبو زيد (هنا شيء عجيب، يكتب عن أبى زيد السيرافى، وينقل من ياقوت الحموي) نتعرف على أحوال هذا الميناء، فى القرن الثالث الهجرى، حيث كتب يقول: "هى مدينة عظيمة، ليس بها سوى الأبنية، حتى يجاوز على نظر عملها، وليس بها شيء من مأكول أو مشروب ولا ملبوس، إلا ما يحمل إليها من البلدان، ولا بها زرع ولا ضرع، ومع ذلك، فهى أغنى بلاد فارس"... "هو أكبر

---

(١) الأعظمى – تاريخ البصرة – (بغداد) الحاشية صـ١١.

موانئ فارس، ويقع فى أكبر مدنها التى لا ترى فيها، على امتداد بصرك، سوى النباتات، فلا يوجد بها أية حقول زراعية، إنما ترد إليها كل حاجاتها عن طريق البحر"[١] *(ج٣ ص ٢٩٥)*.

وقد رآها البشارى المقدسى، فى منتصف القرن الرابع الهجرى، فقال: "وعلى الجملة، ما رأيت فى الإسلام أعجب ولا أحسن من دورها المبنية من خشب الساج والآجر، وإنك لتشترى الدار الشاهقة؛ الواحدة بما يفوق المائة ألف درهم"[٢].

وقريب ذلك، رآها الإصطخرى أيضًا، فكتب: "وهى تقارب (شيراز) فى الكبر، وبناؤهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج، وأبنيتهم طبقات، وهى على شفير البحر، مشتبكة البناء، كثيرة الأهل، يبالغون فى نفقات الأبنية، حتى أن الرجل من التجار لينفق على داره زيادة عن ثلاثين ألف دينار، وليس حواليها بساتين وأشجار... وأطيب مياههم من جبل مشرف عليهم"[٣] *(الإصطخرى، ص٧٨)*.

ويشير البشارى إلى أن هذه المدينة قد خربها الزلزال، وانقلاب دولة الديلم، عام ٣٦٦هـ، وأراد الناس إعمارها بعد ذلك"[٤] *(البشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن، ١٩٠٦م، ص ٤٢٦ــ ٤٢٧)*.

وقد عمرت المدينة، واستعادت مكانتها ورونقها. وقد رآها ياقوت الحموى، أواخر القرن السادس الهجرى، فكتب: "فمنذ عمّر ابن عميرة "قيس"، صارت فرضة الهند، وإليها منقلب التجار، وخربت سيراف وغيرها، وقد رأيتها وليس بها قوم إلا صعاليك" *(ياقوت، ج٣، ص٢٩٥)*.

---

(١) ياقوت ــ معجم البلدان – الجزء الخامس، صــ١٩٣ (مصر).

(٢) أحسن التقاسيم (لندن) صــ٤٢٦.

(٣) نقلاً عن معجم البلدان – ياقوت- المجلد الخامس، صــ١٩٣ (مصر)، *والمسالك والممالك للإصطخرى، صــ٧٨*.

(٤) أحسن التقاسيم، صــ٤٦٤.

قيس

"قيس" أو كيش: جزيرة إيرانية في الخليج، بالقرب من عمان، احتلت مكان "سيراف"، واستولت على التجارة الهندية والصينية. وكان حاكمها والى "عمان"، وعندما رآها ياقوت، في القرن السادس الهجرى، وصفها بأنها جميلة، تكسوها الخضرة، فهى جزيرة صغيرة؛ وذلك كله لما أدرته عليها التجارة الهندية من خير وفير، حيث كانت ترسو فيها كل السفن الهندية، ونتيجة لحركة التجارة، وكثرة السفن بها، كتب عنها ياقوت، فقال: "ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند؛ لكثرة مراكبه ودوانيجه"[1] *(ياقوت، ص ٤٢٢).*

وقد كتب القزوينى، عام ٦٨٦هـ: "وهى مرفأ مراكب الهند والفرس، ومنقلب التجارة، ومتجر العرب والعجم،.... يجلب منها كل أعجوبة وقعت فى بلاد الهند"[2] *(آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزوينى، دار صادر، بيروت، ص٢٤٣).*

موانئ الهند

لدينا أسماء الموانئ الهندية منذ القرن الأول الهجري، ثم تكثر هذه الأسماء بعد ذلك حتى القرن الثالث الهجري؛ لتظل كما هى حتى النهاية. وأقرب هذه الموانئ إلى العرب، بعد الخليج الفارسى، ميناء "تيز" بـ "بلوجستان"، ثم ميناء "ديبل" فى "السند"، ثم موانئ: "تهانه"، و"كهنبايت"، و"سوباره"، و"جيسور"، فى "الكجرات"، و"كولم ملي"، و"مليبار"، و"راس كماري" (قمارى)، فى "مدراس"، ثم بعدها كانوا إما يتجهون إلى الجزر، أو إلى "البنغال"، ومنها إلى القامرون (قامروب أو كامروب)؛ أى "آسام"، ومنها إلى "الصين".

---

(١) ياقوت ــ معجم البلدان – الجزء السابع – صـــ١٢٦ ،مصر، و الجزء الخامس صـــ١٩٣.

(٢) القزوينى ــ آثار البلدان – طبعة أوربا صـــ١٦١.

وقد وردت كل أسماء هذه الموانئ عند الجغرافيين العرب، ومن ذلك ما ذكره ابن حوقل، فى القرن العاشر الميلادى، عن ميناء "ديبل" بالسند: "والديبل من شرقى نهر مهران على البحر، وهى متجر عظيم، وتجارتها من وجوه كثيرة"(١). صـ ٣٢٣

طرق التجارة البحرية (الملاحية)

يصف سليمان التاجر، فى القرن الثالث الهجرى، الطرق البحرية التى تمخر عبابها السفن فى المائة الثالثة للهجرة، فيقول: "والمسافة بين "البصرة" و"سيراف" فى الماء مائة وعشرون فرسخًا، فإذا عبئ المتاع بـ "سيراف"، استعذبوا منها الماء وخطفوا - هذه لفظة يستعملها أهل البحر، يعنى: يقلعون - إلى موضع يقال له "مسقط".... فنستعذب الماء من "مسقط" - فتخطف المراكب منها إلى "الهند"، فنقصد "كولم ملى" شهرًا مع اعتدال الريح. وفى "كولم ملى" مسلحة لبلاد "كولم ملى"، ولهم جباية على السفن الصينية، وغيرها، وبها ماء آبار عذب، فيؤخذ من الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى دينار"(٢). *(دائرة المعارف الهندية، أخبار الصين والهند، تأليف: سليمان التاجر ـ أبو زيد السيرافى، تحقيق وتحليل: إبراهيم الخورى، ط١، بيروت، ١٩٩١م، ص٣٥ - ٣٦).*

وبعد سليمان التاجر بخمسة وعشرين عامًا، يأتينا أبو زيد السيرافى بوصفه، فيقول: "هذا البحر الذى عن يمين "الهند" للخارج من "عمان"..... إلى أن تنتهى أرضهم إلى أرض "عدن"، وساحل اليمن، وإلى "جدة"، ومن "جدة" إلى ساحل الشام، ثم تفضى إلى القلزم، وينقطع البحر هناك..... ثم يتعرج البحر من القلزم على أرض البربر، ثم يتصل بالجانب الغربى الذى يقابل أرض "اليمن"، حتى يمر

---

(١) ابن حوقل ـ الرحلة - صـ٢٣٠ أوربا.

(٢) سليمان التاجر ـ الرحلة ـ صـ١٥-١٦، باريس، ١٨١١م.

بأرض الحبشة... "ومراكب أهل "سيراف" إذا وصلت فى هذا البحر المتيامن عن بحر "الهند"، فصارت إلى "جدة"، أقامت بها، ونقل ما فيها من الأمتعة التى تحمل إلى "مصر" فى مراكب القلزم. إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر؛ لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه" *(ص ٩٠)*. "وكان أهل "سيراف" أكثر دراية ببحار "الهند" و"الصين" من البحار الأخرى، كما أن العائد الذى تدره التجارة فى مياه "الهند" و"الصين" أكثر منه فى مياه بحر القلزم"(١).

ويقول ابن خرداذبه، الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى، يمدح التجارة فى جدة: "ومن الشحر إلى عدن مائة فرسخ، وهى من المرافئ العظام، ولا زرع بها ولا ضرع، وبها العنبر والعود والمسك، ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس"(٢).

كما حدد الطرق والمسافات من البصرة إلى الهند:

من البصرة إلى جزيرة خارك	٥٠ فرسخاً.
ومنها إلى جزيرة لاون	٨٠ فرسخاً.
ثم إلى جزيرة ابرون	٧ فراسخ.
ثم إلى جزيرة خين	٧ فراسخ.
ثم إلى جزيرة كيش	٧ فراسخ.
ثم إلى جزيرة ابن كاوان	١٨ فرسخاً.
ثم إلى ارموز (هرمز)	٧ فراسخ.
ثم إلى ثارا	مسيرة سبعة أيام.

ويقول: إن ثارا هى الحد الفاصل بن فارس والهند، ومنها تقلع السفن إلى دبيل.

من ثارا إلى الديبل	مسيرة ثمانية أيام

---

(١) أبو زيد السيرافى ــ الرحلة ــ صـ١٣٦، باريس، ١٨١١م.

(٢) ابن خرداذبه ــ كتاب المسالك ــ صـ٦١، ليدن.

ومن الديبل إلى مصب مهران نهر السند	فرسخان.
ومن مهران إلى اوتكين، وهى أول أرض الهند	مسيرة أربعة أيام.
ومنها إلى كولي	فرسخان.
ومن كولى إلى سندان	١٨ فرسخاً.
ومن سندان إلى ملي	مسيرة خمسة أيام.
ومنها إلى بلين	مسيرة يومين.

ومن بلين تفترق الطرق فى البحر ممن أخذ مع الساحل.

فمن "بلين" إلى "بابتن"	مسيرة يومين.
من بابتن إلى السنجلي وكيشكان	مسيرة يوم.
ومنها إلى مصب كردافريد (كوداوري)	ثلاثة فراسخ.
ومنها إلى كيلكان واللوا وكنجة	مسيرة يومين.
ومنها إلى سمندر	عشرة فراسخ.
ومن سمندر إلى اورنشين (اورنجين)	اثنا عشر فرسخاً.

أما السفن الأخرى، فتقلع من "بلين" إلى "سرنديب"، ومنها إلى "جاوه"، والبعض الآخر يقلع مباشرة من "بلين" إلى "الصين"[١].

الطرق التجارية بين أوربا والهند مرورًا بديار العرب:

لم تتوقف حركة التجارة بين الشرق والغرب بعد أن فتح العرب "مصر" و"سوريا" و"العراق" و"إيران"، وأصبح لهم السيادة على بحر الروم، وبحر القلزم (الأحمر)، والمحيط الهندي. على الرغم من أن تجار المسلمين ما كانوا يذهبون إلى أوربا، ولا يرد الروم إلى بلادهم، حيث كان اليهود يقومون بدور الوسيط بينهما؛ فهم أهل ذمة فى الدولة الإسلامية، وعلى دراية بأوربا منذ عهد "اليونان". وكانت "طرابزند" – التى تقع على ساحل البحر الأسود، وعلى حدود "روسيا"،

(١) ابن خرداذبه – صـ٦١-٦٤ – ليدن.

وآسيا الوسطى – هى نقطة التقاء التجار المسلمين مع التجار المسيحيين، ولا يستطيع أحد أن يتخطاها[١]. غير أن التجار اليهود كانوا يجوبون البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء فى سهولة ويسر.

ويقول ابن خرداذبه:

"مسلك التجار اليهود الراذانية، الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق، إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، برًا وبحرًا، يجلبون من المغرب الخدم والجواري، والغلمان والديباج وجلود الخز، والفراء والسيمور والسيوف، ويركبون من ميخة، فى البحر الغربي، فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا، ثم يركبون البحر الشرقى، من القلزم إلى تجار جدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين السمك والعود والكافور والدارصيني، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى، حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربي. فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة، فيبيعونها هناك، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة، فى البحر الغربي، فيخرجون بإنطاكية، ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية.

ثم يركبون، فى الفرات، إلى بغداد، ثم يركبون، فى دجلة، إلى الأبلة، ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض"[٢].

---

(١) صوفى الدمشقى – نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر – صـ ١٤٦.

(٢) ابن خرداذبه – صـ١٥٣-١٥٤ – ليدن.

التجار الروس

وقد تحدث ابن خرداذبه أيضًا عن التجار الروس الذين كانوا يسافرن برًا وبحرًا، مدعين النصرانية (أصبحت روسيا دولة مسيحية فى القرن العاشر الميلادي)، ويذكر ابن خرداذبه أنهم كانوا من أصل سلافى: "وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز، وجلود الثعالب السود، والسيوف، من أقصى صقلية إلى بحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم، وإن صاروا فى تنيس نهر الصقالبة، مروا بخليج مدينة الخزر، فيعشرهم صاحبها، ثم يسيرون إلى بحر جرجان،... وقطر هذا البحر خمسمائة فرسخ، وربما حملوا تجارتهم من جرجان إلى الأبلة، إلى بغداد، ويدعون أنهم نصارى؛ فيؤدون الجزية.

فأما مسلكهم فى البر، فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس، أو من فرنجة إلى السوس الأقصى، فيصير إلى طنجة، ثم إلى أفريقية، ثم إلى مصر، ثم إلى الرملة، ثم إلى دمشق، ثم إلى الكوفة، ثم إلى بغداد، ثم إلى البصرة، ثم إلى الأهواز، ثم إلى فارس، ثم إلى كرمان، ثم إلى السند، ثم إلى الهند، ثم إلى الصين"[(١)]. *(ص ١٥٤ ـ ١٥٥)*.

قوافل الهند من خراسان

زار المسعودى الهند، حوالى ٣٠٥هـ، وطاف "بلخ" و"خراسان"، فيقول: "ثمة طريق برى من "خراسان" إلى "الصين"، حيث تلتقى حدود "الهند" مع "خراسان"، ومع "السند" أيضًا، من جهة "الملتان"، ومع "الملتان" عند "المنصورة"، فى الجهة الأخرى، وتمر القافلة من "خراسان" إلى "السند". وهكذا كانت تأتى إلى "الهند" بشكل دائم؛ حيث كانت تلتقى حدود هذه الدولة مع "أفغانستان"[(٢)].

---

(١) ابن خرداذبه – صـ١٥٣-١٥٤.

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب. *(نص عبارة المسعودى: وأرض الهند واسعة فى البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج، وهى دار مملكة المهراج ملك الجزاير، والهند متصلة مما يلى الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت" المسعودى، ج١، ط ٤، مصر، ١٩٦٤م، ص ٨٢).*

ويقول ابن حوقل، الذى يسبق محمود الغزنوى بخمسين عامًا: " إن "كابل" و"غزنة" كانتا مركزًا للتجارة الهندية "[1]. *(ص ٤٥٠)*

"وكان هناك أيضًا تجار مسلمون فى "اسيوان" (التى أطلق العرب عليها عسيقان)، وهى إحدى الإمارات الهندوكية بـ "البنجاب"[2]. *(البلاذرى، فتوح البلدان، مراجعة: رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٩٩١م، ص ٤٣٣).*

مواقيت السفر بحرًا إلى الهند:

حدد المسعودى فترات المد والجزر، والهياج والسكون، فى المحيط الهندى، وبناء عليه، حدد الشهور المناسبة لإبحار السفن، فيقول: "وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند فى انتهائه إلا مركب معزز، وحمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان، إذا قطعت أرض الهند فى هذا الوقت، "التيرماهية"، وذلك أن بلاد الهند، وبحر الهند يكون فى اليسارة ــ وهو الشتاء ــ ودوام الأمطار فى كانون، وكانون وشباط عندنا صيف، وعندهم الشتاء، كما يكون عندنا الحر فى حزيران وتموز وآب، فشتاؤنا صيفهم، وصيفهم شتاؤنا، وكذلك سائر مدن السند والهند، وما اتصل بذلك إلى أقاصى هذا البحر، ومن شتى، فى صيفنا، بأرض الهند، قيل: فلان تستّر بأرض الهند: أى شتى هناك، وذلك لقرب الشمس وبعدها"[3]. *(المسعودى – مروج الذهب – م٣٤٦هـ – ج١، ص ١٤٨).*

وقد ذكر أبو زيد السيرافى أن السفن لا تبحر فى فصل المطر، فينشغل الهنود بالزراعة، أو يمارسون أى حرفة، يقضون بها هذا الفصل، وفيه ينبت محصولهم الغذائى الأرز"[4]. *(ص ٨٦)*

---

(١) ابن حوقل – صـ٣٢٨ – أوربا.

(٢) البلاذرى ــ فتوح البلدان – صـ٤٤٦ – ليدن.

(٣) المسعودى ــ مروج الذهب.

(٤) أبو زيد السيرافى ــ الرحلة ــ صـ١٢٦.

المصطلحات الفنية للملاحة الهندية فى اللغه العربية:

أسهمت حركة الملاحة العربية، على سواحل "الهند"، فى أن يتداول الملاحون، من العرب والفرس، بعض الألفاظ الهندية المتعلقة بالملاحة، كالسفن ولوازمها، والتى وردت فى كتب الجغرافيا والرحلات العربية بعد ذلك.

ومن هذه الألفاظ، كلمة "بارجة"، فأصلها اللغوى (حسبما أورده البيروني) يرجع إلى الكلمة الهندية "بيره"، بمعنى: أسطول؛ ونطقه العربى: بارجة (حيث قلبت الهاء جيمًا فى اللغة العربية)، وجمع على: بوارج. ولما كان لصوص (قراصنة) السواحل الهندية يسطون على هذه السفن أيضًا، أطلق عليهم هذا اللفظ نفسه "بوارج"[1]، مثلما أطلقوا على لصوص البحر المتوسط "قراصنة". هذا، ومازال لفظ البارجة يطلق، فى اللغة العربية، على أسطول السفن الحربية، حتى يومنا هذا.

واللفظ الآخر هو "دونيج"، وجمعه "دوانيج"[2]، وهو الصيغة العربية للفظ الهندى "دونگى"، والتى تعنى "زورق".

أما اللفظ الثالث، فهو "هورى"، حيث يطلق على أهالى منطقة "ممبى" إلى اليوم. وهناك ثلاثة ألفاظ أخرى لمنتجات "الهند" وجزرها، لم يتحقق بعد من أصولها: "بليج"، ويقصد به سطح السفينة، و"جوش": حبل (سلبة) المركب، وأخيرًا، "كنير": وهى حبال لحاء جوز الهند التى تستخدم فى قيد السفن بالشاطئ، وتوثيق الألواح الخشبية فى عملية بناء السفن، وكلها ألفاظ هندية الأصل[3].

---

(١) البيرونى ــ كتاب الهند – صــ١٠٢، ليدن ، وعجائب الهند – بزرکــ – صــ ١١٤ – باريس.

(٢) ياقوت الحموى – معجم البلدان – لفظ قيس – الجزء السابع . وعجائب بزركــ – صــ٦٩ – مطبعة بريد – لندن.

(٣) أنظر : د. ارنلد ــ سواء السبيل فى المولد و الدخيل.

وثمة لفظ آخر هو بمثابة تاريخ مختصر لحركة الملاحة الدولية فى الشرق، فى تلك الفترة، ألا وهو "ناخوذه" فى العربية، وجمعه "نواخذه"، غير أن الهند أكثر معرفة بصيغته الفارسية "ناخدا"، وأصله "ناو خدا"، فالمقطع الأول "ناو"، وهو "السفينة" بالهندية، والثانى "خدا"، وهو "المالك" بالفارسية. فيقول حافظ: [ما خدا داريم ما را نا خدا در كار نيست] والترجمة [لا نحتاج لأحد سوى الله طالما أن الله معنا].

التجارة والمحاصيل الهندية:

قد يتضح ما كان يحمله التجار العرب من "الهند" وجزرها من بضائع فيما حمله أحد الرحالة العرب لسيدنا عمر – رضى الله عنه – عام ١٤هـ؛ حيث قال: "بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر".

يتضح من هذا أن العرب كانوا يحملون اللؤلؤ والمجوهرات والعطور، فى القرن السادس الميلادي. وقد أوضح أحد الرحالة العرب، فى القرن التاسع الميلادى، السبب فى عودة السفن السيرافية من "جدة"، وعدم إتمامها الطريق إلى "مصر"، مرورًا بالبحر الأحمر، فيقول:

"ليس هناك بحر كبحر الهند والصين، ففى بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفى جباله الجوهر والذهب، وفى أفواه دوابه العاج، وفى منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل، وسائر الأفاويه الطيبة الذكية، وطيور الفغاغى؛ يعنى الببغاوات والطواويس، وخرشات أرضه الزباد وظباء المسك، وما لا يحصى ولا يعد؛ لكثرة خيره"[1]. *(ص ٩١)*

---

(١) أبو زيد السيرافى صـ١٣٥ باريس ١٨١١م.

وقد رتب ابن خرداذبه قائمة بالبضائع والمحاصيل الهندية التي كانت تأتي إلى "العراق"، وشبه الجزيرة العربية، وذلك عام ٢٥٠هـ، أى بعد القرن الثامن الميلادى بقليل. كما يلى:

"ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماكفور والجوزبوا والقرنفل والقاقلة والكبابة، والنارجيل، والثياب المتخذة من الحشيش، والثياب القطنية المخملة، والفيلة، ومن سرنديب الياقوت، ألوانه كلها وأشباهه، والماس والدر والبلور، والسنبادج الذى يعالج به الجوهر، ومن ملى وسندان الفلفل، ومن كله الرصاص القلعي، ومن ناحية الجنوب البقم والدازي، ومن السند القسط والقنا والخيزران"(١). *(ص ٧٠ ـ ٧١).*

وقد أثنى كل من المسعودى (٣٠٣هـ)، والبشارى (٧٣٠هـ) على نعال "كهمبايت" (كاتهياوار)، التى كانت تصنع فيها، وترسل إلى الخارج(٢)، كما كانت منسوجات "تهانه" (مومباى) تحظى بشهرة واسعة، سواء أكانت هذه المنسوجات من إنتاج "تهانه" نفسها، أو تجلب من داخل البلاد، وهو ما أكده القزويني: "وينسب إلى "تانه" تانشى، ومنه الثياب التانشيه"(٣). *(أبو الفدا، تقويم البلدان، طبعة باريس، ١٨٠٤م، ص ٣٠٩).*

كتب مسعر بن المهلهل – الذى جاء إلى "الهند"، عام ٣٣١هـ، وطاف بجنوبها – يصف أحوال "كولم" (التى فى ترانكور بمدراس): "وتعمل بها غضائر(٤)، تباع فى بلادنا على أنها صينى، وليست كذلك، لأن طين الصين أصلب

---

(١) ابن خرداذبة ـ كتاب المسالك و الممالك – صـ٧١ – لندن.

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب – صـ٣٥٣ – باريس، وأحسن التقاسيم – البشارى – لندن – صـ٤٨٢.

(٣) أبو الفدا – تقويم البلدان – صـ٣٠٩.

(٤) مفردها غضارة، ومعناها: الفخار ذو الرائحة الطيبة، ولكنها أطلقت فى الغالب على الأوانى الصينية. انظر: معجم البلدان – ياقوت – الجزء الثامن – صـ٣٤٨، لفظ هزادن.

من طين كولم، وأصبر على النار، (وغضائر كولم لونها أدكن، وغضائر الصين لونها الأبيض، وغيره من الألوان).

ويضيف القزويني: "بها منابت الساج المفرط الطول، ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، وبها البقم والخيزران، والقنا بها كثير جداً، وبها الراوند، وهو قرع ينبت هناك، وورقة الساذج الهندى، العزيز الوجود، لأجل أدوية العين، ويحمل إليها أصناف العود والكافور واللبان...."(١).

وكانت "الهند" تصدر نوعًا من السموم، أورده القزويني باسم "بيش"؛ وهو الصيغة المحرفة للكلمة الهندية "بس"، والتى تعنى: السم(٢). *(آثار البلاد – ص١٠٧)*.

حب الهال (الحبهان):

بقدر ما هو محبب إلى القلب، نجد النفس فى شوق ولهفة إلى معرفة أصله اللغوى. والحقيقة أنه توجد منطقة بين "كارومندل" و"مليبار" تسمى "راس هيلى"، إليها يرجع "حب الهال"، ويعتقد أن أصله فى السنسكريتية "ايل"، وفى الفارسية "هيل"، فاتخذ منها اسمه "راس هيلى"، ثم اشتق اللفظ "اى لائچى"، أو "الائچى" فى الأردية، من اللفظ السنسكريتى "ايل"، مثلما أطلق العرب على العود، الذى يخرج من "مندل" (كارومندل)، اسم مندل، وهذا نص عبارة القزويني: "مدينة بأرض الهند، يكثر فيها العود، حتى يقال للعود المندل..."(٣). *(آثار البلاد ص ١٢٤)*.

وقد كتب المسعودى، أواخر القرن العاشر الميلادى: "وهذه الجزائر تُعرف جميعها بالديبجات، ومنها يحمل أكثر الزانج، وهو النارجيل، وآخر هذه الجزائر

(١) القزوينى ــ آثار البلدان – كوتنجن – ١٨٤٨م – صــ ٧٠.

(٢) القزوينى ــ آثار البلدان – صــ٨٥:

(٣) ابن بطوطة ــ الرحلة ــ الجزء الثاني، و تقويم البلدان لأبى الفدا – صــ٣٥٤.

سرنديب.... وفيها ملوك ومعادن من ذهب كثيرة، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم، والخيزران، والذهب". *(ج١، ص ١٥٢)*

ويصف ثروات جزر المهراج هكذا: "وقد حاز الملك أنواع الطيب والأفاويه، وليس لأحد من الملوك ما له، وما يُحمل من بلاده، ويجهز من أرضه من الكافور، والعود، والقرنفل، والصندل، والجوز، والبسباسة، والقافلة، والكبابة، وغير ذلك ما لم نذكره"[١]. *(ص ١٥٤)*

ويضيف سليمان التاجر: "وذلك أن رحالهم يخرجون إليهم من الجزيرة، فى زوارق منقورة فى خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر والموز، وشراب النارجيل؛ وهو شراب أبيض... فيبيعون ذلك بالحديد"[٢]. *(ص ٣٦)*

وكتب ابن الفقيه الهمذانى، عام ٣٣٠هـ، يقول:

"ولذلك خص الله – جل وعز – بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر، كاليواقيت والألماس، وغير ذلك من الحجارة الثمينة. والكركدن والفيل والطاوس والأعواد والعنبر، والقرنفل والسنبل، والخلخان والدارصينى والنارجيل والهليلج، والتوتيا والقنى والخيزران، والبقم والصندل والساج والفلفل، وعجائب كثيرة "[٣]. *(ابن الفقيه الهمدانى، كتاب البلدان، طبعة ليدن، ص ٢٥١).*

الشهادة القديمة للمعجم العربي

هناك بعض الوسائل لمعرفه المنتجات الهندية التى كان العرب يجلبونها من شبه القارة الهندية؛ منها المعاجم العربية، التى تسهم إسهامًا كبيرًا فى هذا الشأن. ومن المعروف أن السيوف الهندية كانت تحظى بشهرة واسعة فى العالم العربى، فقد عرف العرب السيف الهندى، والهندوانى، والمهند. و فيما يلى بعض الألفاظ

---

(١) المسعودى ــ مروج الذهب.

(٢) سليمان التاجر – صــ١٨.

(٣) ابن الفقيه الهمدانى ــ كتاب البلدان – صــ٢٥١ (ليدن).

ذات الأصل الهندى، والتى تخبر بنفسها عن موطنها الأصلى، وجلها من التوابل والعطور والأدوية، وقد حاولنا أن نوردها بصيغتها الهندية؛ حتى يكون ممكناً التعرف عليها الآن:

الاسم العربي	الهندي	الأردي	ملاحظات
صندل	جندن	صندل	
مسك	مشكا	مشکـ	
تنبول	تامبول	پان(تنبول)	
كافور	كبور	كافور	
قرنفل	كنكـ بهل	لونگ	.
فلفل	ببلى _ ببلا	گول مرچ	ومنة اشتقت الكلمة الإنجليزية paper
فوفل	كوبل	سپارى _ تلى	
زنجبيل	زرنجابيرا	سونٹھ _ _ ادركـ	
نيلوفر	نيلوبهل	نيلوفر	
هيل	ايل	ايلائچى _ الائچى	

الأدوية:

الاسم العربي	الاسم الهندى	الاسم الأردى
جايفل	جائـ بهل	جائے پهل
الاطريفل	ترى بهل	اطريفل
الشيخرة	شكهـ	توتيا
البلبلة (التبغ)	بيرا	بيڑا

الاهليلج	هره	هليله
البلادر	بهلاتكه	بهلاده

أما العود الهندى، والغاب الهندى، والساذج الهندى، والقرطم الهندى، والتمر الهندى، فكلها أسامٍ لتوابل تحمل اسم موطنها الأصلي. وقد أطلق العرب على العود اسم "مندل"؛ لأنهم كانوا يجلبونه من (كارومندل)[1]. *(ص ١٢٤)*

الأقمشة والمنسوجات:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردي
قرفس	كرباس	ململ
شيت	جهينت	ــــــــــ
فوطة	بت منكى وال	رومال

الألوان:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردي
نيلج	نيل	ــــــــــ
قرمز	كرمج	ــــــــــ

الفواكه:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردي
الموز	موشه	كيلا
النارجيل	ناريل	ــــــــــ
الانبج	آم	ــــــــــ
الليمون	ليمو	ــــــــــ

---

(١) القزوينى ــ آثار البلاد ــ جوتنجن – ١٨٤٨م – صـــ ٨٢.

ومنه اللفظ الإنجليزى ليمن lemon.

ولسان حال هذه الألفاظ يدل دلالة قاطعة على موطن نشأتها، وانتقالها إلى موضع آخر، فأخذت صبغة وشكلاً جديدًا.

ألفاظ هندية فى القرآن الكريم

ما زالت مسألة اشتمال القرآن الكريم على ألفاظ أعجمية، أو (الدخيل)، مثار جدل كبير بين العلماء. ولكنهم أقروا اشتمال القرآن الكريم على بعض أنواع الدخيل من الألفاظ الأعجمية، التى كانت متداولة على ألسنة العرب، فأخذت صبغة عربية. وقد قام الحافظ بن حجر العسقلانى، والحافظ السيوطى، بإحصاء هذه الألفاظ القرآنية. وإنه لمن دواعى فخرنا - نحن معشر الهنود - أن حالف الحظ بعض ألفاظنا، فتبوأت مكانًا فى هذا الكتاب العظيم.

وليس لتلك الألفاظ ـــ التى رأى أوائل العلماء أنها هندية ـــ أى أساس من الصحة. ومن ذلك قولهم فى أصل لفظ "ابلعى": إنه يقابل اللفظ الهندى "پىنا" (الشرب)، وزعمهم أن لفظ "طوبى" هندى الأصل، حسبما ورد فى رواية سعيد بن جبير[1]، فهو غير صحيح أيضاً. ولكن مما لا شك فيه، أنه ورد فى وصف الجنة ثلاثة ألفاظ من روائح وأفاويه هذا البلد الشبيه بالجنة، ألا وهى: المسك(*) الزنجبيل(**)، والكافور(***)[2].

---

(١) انظر: الإتقان فى علوم القرآن، نوع ٣٨.

(٢) (*) *المسك: " وختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون " (المطففين:٢٦).*

(**) *الزنجبيل: " ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلاً " (الإنسان: ١٧).*

(***) *الكافور: " إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا " (الإنسان: ٥).*

التوراة والتجارة العربية الهندية

يتعين علينا أن نضع نصب أعيننا التحقيقات اللغوية للبيانات، والألفاظ السابق ذكرها، وأن ننعم النظر فى إشارات التوراة المختلفة حول تلك الألفاظ: "وأن التجار العرب، الذين كانوا يفدون "مصر"، قبل ميلاد المسيح بألفى عام، كانت بضائعهم: البلسان، الصنوبر، والأنواع العطرية الأخرى" [1].

"وكانت الهدايا التى أحضرتها ملكة "اليمن" (سبأ) لسيدنا سليمان – عليه السلام – عام ٩٥٠ ق.م، من العطور، وسبائك كثيرة من الذهب، والدرر الثمينة[2].

وكان العرب أيضًا يحملون الفولاذ والبقول والتوابل، من "اليمن" إلى بلاد الشام، فى عهد النبى حزقيال، سنة ٥٢٨ ق.م . يقول النبى حزقيال: "يأتون من "اليمن"؛ لبيع المصقولات، والفولاذ، والبقول، والتوابل، فى سوق تبرا"[3]. *(العهد القديم – سفر الإصحاح – حزقيال – لندن – ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦م).*

ومن المعروف أن اللبان (نوع من البخور يفرز صمغًا، يوضع على النار؛ فيعطى رائحة طيبة) ومختلف أنواع النباتات العطرية، كانت تنبت فى "اليمن". أما الفولاذ المصقول (السيف)، والبقول والتوابل، فموطنها حتى اليوم "الهند". ومن هنا، يتضح جليًا أن تاريخ العلاقات التجارية العربية الهندية ممتد منذ آلاف السنين قبل الميلاد.

منتجات الهند فى عيون الرحالة العرب

يعتبر "جوز الهند" من أهم الثمار الهندية، التى استرعت نظر الرحالة العرب، وفى القرن التاسع الميلادى، كتب عنها أبو زيد، يقول:

---

(١) الميلاد – ٣٧ : ٢٦.

(٢) درم أيام – ٩ : ٩.

(٣) حزقيال – ٢٧ : ١٩. *(العهد القديم – سفر الإصحاح – حزقيال – لندن – ١٩٦٦م).*

"وبعمان من يقصد هذه الجزائر التى فيها النارجيل، ومعهم آلات التجارة وغيرها. فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا، فإذا جف قطعوه ألواحًا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب، ويستعملون منه مراكب، وينحتون منه الدواقل، وينسجون من خوصه شراعًا، ومن ليفه خرابات، وهى القلوس عندنا، فإذا فرغوا من جميعه، شحنت المراكب بالنارجيل، قاصدة "عمان"، فيباع، وتعظم بركته ومنفعته" [1]. *ص ٨٨*

ونراهم يتحدثون عن الليمون والمانجو فى دهشة بالغة، فيقول ابن حوقل (٣٥٠هـ)، فى معرض حديثه عن السند:

"وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح، تسمى الليمونة، حامضة، شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ، يسمونها الانبج (هى المانجو)، تقارب طعم الخوخ، وأسعارهم رخيصة"[2]. *ص ٣٢٠*

هلموا يا عشاق المانجو الهندية؛ لتعرفوا عشق العرب لها.

كتب المسعودى: "إن النارنج والليمون من الثمار الهندية الخاصة، والتى اجتلبت من "الهند" إلى البلاد العربية، فى القرن الثالث الهجري، فوصلت أولاً عمان، ومنها إلى "العراق" و"سوريا"، وما لبثت أن انتشرت فى ربوع "مصر"، وسواحل الشام". غير أن المسعودى يضيف قائلاً: "إن مذاقها ليس هنديًا"[3].

وقد حدث ابن حوقل، عام ٣٥٠هـ، عن أحوال تجارة "السند" و"كشمير" ومنتجاتها، فقال:

---

(١) أبو زيد – صـ١٣١.

(٢) ابن حوقل – صـ٢٢٨.

(٣) مروج الذهب – الجزء الثانى – صـ٤٣٨ – أوربا.

- " تتوفر فى "المنصورة"، التى كانت قديمًا تسمى "برهمن آباد"، ثمرة على قدر التفاح، تسمى الليمونة، حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ، يسمونها الإنبج، تقارب طعم الخوخ... وأسعارهم رخيصة". صـــ ٣٢٠.

- "آلور، وتقارب "الملتان" فى الكبر، وعليها سوران، وهى على شط نهر مهران(نهر السند)، وهى من حد المنصورة، خصبة رفهة، كثيرة التجارة" *ابن حوقل* - صـــ ٣٢٢.

- تقع مدينة "ديبل" شرقى نهر مهران على البحر، وهى متجر عظيم، وتجارتها من وجوه كثيرة، وهى فرضة (ميناء) هذه البلاد وغيرها، وزروعهم مباخس.... وهو بلد قشف، وإنما مقامهم للتجارة. *ابن حوقل صـــ ٣٢٣.*

- "قامهل": مدينة من أول حد الهند إلى صيمور، ومن صيمور إلى قامهل فمن بلد الهند، ومن قامهل إلى مكران فللبدهة، وما وراء ذلك إلى حد الملتان، فجميعه من بلد السند، والكفار من بلد السند هم البدهة، وقوم يعرفون بالميذ... وهم أهل الإبل، والجما الفالج (ذات السنامين)، الذى يرغب فيه أهل خراسان، وغيرهم. *ابن حوقل - صـــ ٣٢٣.*

- "قندابيل": وهى مدينة البدهة(البوذيين) التى يتجرون إليها، ويقصدونها بحوائجهم... والبدهة، كالبادية من البربر، لهم أخصاص وآجام يأوون إليها. *ابن حوقل، صـــ ٣٢٣ـــ ٣٢٤.*

- وبصيمور(جيسور)، وكنباية (كهنبايت، الكجرات، وكاتهياوار)، مساجد وجوامع... والغالب على زروعهم الأرز، ولهم العسل الكثير، ولا نخيل لهم. *ابن حوقل - صـــ ٣٢٤.*

- "كلوان": لها مباخس كثيرة، وزروع واسعة، وقرى غزيرة، قليلة الثمر، كثيرة المواشي. *ابن حوقل - صـــ ٣٢٤.*

- "كيزكانان": (عاصمة قصدار)، وهى ناحية خصبة، واسعة، رخيصة الأسعار، وبها أعناب ورمان وفواكه الصرود، وليس بها نخيل. ابن حوقل، صـــ٣٢٤.

- الفنجبور(قنجبور): أكبر مدن "مكران"، بها فانيد كثير، ونخيل وقصب سكر، وعامة الفانيذ الذى يحمل إلى الأفاق منها، إلا شيئًا يحمل من ناحية "ماسكان". *ابن حوقل، صـــ ٣٢٥.*

- "قندابيل": مدينة كبيرة، وليس بها نخل.... ولهم غلات، وزروع، وكروم ومواشٍ واسعة، وخصب. *ابن حوقل - صـــ ٣٢٦.*

ثم يأتى تقرير البشارى المقدسى (٣٧٥هـــ)، وكان تقريره مفصلاً، حيث أوضح فيه أحوال كل مدينة على حدة:

- و"يهند": هى مدينة أكبر من المنصورة، تتميز برخص أسعارها، ونظافتها العالية، وفواكهها الجيدة، وأشجارها الكبيرة، إن ثمن الثلاث منات (المن فى العربية قليل جدًا) من العسل بدرهم واحد فقط، ولا تتخيل رخص أسعار الخبز واللبن، وتكثر فيها أشجار اللوز والجوز.

- "قنوج": (بالقرب من الملتان) مدينه كبيرة، بها سور. اللحوم فيها رخيصة للغاية، وتزخر بالبساتين، أسواقها مربحة، الموز بها رخيص جدًا. وتقل فيها الحنطة، والأرز هو غذائها الرئيسي.

- "الملتان": تعادل "المنصورة" فى مساحتها، وفواكهها لا تزيد عن "المنصورة"، غير أن أسعارها أقل انخفاضًا من "المنصورة"؛ فالثلاثون منًا من الخبز بدرهم واحد، والثلاثة أمناء من الفانيذ بدرهم واحد أيضًا. ويقول تجارها الصدق، وحال التجارة بها جيد للغاية.

تصدر حلوى الفانيذ من "طوران"، والأرز والأقمشة من "سندان". هذا وتصنع أجود أنواع السجاجيد فى كل أرجاء "السند"، فضلاً عن الأقمشة الخفيفة

وجوز الهند؛ كما تصدر إلى الخارج نعال "كهنبايت" من "المنصورة"، والفيلة، والعاج، والأشياء الثمينة، والأدوية الجيدة، من "السند". وأكثر محاصيلها تميزاً: الليمون والمانجو، وهما لذيذان للغاية.

والجمال البلخية، فى كل من "فارس" والشرق، كانت تؤخذ من نسل الجمال السندية، التى كانت تعرف بالفالج، ولها سنامان، وأسعارها غالية؛ لدرجة أنها تصدر إلى الدول الأخرى كمطية للملوك فقط، وهكذا كان لنعال "كهنبايت" نفس القدر والقيمة"[1]. *(البشارى – ص ٤٨٣)*.

وقد أثنى المسعودى على الطاووس الهندى، وكتب عنه يقول: "ومع أنه جلب من "الهند" إلى "العراق" وغيرها، وأخذ منه سلالات، إلا أنها لا تضارع الطاووس الهندى، فى الشكل والقوام واللون"[2].

وتحظى أقمشة "الهند" الرقيقة بالقبول والثناء منذ القدم، ويدل ما ورد من تقارير أن "الهند" كانت تنتج أقمشة بالغة الرقة. ومما يذكر أن الأقمشة التى كانوا يلبسونها المومياوات المصرية صناعة هندية.

وعلى أية حال، فإن هذا القول يعتمد على القياس فقط. بيد أن أحد الرحالة العرب، فى القرن الثامن الميلادى، قد كتب عن إحدى المناطق الهندية، فقال:

"وفى بلاده الثياب التى لا مثيل لها، يدخل الثوب منها فى حلقة خاتم، دقة وحسنًا، وهو من قطن، وقد رأينا بعضها"[3]، "وفى بلاده البشان، وهو الكركدن، له فى مقدمة جبهته قرن واحد... وهو فى سائر بلاد "الهند"، فربما كان فى القرن

---

(١) البشارى المقدسى ــ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم – صــ٤٧٤ – ٤٨٢ – لندن.

(٢) مروج الذهب – الجزء الثانى – صــ٤٣٨ – ليدن.

(٣) رحلة سليمان التاجر – صــ٣٠ – باريس.

صورة رجل... وسائر الصور. وأهل "الصين" يتخذون منها المناطق (الأحزمة)، وتبلغ المنطقة ببلاد "الصين" ألفى دينار، وثلاثة آلاف، وأكثر"[1]. ص٤٣

و"كان التجار العرب يحملون من "الهند" نوعًا من الحيوانات، يستخلص من عرقه روائح طيبة، ويذهبون به إلى "المغرب"[2]، وكان الملح الأسود يصدر من "الهند" إلى الخارج"[3].

وممن فصل القول من العرب عن التنبول، المسعودي، قبل ما يقرب من تسعة قرون، فكتب يقول: "التنبول نوع من الأوراق ينبت فى "الهند"، فيخلط بنوعين من الأعشاب حين يؤكل، ويحمر الأسنان مثل حبوب الرمان، ويعطر الفم، ويدخل البهجة فى القلب، وأهل "الهند" لا يحبون ذوى الأسنان البيضاء، ممن لا يأكلون اللبان".

على كل حال، كان الحديث عن اللبان ضمنيًا؛ حيث لم يكن من الممكن أن يصل مثل هذا الشيء الرقيق سليمًا إلى العرب فى ذلك الزمن، ولكن كان السكر النبات يصل بانتظام، فيقول المسعودى، عام ٣٠٥هـ: "فى عصرنا هذا بدأ اليمنيون، والحجازيون، والمكيون، يتناولون بكثرة الدلمى"[4].

أما اليوم، فأخذ التنبول يصل إلى "عدن" طازجًا وجافًا بكميات وفيرة، إلى "مكة"، وذلك بسبب تأثر العرب بثقافة "الهند"، وظلت البلاد العربية تجلب القات من "الهند"، منذ ذلك الحين.

---

(١) رحلة سليمان التاجر – صـ٣٠ – باريس.

(٢) أبو حامد الغرناطى – تحفة الأحباب – صـ٤٩ – باريس.

(٣) الخوارزمى – مفاتيح العلوم – صـ٣٥٥ – لندن. *(لم يذكر الخوارزمى أن الملح الهندى كان يصدر إلى الخارج، وعبارته: "وملح الهندى، وهو أسود" صـ٢٥٩- تحقيق: فان فلوتين – الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤).*

(٤) مروج الذهب – الجزء الثانى – صـ٨٤ – باريس.

وقد عرف العرب عود راس كمارى (أى منطقه راس كمارى)[١]، واشتهر العود باسم العود القماري، وكان المسك يأتى من التبت[٢]. والماس يجلب من نواحى قشمير(كشمير)[٣]. *(بزرك - عجائب الهند - ص ١٧١)*.

واردات الهند البحرية

على كل حال، كانت "الهند" تصدر هذه الأشياء جميعها، ولكن ماذا كانت تستورد من العرب؟ كان أهل الجزر يأخذون حاجياتهم الضرورية، مثل الأقمشة: "وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء... فإذا مرت بهم المراكب، جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار، وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد، وما يحتاجون إليه من كسوة" *(سليمان التاجر - ص ٣٢)*، وقد ورد أن أهالى بعض الجزر كانوا عرايا، لا يشترون الملابس، وإنما يشترون الحديد[٤].

وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، كان ثمة إقبالٌ شديدٌ على عملة "السند" الذهبية؛ إذ كان الدينار السندى بثلاثة دنانير هندية. "ويحمل إليهم الزمرد الذى يرد من مصر، مركبًا فى الخواتم، مصونًا فى الحقاق، ويحمل البسذ؛ وهو المرجان، وحجر يقال له: الدهنج"[٥] *(أبو زيد السيرافى ص ٩٤)*. "إقبالاً منقطع النظير. ويستعملون المزر؛ نبيذ أهل مصر"[٦] *(ابن حوقل صـــ ٣٢٤)*[٧] ،

---

(١) سليمان التاجر ــ الرحلة ــ صـــ٩٣، صـــ١٣٠.

(٢) السابق، صـــ ١١١.

(٣) بزركـــ ــ عجائب الهند - صـــ١٢٨ - باريس.

(٤) سليمان التاجر ــ الرحلة ــ صـــ٩.

(٥) سليمان التاجر ــ الرحلة ــ صـــ١٤٥.

(٦) ابن حوقل - صـــ١٥٣ *(كيف كان العرب يستوردون الأقمشة والسيوف من الهند؟ والهند تستوردها من بلاد الروم؟ هذا الكلام لا يوجد عند ابن حوقل)*.

(٧) ابن حوقل - ص ٢٣١.

"والأقمشة الحريرية والفراء والجلود والسيوف من بلاد الروم"[١]. وما يجلب من فارس إلى سائر الأرض، وهو أفضل أجناسه فى سائر البلدان فماء الورد[٢]ابن حوقل صـ ٢٩٩. ويجلب إليها التمر من "البصرة" عبر ميناء "دبيل" السند "[٣]. أما الخيول فكانت تجلب إليه من البلاد "[٤] العربية فى "كارومندل".

أكان الهنود ملاحين؟

فيما يتعلق بتجارة الهند البرية أو البحرية، لم يرد أى ذكر للهنود؛ فلم يعرف هندوكى واحد بين ركاب البحار، وملاحى السفن. وتخلو كتب الجغرافيا والتاريخ، وكتب الرحلات اليونانية والعربية، من ذكر أسماء هندية، وأعلام تجارة الملاحة الهندية، إما يونانية أو رومية أو عربية. وقد وردت أسماء عربية فى رحلات ماركوبولو. وبناءً عليه، يعتقد "الفنستون" وغيره أن الهندوك لم يجسروا على ركوب البحار، وعبور المحيطات؛ فاكتفوا بركوب مراكبهم، وزوارقهم الصغيرة، فى مياه نهر "السند" والجنجا، والتحرك من ميناء إلى ميناء، بمحاذاة الساحل.

وحين قدم الإسكندر إلى "الهند"، لم يعثر اليونانيون على أى سفن فى نهر السند، أو أى نواخده (ملاح)، وإنما وجدوا بعض الصيادين على متن قواربهم، وزوارقهم الصغيرة. ومما لا شك فيه أن أهل "كارومندل"، هم وحدهم، الذين ركبوا البحر، ومكنتهم جسارتهم من الإبحار إلى جزر "جاوه"[٥].

لكنى أخالف هؤلاء الرأى، وأعتقد أنه حكم لا يعم الهندوك جميعًا، وينبغى استثناء الكجراتيين والسنديين، على الأقل. ويدعم هذا الرأى ما ورد فى منوجى

---

(١) ابن حوقل صـ١٥٣ *(كيف كان العرب يستوردون الأقمشة والسيوف من الهند؟ والهند تستوردها من بلاد الروم؟ هذا الكلام لا يوجد عند ابن حوقل).*

(٢) ابن حوقل – صـ٢١٣.

(٣) أبو الفدا ــ تقويم البلدان – صـ٣٤٩.

(٤) أبو الفدا ــ تقويم البلدان – صـ٣٥٥.

(٥) الفنستون – تاريخ الهند (الباب العاشر) – التجارة.

(أحد الكتب الهندوكية القديمة) من أن بعض الهندوك آنئذٍ كانوا على دراية بالسفر عبر المحيط.

وإليكم هذه الفقرة[1]. "إن من يُراع فى رحلته البحرية أمورًا أربعة: الصحة - البلد - الوقت - الهدف، ينل ما يبغى "(الفقرة: ٨ ، ١٥).

ويذكر المؤرخ اليونانى، آرين ARRIAN، أن الإسكندر الأكبر كان يقوم بإعداد سفنه بنفسه فى الهند. ولكنه يضيف قائلاً:

"ومن أبناء الطبقة الهندوكية الرابعة من يصنع السفن ويقودها، كما أن منهم الملاحين الذين يجوبون البحار"[2].

ويتضح من أحد بيانات اليونانيين، فى إحدى جزر البحر الأحمر، (ربما جزيرة سقطرى)، أنه كان ثمة عداء بين سكانها، من الهندوك والعرب واليونان.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن جزر "ملديف"، و"سريلانكا"، و"جاوه"، وسائر الجزر الأخرى المجاورة، كانت تضم عددًا لا بأس به من السكان الهندوك، تفصح عن هويتهم، عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم؛ ولهذا السبب أيقن التجار والرحالة العرب أن هذه الجزر جزء لا يتجزأ من "الهند"، وأخبروا عنها وفق هذا الفهم. وكتب أبو زيد - أحد الرحالة العرب، فى القرن التاسع الميلادى - يقول: "قد فتح ملك "جاوه" "راس كماري" أيضًا "[3].

ومن الجدير بالذكر أن العرب كانوا يلقبون ملوك "جاوه" بالمهراجا، وأطلقوا على هذه الجزر مملكة المهراجا. وفوق هذا، فإن أبا زيد السيرافى (القرن التاسع الميلادي) يقول عن أهل الهند:

---

(١) منوشاستر - الترجمة الأردية [لا له سوامى دبال نولكشور].

(٢) الفنستون - الجزء الأول - صـــ١٨٢.

(٣) أبو زيد - صـــ٩٧.

"ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم فى غضار واحد، ولا يجلسان على مائدة واحدة، فعندهم ذلك عيب فاحش. فإذا حلوا "سيراف"، ودعاهم وجه من وجوه التجار، وكانوا مائة نفس، أو دونها، أو فوقها، فإنه يضع بين يدى كل رجل منهم طبقًا فيه ما يأكله، لا يشاركه فيه سواه"[1]. *(ص ٩٤)*

ومما سبق يتضح جليًا أن الهنود كانوا يفدون على موانئ "العراق" بأعداد وفيرة، فى العهد العربى على الأقل. وقد ذكر العرب أن الهندوك كانوا على سفر دائم، عبر النهر، من "كشمير" السفلى (البنجاب) إلى السند[2]. *(ص ٧٤)*

ومن الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، ما رواه بزرك بن شهريار، الناخدا (الملاح)، فى كتابه (عجائب الهند)، وإطلاقه اسم "البانيه" على التجار الهندوك، مثل بقية ملاحى السفن الآخرين. *(ص ٧٨)*

وفى أحد المواضع، استخدم لفظين مختلفين، أى: البانيه والتاجر[3]؛ ويقصد بالأول: التاجر الهندوكي، وبالثانى: التاجر العربى. ومازال العرب، حتى اليوم، يطلقون لقب "بانيه" على التاجر الهندوكى، وجمعه "البانانية". ومازالت تجارتهم أيضًا مستمرة حتى اليوم، فى كل من "العراق" و"البحرين" و"عمان" و"السودان"، و"بورسعيد"، و"القاهرة"، وقد التقيت بأولئك "البانانية" أثناء رحلتى إلى "الحجاز" و"مصر". وهم يتحدثون اللغة العربية (اللهجات العربية) الشائعة ببراعة فائقة، مما جعل علماءنا يتملكهم العجب والدهشة، حين يسمعون حديثهم، وأغلب هؤلاء من "السند" و"الملتان" و"الكجرات". والله وحده يعلم متى شرع هؤلاء على هذه البلاد. وهكذا، فقد ظهر الهندوك على متن السفن العربية، عام ٣٠٠هـ، بالقرب من "عدن"[4]. *(ص ١٣٩)*

---

(١) أبو زيد – صـ١٤٦.
(٢) عجائب الهند – صـ١٠٤.
(٣) عجائب الهند – صـ١٦٥.
(٤) عجائب الهند – صـ١٤٧.

سفن المحيط الهندى

فرق بين السفن التى تبحر فى المحيط الهندي، وتلك التى تبحر فى البحر الأبيض، إذ كانت ألواح سفن البحر الأبيض مثبتة بمسامير من الحديد، بينما كانت سفن المحيط الهندى، تشدها الحبال[١].

ومن السفن ما هو كبير الحجم، مكون من طابقين، ذوات غرف منفصلة، ناهينا عن الزاد ومزاوده، ومكان خاص لأمتعة المسافرين وبضائعهم، ويبلغ طاقم المركب، من ملاحين وحفظة، ألف شخص[٢].

ويروى لنا بزرك بن شهريار ناخدا، عام ٣٠٦ هـ، هذه القصة: "خرجت فى مركب من "سيراف"، سنة ست وثلاثمائة، تقصد "صيمور"، وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد، ومركب سبا، وكان حجم هذه المراكب الثلاثة كبيرًا جداً، ومن المراكب ما ذاع صيته فى البحار، لما بها من نواخده ذوى قدر ومنزلة طبقت الآفاق. ومن المراكب ما يسع مائتى رجل وألف، من التجار والنواخده[٣] و"البانيه"[٤]. وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة مالا يعرف مقداره؛ لكثرته. فلما سرنا أحد عشر يومًا، رأينا آثار الجبال، ولوائح أرض سندان، وتانه (ممباى)، وصيمور"[٥]. *ص١٩٦*

نستنتج من ذلك أن حجم تلك السفن كان عظيماً، بحيث يسمح لها أن تبحر بتلك البضائع والأمتعة والحراس والملاحين، وعلى متنها أربعمائة راكب آخر. وكانت السفن المتجهة إلى "الصين" ضخمة جداً، ويخدم فى المركب منها ألف

---

(١) سليمان التاجر – الرحلة – صـ٨٨.

(٢) ابن بطوطة – الرحلة – الجزء الثانى – رحلة الصين.

(٣) *ناخذاه أو نوخذا: وجمعها نواخذه، وتعني: سيد المركب أو صاحبها، وتطلق مجازًا على الربان.*

(٤) *بانانى أو البنيان ، وجمعها بنانية، وهى كلمة هندية معناها: تاجر، وشاع استخدامها فى العربية أيضًا بمعنى: ملاح صغير.*

(٥) عجائب الهند – صـ١٤٧ – ١٦٥.

رجل، منهم البحرية ستمائة، ومنهم أربعمائة من المقاتلة، تكون فيهم الرماة... ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة[1]. *(ابن بطوطة، الرحلة، دار بيروت، ١٩٨٠م، ص٥٦٥)*.

ثروة التجارة البحرية

يمكننا معرفة مدى أهمية التجارة، فى المحيط الهندي، وما كانت تدره على "الهند" والبلاد العربية، من خلال بعض الوقائع التالية: كانت "مهانجر"، عاصمة الملك ولبهـ رائـ، تسمى "مدينة الذهب"، وكان صاحب كتاب عجائب الهند قد دخل الزايج (جزيرة جاوه)، قصبة المهراج، وقال: "رأيت فى البلد الذى فيه مهراجا، الملك بالزايج، من الأسواق العظيمة، ما لا يحصى، وعددت فى سوق الصيارف بهذا البلد ثمانمائة صيرفى، سوى ما فى البلد من الصيارف المتفرقين فى الأسواق"[2]. *(ص ١٤٦)*

ويضيف: "إنه كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر... وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ... حصل بيده درتان، إحداهما اليتيمة، والأخرى دونها بكثير، فحملهما إلى الرشيد، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم، والصغرى بثلاثين ألف درهم"[3]. *(ص١٧٧)*.

ومن طريف أخبار تجار البحر... ما حدث عن إسحاق بن اليهودي، وكان رجلاً يتصرف مع الدلالين بعمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فهرب من عمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مائتى دينار، لم يكن يملك سواها.

وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة، لا يعرف له خبر، فلما كان فى سنة ثلاثمائة ورد عمان، فحدثنى غير واحد من إخواننا البحريين، أنه ورد عمان من

---

(١) رحلة ابن بطوطة – الجزء الثانى – (وصف كالى كت).

(٢) عجائب الهند – صـ١٣٧.

(٣) عجائب الهند – صـ١٣٦.

الصين فى مركب لنفسه، وجميع ما فيه له، وأنه قاطع أحمد بن هلال (صاحب عمان) عن المركب؛ لئلا يحصى ما فيه، ويعشر عليه على ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع على أحمد بن مروان، دفعة واحدة، مائة ألف مثقال من المسك الفائق"(١). (ص ١٤٦).

وحكى أن رجلاً خرج من "عمان"، لا يملك شروى نقير، ثم عاد ومعه مركب محمل بالمسك، قيمته ألف دينار(٢).

ومن ناحية أخرى، كان التجار العرب يدرون على ملوك السواحل الهندية ربحًا وفيرًا؛ ولذا كانوا يحتفون بهم احتفاءً كبيراً(٣). *(ياقوت ص ٤٢٢)*.

وقد كتب ابن بطوطة، فى مواضع مختلفة، إبان رحلته فى سواحل الجنوب الهندى، أن سبب إحسان ذلك الملك الهندوكى للملاحين العرب، وعدم الإساءة إليهم، اعتماد دخل دولته، فى المقام الأول، على توافدهم. وقد توفرت ثروة لا تحصى لملك "كالى كتا" و"كارومندل"، بفضل هذه التجارة البحرية، ويذكر أن أحد عمال ملك "كارومندل" من المسلمين، قد حمل سبعة آلاف ثور بالذهب والمجوهرات؛ كان قد حصل عليها، إثر وفاة ملك " كارومندل "(٤).

وحين فتح كافور، أحد قواد علاء الدين الخلجى، "كارومندل"، عثر على ستة وتسعين ألفًا من الذهب(٥)، وخمسمائة من اللؤلؤ(٦)، فى خزانة الدولة، ناهينا عن

---

(١) عجائب الهند - صـــ١٠٠ - ١٠٨.

(٢) ياقوت ـــ معجم البلدان - لفظ " قيس ".

(٣) السابق - لفظ "قيس".

(٤) جامع التواريخ، نقلاً عن تاريخ اليت - الجزء الأول - صـــ٦٩ - ٧٠. وتاريخ وصاف، نقلاً عن اليت - ج٢ - صـــ ٣٢، ٥٣.

(٥) تاريخ ضياء برنى - مطبعة كالكتا - صـــ ٣٣٣.

(٦) أمير خسرو - خزائن الفتوح - طبعة على جره - صـــ ١٧٨.

المجوهرات واللآلئ. وإن غضضنا الطرف عن هذه المجوهرات، وغيرها، أيستهان بستة وتسعين ألف منّ الذهب؟

وكان المن في عهد علاء الدين يعادل ثلاث عشرة، أو أربع عشرة أوقية؛ أى: ما يعادل ثمانية وعشرين رطلاً، بالحساب الإنجليزي. ومن ثم، فإن وزن هذا الذهب فقط كان يبلغ مائتى مليون وستمائة وثمانين ألف رطل. وكان جل تجارة "كارومندل" يرد سواحل العرب و"العراق" و"إيران"، وسنذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد.

العرب واكتشاف طريق آخر إلى الهند:

مر بنا، كيف أن بحارة "البرتغال" قد تركوا البحر الأبيض، واكتشفوا طريقًا آخر للهند حول أفريقيا. ويعتقد أن الفضل فى هذا الاكتشاف يرجع إلى هؤلاء البحارة، وسوف تعتريك الدهشة حين تعلم أن شرف هذا الاكتشاف يعود إلى التجار العرب الذين سبقوهم بمئات السنين؛ والذين كانوا يبحرون بسفائنهم فى المحيط الهندى. وقد عرفنا أيضًا الفرق فى تصميم السفن بين المحيط الهندى، والبحر الأبيض، فقد كان الفارق كبيرًا؛ إذ إن ألواح سفن البحر الأبيض كانت تثبت بمسامير من الحديد، على حين تشد ألواح سفن المحيط الهندى بالحبال المتينة، المفتولة من لحاء النخيل وجوز الهند.

وقد كتب سليمان التاجر، الذى كان موجودًا عام ٢٣٧هـ، وذكر فى عدة مواضع من رحلته ما يلي:

"ومما حدث فى زماننا، ولم يعرفه من تقدمنا، أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذى عليه بحر الصين يتصل ببحر الشام، ولا يقوم فى أنفسهم، حتى كان فى عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد فى بحر الروم خشب مراكب العرب المخرّوزة، التى قد تكسرت بأهلها، فقطعها الموج، وساقتها الرياح بأمواج البحر، فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى فى خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الروم والشام. فدل هذا

على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا... ثم يصب فى الخليج، ويفضى إلى بلاد الشام، وذلك أن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة"[1]. *(أبو زيد - ص٧٠)*

من عرّف (أوصل) فاسكو دي جاما الهند

مما لا ريب فيه أن ملاحى "البرتغال"، كانوا يدورون حول أفريقيا؛ ليصلوا إلى المحيط الهندى، وما كانوا على معرفة أو دراية بالهند قط، وهو ما يشهد به البرتغاليون أنفسهم.

بيد أن العرب ـ لسوء الحظ ـ يرددون أن بحارًا، يدعى ابن ماجد، قد حمله البرتغاليون معهم، وهو الذى قادهم إلى "الهند". ولقب ابن ماجد هذا (أسد البحار)، وألف كتبًا عربية عدة فى فن الملاحة بالمحيط الهندي، وهذه الكتب موجودة فى مكتبة باريس.

ومنذ عدة سنوات، أصدر ناشر الكتب الشرقية (بال كاتهر) بـ "باريس" هذه الكتب، ونشرها فى مجلدين، وقد حوى المجلد الثالث فن الملاحة وأدواتها عند العرب، ومن بين ما حواه إشارة إلى كتاب "البرق اليمانى فى الفتح العثماني"، الذى يتعرض لتاريخ اليمن، إبان تلك الفترة. ومما ورد فيه، أن ابن ماجد، أو أسد البحار، قد وقع فى شراك البرتغاليين الثعالبة (الخبثاء)، أثناء بحثهم المضنى عن "الهند"، وهو فى حالة سكر شديد، وفى هذه الرواية تفاصيل عديدة عن جهد ابن ماجد فى وصول البرتغاليين.

أوربا والفلفل الهندى الأسود

من المعروف أن تجار الشرق الأوائل من الأوربيين، قد بدأ توافدهم على "الهند" فى القرن السابع عشر الميلادي، وكان لهم شغف كبير بالفلفل الأسود،

---

(١) سليمان التاجر ــ الرحلة ــ صـ٨٨.

فكانوا يحملونه معهم. وفى القرن الثالث عشر الميلادى، ذكر أحد الجغرافيين العرب، وهو زكريا القزوينى (٦٨٦هـ)، أحوال "مليبار"، معتمدًا فى ذلك على ما كتبه أسلافه، فيقول: " ويحمل الفلفل من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وأكثر الناس انتفاعًا به الفرنج، يحملونه فى بحر الشام(البحر الأبيض المتوسط) إلى أقصى الغرب"(١). (آثار البلاد - ص ١٢٣)

وعلى الأرجح أن الأتراك عندما سيطروا على البحر الأبيض، بعد فتح القسطنطينية؛ قد حرموهم من طعم هذا الفلفل الأسود. وفى النهاية، خاطروا بأنفسهم من أجله، وسلكوا طريقًا بحريًا آخر إلى "الهند"، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى هذا الشىء الثمين، بأى صورة كانت.

نشيد وطنى لأحد العرب الهنود

وننهى حديثنا هنا بقصيدة عربية، نظمها هندى عربى عاشق لوطنه، وهى فى محاسن "الهند" ومنتجاتها، ينقض رأى شاعر آخر(٢). ص ١٢٤

وشاعرنا هو أبو الضلع السندى، الذى عاش قبل عام ٦٨٦هـ. ولا غرو فى أن يكون هذا فى القرن الثالث، أو الرابع الهجري؛ إذ هو عصر زوال العهد العربى بالسند:

لقد أنكر أصحابى، وما ذلك بالأمثل - إذا ما مدح الهند، وسهم الهند فى المقتل.

لعمرى إنها أرض، إذا القطر بها ينزل - يصير الدر والياقوت، والدر لمن يعطل.

---

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ـ ج٣ - جوتنجن - صـ٨٢.

(٢) القزوينى ـ آثار البلاد - صـ٨٥.

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل - وأصناف من الطيب؛ ليستعمل من يتغل.

وأنواع الأفاوية، وجوز الطيب والسنبل - ومنها العاج والساج، ومنها العود والصندل.

وأن التوتيا (اسم جبل) فيها كمثل الجبل الأطول ـــ ومنها الببر والنمر، ومنها الفيل والدغفل.

ومنها الكرك والببغاء والطاووس والجوزل - ومنها شجر الرانج، والساسم والفلفل.

سيوف مالها قد استغنت عن الصيقل - والرماح إذا اهتزت اهتز بها الجحفل

فهل ينكر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل؟

الباب الثالث

العلاقات العلمية

المصادر:

إن تبيان العلاقات العلمية بين العرب والهند ليتضح لنا من كتب السند العربية القديمة، ألا وهي:

١- الجاحظ:

الفيلسوف المتحدث، توفى عام ٢٥٥هـ، وليد سكان البصرة، ومن أئمة كتاب النثر فى اللغة العربية، له مؤلفات كثيرة، بين كتب ورسائل، منها: كتاب (البيان والتبيين)، كتاب (الحيوان)، (الرسائل) التى تحتوى على مناظرات علمية، وجميعها مطبوع. كما نشر كتاب (التاج) فى مصر حديثًا. وفى كتابه (البيان والتبيين) صحيفة عن "قواعد البلاغة عند الهنود"[١]، ومن بين رسائله رسالة عن مناقب الهند. وقد طبعت هذه الكتب فى مصر.

---

(١) وقيل للهندى: ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقةً. وربما كان الإضراب عنها صفحًا أبلغ فى الدرك، وأحق بالظفر.

قال: وقال مرةً: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر. ثم قال: وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية. فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطوال الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال. أنظر: البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٩٧٥م، ١: ٨٨، ٨٩.

٢- اليعقوبي

هو أحمد بن يعقوب بن جعفر، كان فى ديوان الإنشاء (الكتابة)، أيام الدولة العباسية. وقد طوف بالهند وبلاد أخرى، وهو أول مؤرخ مسلم يكتب عن شعوب العالم باللغة العربية، وتوفى عام ٣٨٧هـ، وله كتابان: أحدهما فى التاريخ، وهو فى مجلدين؛ والثانى فى الجغرافية. ومن العجيب أنه لم يذكر الهند فى كتاب الجغرافيا، بينما تحدث، فى المجلد الأول من كتاب التاريخ، عن الكتب المنقولة إلى العربية عن لغات الهند. وقد طبع الكتابان كلاهما فى لندن.

٣- محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم

كان حيًا عام ٣٧٧هـ، من أهل بغداد، جمع أسماء وأحوال الكتب المعروفة فى عصره، المكتوبة بالعربية، فى شتى الفنون والعلوم، والمنقولة عن اللغات الأخرى. وفى كتابه الموسوم "بالفهرست" جزء عن الهند. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألمانى فلوجل (fluegal)، مع حاشية، فى ليبزج، عام ١٨٧١م.

أبو الريحان البيرونى

توفى عام ٤٤٠هـ، ومن مؤلفاته كتاب عن "تاريخ الهند"، ذكر فيه كل علوم الهند وفنونها، وقد طبعه البروفيسور زخاو، فى لندن، عام ١٨٨٧م. ونقل إلى الإنجليزية والهندية.

القاضى صاعد الأندلسى

مؤرخ أندلسي، قرطبى الأصل. اشتهر بكتابه "طبقات الأمم"، توفى عام ١٠٧٠م (٤٦٢هـ)، وقد كتب فى تاريخ الفنون والعلوم للأجناس والحضارات، حتى عصره، وكل ما وصلت إليه يده عن طريق اللغة العربية. وفى هذا الكتاب أيضًا، باب عن الهند. وقد طبع كتابه هذا فى مطبعة الكاثوليك، ببيروت، عام

١٩١٢م، كما طبع أيضًا فى مصر. وأمام ناظرى الآن، نسخة بيروت، وقد نشرت ترجمته الأردية دار المصنفين (بأعظم جره).

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين)

الطبيب الحكيم، أوحد زمانه، كان جده طبيبًا خاصًا للسلطان صلاح الدين، ويمتد عمره من ٥٩٠هـ /١١٩٤م حتى ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، وله كتاب "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" ذكر فيه أحوال من اشتهر بين الأطباء فى كل الأمم الراقية، وقد طبع الكتاب بمصر فى مجلدين، وفى المجلد الثانى باب عن الهند.

العلامة شبلى النعماني

ألقى خطبة مطولة فى المؤتمر العلمى الإسلامى، بجامعة على جره، بعنوان "التراجم"، طبعت مع رسائله. وقد ذكر فيها تلك الكتب المنقولة إلى العربية عن اليونانية، والفارسية، والعبرية، والسريانية، وغيرها من اللغات. كما ذكر الكتب المترجمة من السنسكريتية إلى العربية والفارسية. ولما يتم ذلك الجزء من الخطبة حتى هذه الفترة؛ إذ لما تطبع بعض الكتب القديمة، ولم تكتمل بعض الأبحاث العلمية الناقصة.

بداية العلاقات العلمية

البرامكة

قبل الحديث عن العلاقات العلمية العربية الهندية، ينبغى ذكر هذه الأسرة التى نشأت هذه العلاقات بفضل جهودها. وبصفة عامة، اشتهرت هذه الأسرة باسم (البرامكة) فى اللغة العربية. وتلكم هى الأسرة التى تقلدت الوزارة فى عهد الخلافة العباسية، لمدة ٥٠ عامًا (من عام ١٣٦هـ حتى ١٨٦هـ)، وقد اتسم عهدها بالأمن والأمان، وحسن النظام والإدارة، والجود والكرم، حتى إن كثيرًا من الناس يعتقد أن طهارة الدولة العباسية، ونظامها، وشهرتها، وحسن تدبير سياستها، راجع إلى

البرامكة. فبسحائب كرمهم، أينعت دوحات بغداد، منذ "السفاح"، أول الخلفاء العباسيين، حتى الخليفة الخامس "هارون الرشيد". وقد تولى أفراد تلك الأسرة الوزارة، وكانوا هم الحاكم الفعلى للدولة. ويقال إن شمسهم قد بزغت فى عهد "السفاح"، الخليفة العباسى، ثم ازدادت نورًا وبهاءً فى عهد "هارون الرشيد".

وما إن توسطت شمس البرامكة كبد السماء حتى اكفهرت، وانقشعت على يد "هارون الرشيد"، وقد نكب الرشيد هذه الأسرة لأسباب غير واضحة ألبتة. وإن كان المؤرخون يرجعون السبب إلى استمالة البرامكة الناس بعطفهم، وضمهم أفضل الأراضى إلى إقطاعاتهم. فاستولوا على كل كبيرة وصغيرة فى الدولة، حتى إن الأسرة العباسية نفسها كانت رقابها تحت رحمة كرمهم.

وفى هذه الحالة، كان لابد من القضاء على البرامكة، وإلا حدث انقلاب تاريخى عظيم فى العالم الإسلامى، وانمحت الخلافة العباسية تمامًا؛ فلكى تحمى الأسرة العباسية نفسها، كان من الضرورى أن تزول الأسرة البرمكية، أيا كانت الأسباب.

على أية حال، فمما لاشك فيه أن الرغبة فى المعرفة، ونقل علوم الأمم الأخرى؛ من علم الكلام، والفلسفة، والطب، والمنطق، بزغت فى عهد البرامكة.

من هم البرامكة؟

اشتهر عن البرامكة أنهم كانوا مجوسًا، وهم: عبدة للنار فى إيران. وكانوا سدنة المعبد الذى أقامه "منوجهر"، بمدينة "بلخ"، وعندما فتح المسلمون "بلخ"، عام ١٣٠هـ/٦٥١م، خبت نار هذا المعبد، ثم اشتعلت بعد بضعة أيام. وأخيرًا، عندما ضم قتيبة، القائد الخراسانى المعروف، هذا البلد إلى سدة الحكم الإسلامى، عام ٨٦هـ/٧٠٥م، أسلم سدنة هذا المعبد، الذين كانوا حكامًا على بلخ والبلاد المجاورة لها، منذ عهد الملوك الأوائل. ومنهم من أسلم طوعًا، وسافر إلى دمشق، وانتقل إلى

بغداد عام ١٣٣هـ، عندما انتقل مركز الخلافة إليها. وشيئًا فشيئًا، تدرج هؤلاء في المناصب الحكومية، حتى صاروا وزراءً وحكامًا على العالم الإسلامي كله.

هذه هي الأسرة التي لقب كاهنها الأعظم "برمكـ"، والجمع منه "برامكة"، وعليه، فقد نالت العزة والشهرة. ولكن يبقى السؤال، ما أصل كلمة "برمكـ"؟ لم يعن المؤرخون القدامى، أو علماء اللغة هذا الأمر. بيد أن المؤرخين، وعلماء اللغة ذكروا أن هذا اللفظ من المصدر "مكيدن"، والذي يعني امتصاص، وقد تضاف إليه الـ "بر" أحيانًا، فيصبح "برمكيدن"، ومن أجل تدعيم هذا الرأي، أقاموا عليه صرحًا من الرمال، وقالوا: إنه عندما حضر أول برمكي مسلم أمام الخليفة، وبخه قائلاً: لا يليق بك أن تأتي بلاط الخليفة، ومعك سم، وأنا معي مثل هذه الأختام التي أعرف بها من معه السم، فتقدم البرمكي، وقال: "هذا ولا ريب خطأ، فتحت خاتمي سم، وإن اضطررت أن أدفع حياتي ثمنًا لكرامتي، فسأقوم بمص هذا الخاتم كي أموت".

وبما أن لغته الفارسية؛ فقد قال: "امتصه" بالفارسية، وهي "برمكـ"، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه "برمكـ"(١).

إن هذه القصة محض افتراء، ومن اختلاق الكتاب الفرس؛ فلغة البلاط في دمشق لم تكن الفارسية، بل العربية. فضلاً عن أن فحوى هذه القصة، أن لقب "برمكـ" قد ظهر عام ٨٦هـ؛ على حين يذكر جميع المؤرخين العرب أن لقب أمير بلخ القديم هو "بجاري".

ويقر بعض علماء اللغة الفارسية أن "برمكـ" اسم ذلك المكان المنسوب إليه بعض من يطلق عليه "برمكي"(٢)، وقد فسر أحد الأدباء العرب هذا الأمر بقوله: إن

---

(١) تاريخ ضياء برني – روضة الصفا – برهان قاطع .

(٢) برهان قاطع .

معبد بلخ هذا بنى على غرار الكعبة؛ ولهذا كان رئيسها يطلق عليه "برمكه"؛ أى حاكم مكة، ثم اختصرت إلى "برمكـ"[1].

وثمة تفسير آخر ورد فى "معجم البلدان"، لياقوت الحموي، وهو أن كلمة "بر" تعنى: الابن، ومعناها ابن مكة (نوبهار).

أما فى اللغة الأردية، فأصل هذه الكلمة - كما يقول مؤلف كتاب التاريخ الشهير باسم هذه الأسرة – هو "برمغ"، وجمعها فى الأردية "برمغان"، ومعناها: عبدة النار. ويطلق عليها فى اليونانية "ماجوس"، وفى العربية "مجوس"، أما "بر"، فمعناها: رئيس، ولهذا فإن معنى "برمغ" هو: رئيس المجوس. ونحن نقبل هذا التفسير، شريطة أن نتمكن من إثبات أن عبدة النار وسدنتها، كانوا يلقبون بلقب "بجارى"، أو "بروهت"، أو "دستور"، فى معابد النــــار، التى تعد بالآلاف فى إيران، إلى جانب لقب "نوبهار"، أى: ربيع جديد.

وطبق هذا التفسير، كان ينبغى أن يكون هذا اللفظ شائعًا فى الفارسية، وأن يكون استعماله فى الشعر مألوفاً، وأن يكون عند أهل اللغة متداولاً معروفًا. غير أن ما يبعث على الدهشة أنهم لم يعرفوا شيئًا عن هذا اللفظ. فضلاً عن أنه كان يجب أن يكتب فى العربية "برمج"، وليس "برمكـ"، كما أنه لا يوجد ثمة مثـــال لكلمة فارسيـــة تحول غينها إلى كـــاف فى العربية، فـــإن كلمة "جراغ"، أصبحت "سراج" فى العربية، أما كلمة "هولاكو" التركية، فإن أصلها ليس "هلاغو"، كما فهم البعض، بل هى فى الأصل "هولاكو ". وليس من المستغرب أن ينطق اسم هذا السفاح، سافك الدماء، خطأ، حتى يتفق مع الكلمة العربية "هلاكـ"، بكل ما فيها من تلميح أشد وأنكى من التصريح.

---

(١) الزمخشرى ــ ربيع الأبرار.

والحقيقة أن تفسير هذا اللفظ يتوقف على إزاحة الستار عن هذا المعبد فى بلخ. أو كان فى الواقع معبدًا مجوسيًا؟ أو كانت عقيدة هؤلاء القوم هى عبادة النار، قبل الإسلام؟

وبالطبع سنجد الإجابة عند الإيرانيين: إنه كان معبدًا لعبادة النار، وإن عقيدة هؤلاء هى عبادة النار. والواقع أن الانتساب إلى شخص أسطورى هو شعور عام لدى كافة الشعوب. ألم يذكر الإيرانيون أن الإسكندر هو من نسل الملوك الإيرانيين؟ أو لم يعتبر كتاب القصة المسلمون أن ريتشارد قلب الأسد(١) من أولاد السلطان صلاح الدين؟ وهذا هو حال البرامكة أيضًا، فقد رفع الإيرانيون نسب هؤلاء إلى "جاماسب"، وزير الملك "جستاسب"، وأكدوا أن هذه الأسرة هى أقدم الأسر التى تولت الوزارة فى إيران(٢).

وعلى العكس من ذلك، ادعى العرب أن جعفر البرمكى الأول، الذى يرجع إليه بداية ظهور هذه الأسرة، كان ابن القائد العربى "قتيبة"، فى خراسان، وأن أم جعفر وقعت أسيرة فى يد قتيبة، أثناء الحرب، وبعد الصلح، حملت وعادت إلى بيتها(٣).

ونترك الأقوال المتعارضة حول نسب هؤلاء القوم؛ لننعم النظر فى أحوال هذا المعبد، أكان يحمل خصائص معبد النار؟ وأول شىء بالنسبة لمعبد النار أن

---

(١) *ريتشارد قلب الأسد: ملك انجلترا، جاء على رأس حملة صليبية ثانية؛ لاسترداد بيت المقدس، ولكنه لم يستطع؛ فعاد إلى بلاده، بعد أن عقد صلحًا مع صلاح الدين الأيوبى (عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، سمى بصلح الرملة.*

(٢) حميد الله المستوفى ــ سياست نامه، ونزهة القلوب.

(٣) الطبرى وابن الأثير. وهذا هو نص ابن الأثير: *"وقيل إن قتيبة قدم خراسان، سنة ٨٥هـ.... وكان ممن سبى امرأة برمك؛ أى خالد بن برمك، وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم، أخى قتيبة، فوقع عليها، ثم إن بلخ صالحوه، وأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله: إنى قد علقت منك، وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة، فأوصى أن يلحق بها ما فى بطنها، وردت إلى برمك" ابن الأثير – الكامل فى التاريخ – م ٦٣٠هـ – دار صادر ببيروت – ١٩٧٨م – ج٤– ص٥٢٤.*

تكون النار مشتعلة به. وما أشار أحد ممن نسب هذا المعبد إلى بلخ – باستثناء بعض المؤرخين غير الثقات – إلى هذا.

وأقدم مرجع وصل إلينا، فيما يتعلق بهذا الأمر، هو للبلاذرى، ولم يذكر لنا أى تفصيل عن هذا، ثم جاء من بعده المسعودى، ٣٣٠هـ، ومعاصره ابن الفقيه الهمداني. ولدينا أيضًا "معجم البلدان"، لياقوت ٦٢٦هـ، و"آثار البلاد"، لزكريا القزوينى، ٦٨٦هـ، وتتطابق بيانات ابن الفقيه، وياقوت حول هذا الموضوع تطابقًا حرفيًا، وإن كان ياقوت قد استقى معلوماته من عمر بن الأزرق.

وصف المسعودى

كتب المؤرخ المسعودى عن أحوال "نوبهار": "وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييداً، وكانت تنصب على أعلاه الرماح، عليها شقاق الحرير الأخضر، طول الشقة مائة ذراع، فما دونها... وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالاً لم نذكرها؛ إذ كان أمر ذلك مشهورًا من وصف علو السور وعرضه"[1].

(ج٢، ص٢٩٣)

هل قرأت فى هذا الاقتباس ذكرًا للنار، أو وصفًا لمبنى، أو راية تدل على أنه كان معبدًا للنار؟

وصف ابن الفقيه

"وبها النوبهار، وهو من بناء البرامكة، وكانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ، قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان، فوصفت لهم مكة، وحال الكعبة بها، وما كانت قريش والعرب تدين به، فاتخذوا عليه بيتًا، يقال له "النوبهار" ببلخ؛ وتفسيره: الجديد، فكانت العجم تعظم ذلك البيت، وتحج إليه، وتهدى إليه، وتلبسه الحرير، وتنصب الأعلام على القبة، واسمها عندهم الأشبت،

---

(١) المسعودى – مروج الذهب – الجزء الرابع – صـ ٤٨ – باريس.

وكانت القبة مائة ذراع فى مثلها، بأروقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة، يسكنها خدامه وقوامه، على كل خادم خدمة يوم، فلا يعود إلى خدمته إلى الحول، فسموا سادنها الأكبر برمكا، وكانت ملوك الصين وكابل شاه تدين بذلك؛ فكانو إذا حجوا، سجدوا للصنم الأكبر"[1]. (ص٣٢٣).

لقد قرأت هذا الوصف، ولم يتضح لك أى ذكر للنار فيه، بل إن هناك ذكرًا للأصنام، التى ليس لها علاقة بمعابد النار، فلا المجوس، ولا الإيرانيون كانوا يعبدون الأصنام. بل ورد فيه "إن هذه كانت عقيدة ملك الصين وكابل"، ومعلوم للجميع أن عبادة النار لم تكن موجودة فى الصين وكابل.

وصف ياقوت

"قال عمر بن الأزرق الكرمانى: كان البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ، قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان، فوصفت لهم مكة، وحال الكعبة بها... فاتخذوا بيت النبهار؛ مضاهاة لبيت الله الحرام، ونصبوا حوله الأصنام، وزينوه بالديباج والحرير، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة، وتفسير النوبهار: البهار الجديد؛ لأن "نو": الجديد. وكانت سنتهم إذا بنوا بناء حسنًا، أو عقدوا بابًا جديدًا، أو طاقًا شريفًا كللوه بالريحان، وتوخوا لذلك أول ريحان يطلع فى ذلك الوقت. فلما بنوا ذلك البيت، جعلوا أول ما يظهر من الريحان، وكان البهار، فسمى "نوبهار" لذلك. وكانت الفرس تعظمه، وتحج إليه، وتهدى له، وتلبسه أنواع الثياب، وتنصب على أعلى قبته" الاستين"... وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة، يسكنها خدامه وقوامه وسدنته... وكانت ملوك الهند، والصين، وكابل، وغيرهم من الملوك، تدين بذلك الدين، وتحج إلى هذا البيت... وكانت سنتهم، إذا هم وافوه، أن يسجدوا للصنم الأكبر، ويقبلوا يد برمك... ويقال إن الريح

---

(١) كتاب البلدان – صـــ٣٢٣ – لندن.

ربما حملت الحرير من العلم، فوق القبة، فتلقيه بترمذ"[1]. *(ياقوت - معجم البلدان - دار صادر - بيروت - ١٩٧٧م - ص٣٠٧)* فتقديم الأزهار، وغيرها من خصائص "البهار"، ما هو إلا من اختراع الفرس؛ حتى يتطابق مع اللفظ الفارسى "نو بهار".

وصف القزويني

يكتب عن أحوال بلخ: "كان بها "النوبهار"، وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام. لما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة، واحترام العرب إياها، بنوا هذا البيت؛ مضاهاة للكعبة، وزينوه بالديباج والحرير، والجواهر النفيسة، ونصبوا الأصنام حوله. والفرس والترك تعظمه، وتحج إليه، وتهدى إليه الهدايا. وكان حول البيت مائة ذراع فى عرض مائة، وأكثر من مائة ارتفاعاً، وسدانته للبرامكة، وملوك الهند والصين يأتون إليه، وإذا وافوه، سجدوا للصنم... "[2]. *(آثار البلاد - ص٣٣١)*.

وهار، بده

ويتضح مما ذكرناه، وبما لا يدع مجالاً للشك، أنه لم يكن ثمة معبد للمجوس، بل معبد للبوذية. وإن كلمة "وهار" هذه تحرفت إلى "بهار"، فكلمة "نوبهار" هى، فى الأصل، "نو وهار"، وهى تطلق على معابد البوذية بصفة خاصة. وذلك موجود فى بلادنا؛ حيث إن مدينة بهار - التى كانت أصلاً معبدًا للبوذية ـــ هى "وهار"، وقد حرفها المسلمون، بلهجتهم الفارسية، إلى بهار، وفى فترة الزحف الأول للعرب على السند، كان هناك العديد من هذه "الوهارات". وما ذكره المؤرخون العرب عن أحوالها ينطبق تمامًا على ما ورد فى وصف "نوبهار"، بمدينة بلخ.

---

(١) معجم البلدان – الجزء الثامن – صـــ٣٢١ – مصر – لفظ "نوبهار ".

(٢) القزوينى ـــ آثار البلاد – صـــ٢٢١ – جوتنجن.

والبلاذرى (٢٤٧هـ)، وهو من أقدم المؤرخين، كتب عن أحوال فتح السند فى كتابه "فتوح البلدان"، فقال: "وكان بالديبل (بد) عظيم، عليه دقل طويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور، و(البد) فيما ذكروا: منارة عظيمة، يتخذ فى بناء فيها صنم لهم، أو صنم يشهر بها، وقد يكون الصنم فى داخل المنارة أيضًا. وكل شيء عظموه من طريق العبادة؛ فهو عندهم (بد)، والصنم (بد) أيضًا"(١).

وبعد هذا، فليس ثمة شك أن "نو بهار"، الموجود فى بلخ، ما كان معبدًا مجوسيًا. ومن العجيب أن المؤرخين، خلا القدامى، لم يلتفتوا إلى هذا الأمر. وإن كان (كريمر) قد أخبرنا أن البرامكة مزادكة (مزدكي)(٢). وقد خفيت هذه الحقيقة على البروفيسور (براون)؛ فعد "نوبهار" معبدًا للنار، والبرامكة مجوساً(٣).

ومما أثلج صدرى، أثناء بحثى هذا، أنى وجدت فى مقدمة ترجمة "كتاب الهند"، "لزخاو"، صـ٣١، أن أصل "نوبهار" هو "نو وهار"، وأنها إحدى خانقاهات البوذية. وأكد ذلك أحد المستشرقين المعاصرين، وهو "بورتولد" W.Barthald، فقد ذكر بضعة سطور عن "البرامكة"، فى دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، صـ٩٦٣، فقال: "يبدو أن "نوبهار" هى "وهار" البوذية، كما أشار بذلك أحد الرحالة الصينيين، وكما يثبت من الصورة التى نقلها ابن الفقيه. بيد أنه لم يستطع واحد منهم أن يقدم لنا دليلاً على هذا، وظلوا يستمرئون خطأهم هذا، وهو أن البرامكة من المجوس الإيرانيين، وأن الإيرانيين أقاموا لهم معبدًا للنار". أما بالنسبة لى ــ أى المؤلف ــ فإن ذلك خطأ كبير، وأظن ظنًا أن البرامكة كانوا بوذيين، وأن أصل نسبهم يعود إلى الهند، لا إيران.

---

(١) الإمام أبو الحسن البلاذرى – فتوح البلدان، عنى بمراجعته والتعليق عليه: *رضوان محمد رضوان – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – ١٩٩١م/١٤١٢هـ – صـ٤٢٤.*

(٢) الترجمة الإنجليزية لصلاح الدين: خدا بخش.

(٣) تاريخ فارس – المجلد الأول – صـ٢٥٩.

والحقيقة أن بعض الشعراء الهجائيين، المعاصرين لهم، قد نسبوهم إلى المجوس؛ ومرد ذلك أن العرب لم يعرفوا أى عقيدة للعجم سوى المجوسية، والأمر الثانى أن مقتضيات العمل السياسى جعلت البرامكة والإيرانيين الأعاجم يناصر بعضهم بعضا، وأن هذا التعاون لم يستمر طويلاً، فكان زوال نجم البرامكة.

على أية حال، فإن هذا الزعم، بأن "نوبهار" كان معبدًا للبوذية، وأن البرامكة من البوذيين، يستند إلى الأدلة التالية:

أ – ليس ثمة أى معبد مجوسى باسم (نوبهار)، فى أى مكان. بل العكس، فهو اسم معبد بوذى مشهور، وفى السند، كان معبد بوذى يسمى (نوبهار) آنئذٍ[١].

ب – الصورة التى قدمها الجغرافيون العرب، ومؤرخوهم الثقات، تطابق تمامًا صورة المعبد البوذى.

ج – فى القرن السابع الميلادى، ذكر الرحالة الصينى (هوان كنج) هذا المعبد فى بلخ[٢]. وهى نفس الفترة التى وصل فيها العرب الفاتحين إلى بلخ، أو كانوا فى طريقهم إلى هناك.

د – قد كتب المسعودى عن (نوبهار) ما يلي:

"وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على باب" النوبهار" ببلخ كتابًا بالفارسية، ترجمته" قال بوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، وصبر، ومال". وإذا تحته بالعربية: كذب بوذاسف، الواجب على الحر، إذا كان معه واحدة من هذه الثلاث، أن لا يلزم باب السلطان "[٣]. ج٢ – ص ٢٣٩

---

(١) الترجمة الإنجليزية لشش نامه – اليت – المجلد الأول – صـ١٥٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – الجزء الأول – صـ٦٦٤.

(٣) مروج الذهب – الجزء الرابع – صـ٤٠ – باريس.

وليس عند الباحثين أدنى شك في أن العرب كانوا يطلقون على "بوذا "بوداسف[1]، وإن لم يكن معبدًا بوذيًا، فماذا عساه يكون؟ أيكون معبدًا للمجوس، وقد كتب على بوابته الرئيسية مقولة لبوذا؟

هـ - إن بلخ إحدى مدن خراسان، ووفق المحققين والمدققين، القدامى منهم والمحدثين؛ فإن عقيدة هذه البلدة كانت البوذية قبل الإسلام. وقد كتب ابن النديم، وهو أحد الثقات، في التاريخ القديم لخراسان:

"وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر، قبل الإسلام، وفي القديم، وذلك أن نبيهم بوداسف"[2]. *(ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص٤٨٤)*

و- وقد كتب المؤرخون عن حال إسلام البرامكة: "إن عقيدة سدنة (نوبهار) كانت هي عقيدة ملك الهند، والصين، والترك"[3].

ومعلوم للجميع أن البوذية عقيدة أهل الهند، وكابل، والصين، والترك، ولم تكن المجوسية، أو عبادة النار.

ز- ومن رجع للمؤرخ عمر بن أرزق كرماني (وكرماني هذا سابق على ياقوت بالتاكيد، أي في القرن الثالث أو الرابع؛ لأن تلك العبارة بعينها جاءت عند ابن الفقيه الذي عاش أواسط القرن الرابع) وهي: "....فلم يزل يليها برمك بعد برمك، إلى أن فتحت خراسان، أيام عثمان بن عفان، وقد صارت السدانة إلى برمك؛ أي خالد، فوجه برمك إلى عثمان في الرهائن، فورد المدينة، ورغب في الإسلام، فأسلم، وسمي عبد الله، ورجع إلى ولده، وصارت البرمكة في بعض ولده، فكتب بعض الملوك إلى برمك، يعظم ما أتى من الإسلام، ويدعوه إلى

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست - صـ٣٤٥، مع حواشي فلوجل.

(٢) ابن النديم ـ الفهرست - صـ٣٤٤.

(٣) وقد وردت اقتباسات القزويني، وابن الفقيه، وياقوت أعلاه.

الرجوع فى دين أبائه، فكتب إليه برمك: إنى إنما دخلت فيه اختيارًا، وعلمًا بفضله، عن غير رهبة ولا رغبة، ولا أرجع إلى دين بادى العوار، متهتك الأستار، فغضب الملك، وزحف إلى برمك بجمع كثيف، فكتب إليه برمك، قد عرفت حبى للسلامة، وإنى إن استنجدت عليك الملوك، أنجدوني، فانصرف، وإلا صرت إلى لقائك، فانصرف عنه وأودعه، ثم لم يزل ذلك الملك، واسمه نازك طرخان، يغتر ببرمك ويطلبه حتى بيته، وقتله وعشرة بنين له، فلم يبق لهم برمك سوى برمك أبى خالد، فحملته أمه، وهربت به، وكان صغيرًا، إلى بلاد قشمير، فنشأ برمك، وتعلم النجوم والطب وأنواع الحكمة، وبقى على شركه، وأصابهم وباء؛ فتشاءموا بمفارقة دينهم، فكتبوا إلى برمك، فتقدم عليهم، فأجلسوه فى موضع أبيه، فتولى أمر النوبهار، فسمى برمكا، وتزوج ابنة ملك الصغانين، فولدت له الحسن، وبه كان يكنى، وخالدًا وعمرًا، وأم خالد وسليمان بن برمك من امرأة أخرى وغيرها من أهل بخارا، وكان صاحب بخارا، أهدى إلى برمك جارية، فولدت له كال بن برمك، وأم القاسم، وبنتًا أخرى، ولهم أخبار كثيرة، وإنما أردنا هذا الخبر بعينه بسبب النوبهار". *(ابن الفقيه الهمدانى – مختصر كتاب البلدان – طبعة ليدن – ١٣٠٢هـ – ص٣٢٣ ـ ٣٢٤).*

وهنا يبرز تساؤل، لو أن (نوبهار) معبد للمجوس، والبرامكة مجوس، فلم يغضب عليهم طوخان، ملك الترك البوذى؟ ولم يتعقبه، هو وأسرته؟!

ح – وبعد مقتل (برمكـ) وأولاده، أخذت زوجة (برمكـ) طفلها الصغير، وفرت إلى كشمير. وهكذا تلقى هذا الطفل تعليمه وتربيته فى كشمير، فقد تعلم الطب والفلك، فضلاً عن العلوم الهندية الأخرى، وظل على دين آبائه وأجداده. وقد ضرب بلخ وباء الطاعون، مصادفة فى فترة ما، فاعتقد الناس أن ذلك ابتلاء من الله؛ بسبب ترك دينهم، فاستدعوا البرمكى الشاب، وزينوا (نوبهار) من جديد.

إن هروب الطفل من بلخ إلى كشمير، وتلقيه العلم والتربية فيها لا سبب له، سوى أن الطفل من أسرة لها جذور هندية، وأن عقيدتها هى البوذية، والتى كان مركزها كشمير. وإلا لكان من السهل أن يفر من ظلم الترك، ويذهب إلى أبناء قومه وعقيدته فى إيران، أو يستجير بالمسلمين! ثم ما إمكانية تعليم طفل مجوسى، وتربيته فى بلد آخر؟ وما التعليم الذى يمكن أن يحصل عليه من تعليمه هنا؟

ط - هذه حكاية علاقة هذه الأسرة بالهند؛ قبل دخولها الإسلام. أما بعد دخولها الإسلام، فقد توطدت العلاقة أكثر من ذى قبل، فقد أصبح لحكماء الهند فى بلاط حكام العراق المكانة السامية؛ إذ تم استدعاء علماء البوذية وأطباءها، الذين كانوا من السند غالبًا، وتم تعيينهم فى بيمارستانات بغداد، وتم إرسال العلماء للقيام بعمل أبحاث دوائية ودينية. ويذكر ابن النديم، فى كتابه "الفهرست"، الذى ألف عام ٣٧٧هـ:

"الذى عنى بأمر الهند، فى دولة العرب، يحيى بن خالد، وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند، وإحضارها علماء طبها وحكمائها"[١]. (*الفهرست، الفن الثالث من المقالة التاسعة، ص ٤٨٤).*

لو أن هؤلاء الناس كانوا إيرانيين ومجوسًا، لكان مركز اهتمامهم ونشاطهم هو إيران، لا الهند.

ى - وصفوة القول، إن (برمك) الذى كان اسمًا للعائلة، ولقبًا ذا تقدير لكبير سدنة (نوبهار)، هو نفسه اللفظ السنسكريتى (برمك). والدكتور زخاو[٢] - وهو من العارفين المهرة باللغة السنسكريتية - يقول: إن معنى اللفظ، فى السنسكريتية،

---

(١) الفهرست - صـ٤٣٥ - سنة ١٨٧١م.

(٢) *زخاو: هو مستشرق ألمانى، اسمه ادوارد كارل زخاو (١٨٤٠ ـ ١٩٣٠)، عمل أستاذا للغات السامية فى جامعة فينا، عام ١٨٧٦م، وأستاذا للغات الشرقية بجامعة برلين، وحقق وترجم كتابين مهمين للبيرونى، هما: "الآثار الباقية" و "تحقيق ما للهند".*

هو: صاحب الدرجة الرفيعة، وقد استوضحنا ذلك من علماء السنسكريتية، فأكدوا لنا أن معنى اللفظ هو: صاحب الدرجة، أو المكانة السامية.

ك – فى معبد (نوبهار) قبة عظيمة، مقامة عاليًا، قد كتب اسمها بعدة طرق، تختلف إحداها عن الأخرى؛ إذ ورد اسمها فى النسخة المصرية لياقوت (آستن)، أما النسخة الأوربيـــة، فليست فى حوزتى الآن – والكلام للمؤلف – ولكن نسخة ابن الفقيه، المطبوعة فى لندن، أمام ناظرى، وتحت بصري، و قد كتب فى متنها أن اسمها "اسبت". بيد أن العالم (دى جويه) Degoye أخذ عن مختلف النسخ، فكتب اسمها على النحو التالى: (استن)، (است)، (اسبت). وأعتقد أن اللفظ الصحيح هو (استب)؛ إذ هو النطق العربى والفارسى للفظ البوذى (ستوب). والجميع يعلم أن اللفظ (ستوب) يطلق على ذلك الدير البوذى الخاص الذى يوضع فيه رماد (بوذا). وفى الهند، عدد كبير من هذه المباني، وكشفت الآثار عن طريقتها ووصفها بشكل كامل. وقد خدع الجميع التشابه مع اللفظ الفارسي، إذ فى الفارسية، يطلق لفظ (استن) على السارية، ويوجد مرادفها الآخر (ستون)، فى لغتنا الأردية. لذلك اعتقد الكتاب أن كلمة (استب) كلمة لا معنى لها، فجعلوها فارسية؛ حتى يصبح لها معنى. بيد أن أكثر الأشياء صحة وصوابًا هو أنهم يطلقون اسم (ستون)، أو سارية على أى قبة، أو ما أشبه.

لقد فصلنا القول فى مسألة فرعية، وربما تتفهم إطالة الحديث فى غير موضعه، نظرًا لما تحمله هذه القضية، فهى من الأهمية بمكان فى هذا البحث، وسوف ترفع عنى هذا الاتهام، وهو الإطالة والإسهاب، وسوف تتضح صحة نظريتي، التى تقول: إن جميع الأنشطة العلمية التى تمت فى عصر البرامكة، من نقل علوم الطب، والفلك الهندى إلى العربية، وربما الشعر والأدب، والفنون والعلوم، كل هذا كان للهند فيه النصيب الأوفى، لا إيران. وإن هذا لن يكون عملاً عاديًا بالنسبة للهند، وإن أكبر دائرة للمعارف العربية هي كتاب ابن فضل الله

العمرى المصرى "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار"، الذى تم نشر مجلده الأول الآن. وفى هذا الكتاب تاريخ (لنوبهار)، ووصف لها بتلك الكلمات:

"وسابعها بيت النوبهار، بناه منوشهر الهندى، بمدينة بلخ. وكان يأتيه من الصابئة من يتقرب بالقمر. وكان يسمى المتولى لسدانته "برمك"، وكانت ملوك الفرس تعظمه، وتعظم متوليه. وآلت ولايته إلى خالد البرمكي. فلهذا قيل" خالد بن برمك"، ولهذا قيل البرامكة. وكان من أعلى المبانى تشيدًا، وكان يُلبّس بالحرير الأخضر، تنشر عليه شقاق منه. طول كل شقة مائة ذراع... وكان قد كتب على باب النوبهار، بالفارسية: قال سوراشف"[1]. *"مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ)، السفر الأول، تحقيق: عبد الله بن يحيى السريحى، أبو ظبى، المجمع الثقافى، ٢٠٠٣م، ص ٢٨٧*.(والتحريف الذى حدث فى العبارة السابقة أنه كتب: سوراشف، بدلاً من: بوذاسف).

يتضح من هذا أن الذى بنى هذا المعبد هندي. وهاكم شاهد إثبات يعضد مزاعمى – والكلام للمؤلف – حيث ذكر أن المعبد لعبادة القمر، لا بيتًا لعبادة النار، بأى حال من الأحوال. وكونه لعبادة القمر، فهى إشارة تجعلنا نتجه صوب الهند. وعند البعض أن كلمة (اندو)، هى أصل (هندو)، التى تطلق على القمر، فسميت الدولة باسمه[2].

بهذه الأدلة التى أسوقها لإثبات دعواى، تكتمل الحلقة المفقودة فى العلاقات العلمية بين العرب والهند، ويتضح سبب اهتمام البرامكة بعلوم الهند وفنونها، وأسباب الارتباط والالتقاء بحكمائها.

---

(١) الكتاب المذكور – المجلد الأول – صـ١٢٣ – مصر.

(٢) نوفل أفندى – زبدة الصحائف فى سياحة المعارف – صـ٩٣ (وهو كتاب لأحد فضلاء الشام المسيحيين لتلك الفترة).

ومن خلال هذا التقرير السابق، لن نقول إنه تم تفسير العلاقات التجارية العربية الهندية تفسيرًا كاملاً، وشرحها شرحًا وافيًا، لكنه فى الواقع إضافة إلى العلاقات التجارية بين العرب والهند.

وتؤكد الأحداث التاريخية أن ثمة علاقات قد بدأت، منذ أواخر القرن الأول الهجري، وهى علاقات ذات أغراض ومآرب أخرى؛ إذ عندما وصل محمد بن القاسم أول بلدة، فى حملته على السند، عام ٩٦هـ، علم أن أهالى المنطقة كانوا قد أرسلوا اثنين من أتباع البوذية لحاكم العراق (الحجاج)؛ من أجل الصلح والحصول على ميثاق الأمن والأمان، وعندما زالت الخلافة، وزال مقرها من الشام، وانتقل إلى العراق؛ أى حينما استقر الأمر للعباسيين، بدلاً من الأمويين، فإن القرب الجغرافى بين السند والعراق، أسفر عن ملتقى جديد للوحدة بين القوميتين، فى الخليج العربي. وبعد حكم السفاح بعامين أو ثلاثة، كان الخليفة العباسى الثانى، المنصور ١٣٦هـ، قد تولى الخلافة، وكان قد انتهى من بناء عاصمة الخلافة ١٤٦هـ. وبعدها بثمانى سنوات (أى عام ١٥٤هـ)، بدأت العلاقات العلمية بين العرب والهند بشكل منتظم.

بداية الترجمة من السنسكريتية

لقد اكتملت فكرة ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأخرى إلى العربية، منذ أواسط القرن الأول الهجري، ولكن لأن مركز الخلافة كان فى الشام؛ فقد كانت الغلبة للغات اليونانية والسريانية. بينما حين بسطت الخلافة العباسية سلطانها على العراق، فقد وجدت اللغات الهندية والإيرانية فرصتها فى الكشف عن فنونها. وما أن ذاع صيت الخليفة المأمون، وولعه بالعلوم، حتى وصل إلى بغداد وفد هندى، عام ١٥٤هـ/٧٧١م، وبرفقته كتاب بالسنسكريتية، لأحد حكماء الهند، عن الرياضيات والفلك[1]. فأمر الخليفة بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، بمساعدة

---

(١) البيرونى ــ كتاب الهند – صـ٢٠٨ – لندن.

إبراهيم الفزارى،[1] أحد علماء الرياضيات ببلاط الخلافة[2]. وكان هذا هو أول يوم يعرف فيه العرب تفوق الهنود. وقد استدعى هارون الرشيد أحد حكماء الهنود لعلاجه، وهو الذى أشاد بعظمة الهنود، وتفوقهم بين العرب. ومن بعده، وتحت رعاية البرامكة، ترجم العديد من الكتب السنسكريتية إلى العربية، فى الأدب، والفلك، والطب، والأخلاق. كل هذا ضاعف من شهرة الهنود، وسمعتهم الطيبة.

مكانة الهند عند العرب

لكى نرى منزلة الهند، واحترامها عند العرب، أتلوا عليكم آراء غير واحد من المؤلفين العرب القدامى؛ أولهم الجاحظ، البصرى، العالم المشهور، والأديب والفيلسوف، صاحب التصانيف. وكانت إقامته بالبصرة سبب اتصاله بالهند[3]، توفى عام ٢٥٥هـ، وله رسالة بحث فيها: لمن الغلبة فى الدنيا، السود أم البيض؟ رجح فيها السود، أصحاب البشرة السمراء. وفى هذا يقول:

"وأما الهند، فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب، ولهم الخط الهندى خاصة، ويقدمون فى الطب، ولهم أسرار الطب، وعاج فاحش الأدواء خاصة، ولهم خرط التماثيل، ونحت الصور بالأصباغ، تتخذ فى المحاريب وأشباه ذلك، ولهم الشطرنج؛ وهى أشرف لعبة، وأكثرها تدبيرًا وفطنة.

ولهم السيوف القلعية، وهم ألعب الناس بها، وأحذقهم ضربًا بها، ولهم الرقى النافذة فى السموم والأوجاع، ولهم غناء معجب، ولهم الكنكة؛ وهى وتر واحد يمد على قرعة، فتقوم مقام أوتار العود والصنج، ولهم ضروب الرقص والخفة، ولهم معرفة المناصفة... ولهم خط جامع لحروف اللغات، وخطوط أيضًا كثيرة، ولهم

---

(١) *إبراهيم الفزارى: هو أول من عمل فى الإسلام اصطرلابًا، وله كتاب فى تسطيح الكرة، منه أخذ كل الإسلاميين، وكان ميله إلى علم الفلك، وما يتعلق به، وله تصانيف مذكورة، منها كتاب "القصيدة فى علم النجوم".*

(٢) القفطى ـ أخبار الحكماء – صـ١٧٧ – مصر.

(٣) ابن خلكان – أحوال عمرو بن بحر الجاحظ.

شعر كثير، وخطب طوال، وطب في الفلسفة والأدب، وعنهم أخذ كتاب (كليلة ودمنة)، ولهم رأى ونجدة، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم، ولهم من الرأى الحسن، والأخلاق المحمودة، مثل: الأخلة، والسواك، والاجتباء، والفرق، والخضاب، ومنهم جمال، وملح، واعتدال، وطيب عرق، وإلى نسائهم يضرب الأمثال، ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي؛ الذى لا يعدله عود، ومن عندهم خرج علم الفكر، وما إذا تكلم به على السم، لم يضر، وأصل حساب النجوم من عندهم، أخذه الناس خاصة، وآدم - عليه السلام - إنما هبط من الجنة، فصار ببلادهم.

وخصلة أخرى، أنه لا يوجد فى العبيد أطبخ من السندي، وهو أطبع على طيب الطبخ كله، ومن مفاخرهم، أن الصيارفة لا يؤلون أكيستهم، وبيوت صروفهم إلا السند، وأولاد السند؛ لأنهم وجدوهم أنفذ فى أمور الصرف، وأحفظ وآمن، ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفى ومفاتيحه ابن رومى ولا ابن خراساني. ولقد بلغ من يترك التجار بهم أن صيارفة البصرة، وبنادرة البربهارت (الأدوية التى تجلب من الهند) لما رأوا ما كسب فرج أبو روح السندى لمولاه من المال والأرضين، اشترى كل امرئ منهم غلامًا سنديًا؛ طمعا فيما كسب أبو روح لمولاه"[1] *(رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة، ٢٥٠ـ ٢٥٥).*

أما الثانى، فهو اليعقوبى، رحالة جغرافى، ومؤرخ بغدادى فاضل، ومدقق يروى أنه وافى الهند، وتوفى عام ٢٧٨هـ تقريبًا، وقد كتب فى تاريخه ما يشبه القصة عن الهند، فيقول:

---

(١) رسالة فخر السودان على البيضان - مجموعة رسائل الجاحظ - صـ٨١، طبعة مصر - ١٣٢٤هـ - مصر.

"والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس فى كل حكمة؛ فقولهم فى النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب (السند هند)؛ الذى منه اشتق كل علم من علومه، مما تكلم فيه اليونانيون، والفرس، وغيرهم، وقولهم فى الطب المقدم، ولهم فيه الكتاب الذى يسمى (سرد)، فيه علامات الأدواء، ومعرفة علاجها وأدويتها، وكتاب (شرك)، وكتاب (ندان)،.... ولهم غير ذلك من الكتب فى الطب، ولهم فى المنطق والفلسفة كتب كثيرة، فى أصول العلم "[1].

أما الثالث: فهو أبو زيد السيرافى، الذى عاش أواخر القرن الثالث الهجرى، حيث كتب يقول:

"يطلق على أهل العلم (برهمن) فى الهند، ومن بينهم شعراء يعيشون فى بلاط الملوك، وفيهم العرافون والفلاسفة، ومن يقرأون الطالع والمشعوذون، وغالبيتهم فى قنوج، وهى مدينة كبيرة فى بلاد الجوز" صـــ١٢٧.

وصفوة القول، فإن حسن رعاية الخليفة المنصور، وهارون الرشيد، وسخاء البرامكة وجودهم – كان سببًا فى وصول عشرين من حكماء الهند وعلمائها إلى بغداد. والذين انخرطوا فى مؤسسات الدولة العلمية والطبية، وترجموا إلى العربية العديد من كتب الحساب، والنجوم، والفلك، والطب، والأدب، والأخلاق.

ولكن وا أسفاه! فإن أسماء هؤلاء العلماء الهنود قد تبدلت فى اللهجة العربية، بحيث أصبح نطقها نطقًا صحيحًا أمرًا مستحيلاً، بعد أحد عشر أو اثنا عشر قرنًا من الزمان، ونظن ظنًا أن السبب وراء ذلك هو اتباع معظم هؤلاء العلماء البوذية، وأن أسماء تلك الفترة تختلف عن الأسماء الويدية[2] الحالية، كما أن بعض هذه

---

(١) أحمد بن أبى يعقوب، المعروف بابن واضح الإخبارى، *المتوفى بعد سنة ٢٩٢هـ* – *تاريخ اليعقوبى* – *الجزء الثانى – دار العراق، بيروت – ١٩٥٥م/١٣٧٥هـ – صـ١٠٧ -١٠٨.*

(٢) *الويدية : هو التعبير الرئيسى عن الدين؛ وهو تراث شعبى أسبق من التراث الهندوكي.*

الأسماء لم تكن إلا ألقابًا، وقد تغيرت هذه الأسماء الهندية فى اللغة العربية، وانقلبت رأسًا على عقب؛ مثلما حدث مع الأسماء العربية فى اللغات الأوربية تمامًا.

أسماء الحكماء والأحبار

على أية حال، فإن أسماء الحكماء والأحبار من الهنود، التى وردت فى الكتابات العربية، هى: بهله، منكه، بازيكر (بجـ كر؟)، قليزفل (كلب رائـ كل)، سندباد. وهى أسماء ذكرها الجاحظ (٢٥٥هـ) فى بيانه، وقال: إن يحيى بن خالد البرمكى اجتلبهم من الهند إلى بغداد، وكانوا جميعًا من الأطباء والحكماء[1]. *(الجاحظ، م ٢٥٥هـ، البيان والتبيين، ط١، ج١، بيروت، ١٩٧٩م، ص٧٠)*

وقد ذكر ابن أبى أصيبعة من بين هؤلاء الحكماء: (منكه)، وابن (بهله)، الذى قد يكون أسلم، وسمى صالحًا. وذكر ابن النديم اسمًا آخر، هو ابن (دهن)، وكان هؤلاء الثلاثة من مشاهير الحكماء الأطباء فى بغداد آنئذٍ. وقد ذكر، فى مكان آخر، أسماء العلماء الهنود الذين ترجمت كتبهم إلى العربية، وهم: "باكهـ، راجه، منكه، داهر، انكو، زنكل، اريكل، حبهر، اندى، جبارى"[2]. *ابن النديم – الفهرست – فن الثالث من مق السابعة – ص ٣٧٨*

منكه أو منكا

كتب ابن أبى أصيبعة، فى كتابه (تاريخ الأطباء)، أنه كان بارعًا فى الطب، وماهرًا فى العلاج. ولما مرض هارون الرشيد مرضًا شديدًا، وعجز أطباء بغداد عن علاجه، ذكر أحدهم (منكه) الطبيب؛ فأرسلوا له نفقات السفر، واجتلبوه، فشفى الخليفة بعلاجه، فأجزل الخليفة له العطاء، وكرمه وقربه، ثم عين فى دار الحكمة؛

---

(١) الجاحظ – كتاب البيان – ١ : ٩٢، *تحقيق وشرح: عبد السلام هارون – مصر* .

(٢) ابن النديم – الفهرست – ذكر كتب الطب و النجوم .

لينقل الكتب السنسكريتية إلى العربية[١]. أبمقدورنا أن نقول: إن اسم منكه هو مانكــ؟

صالح بن بهله

كان من حكماء الهند المهرة، وعده ابن أبى أصيبعة فى زمرة الأطباء الهنود البارعين الذين قدموا إلى بغداد، وحين أصيب بأزمة قلبية ابن عم الخليفة هارون الرشيد، فذكر طبيب البلاط المشهور (جبريل يختشيوع)، اليونانى المسيحى، أنه هالك لا محالة. عرض جعفر البرمكى اسم هذا الحكيم الهندى، ونصح بالعلاج عنده، فعالجه الحكيم الهندى بصعوبة[٢].

ابن دهن

كان مديرًا عامًا لبيمارستان البرامكة، وكان أيضًا من نقلة الكتب السنسكريتية إلى العربية[٣] *(ص ٣٧٨)*، وقد حاول (زخاو)، فى مقدمة كتابه (انديا)، تأصيل اسم (دهن)، فذكر أن دهن من كلمة (دهنيا) أو (دهنن)، وسبب اختياره غالبًا التشابه اللفظى بينه وبين كلمة (دهنوتزي)، طبيب الآلهة فى كتاب الهندوك المقدس (منوشاستر)[٤].

هذا، وقد نقل علومًا شتى من السنسكريتية إلى العربية، كالحساب، والنجوم والطب، والفلك، والأخلاق، والقصص، والحكايات الأخلاقية، والسياسية والملك، والمسرحيات.

---

(١) تاريخ الأطباء – الجزء الثانى – صــ٢٣ – مصر ، والفهرست – ابن النديم – صــ٢٤٥.

(٢) تاريخ الأطباء – الجزء الثانى – صــ٣٤ – مصر.

(٣) ابن النديم ــ الفهرست – صــ٢٤٣.

(٤) الترجمة الإنجليزية – المقدمة – صــ٣.

الحساب

لقد أقر العرب، واعترفوا اعترافًا صحيحًا، بنقلهم طريقة كتابة الأرقام الحسابية، من ١ إلى ٩، عن الهنود[١]. ولهذا أطلقوا عليها الأرقام الهندية، وقد أخذها الأوربيون عن العرب، وأسموها الأرقام العربية (Arabic Figures). ولا نعرف على وجه اليقين، متى تعلم العرب هذه الطريقة من الهنود؟ ولكن ثمة اعتقادًا جازمًا بأنه فى عام ١٥٦هـ، حين قدم الحكيم (سدهانت) إلى بلاط المنصور من السند، وهو الذى علم العرب هذه الطريقه. وفى اعتقادى – والكلام للمؤلف – أن كتاب (سدهانت) – والذى تمت ترجمته – يحتوى، فى بابه الثالث عشر، والرابع والعشرين، على نفس الأرقام الحسابية، التى عن طريقها راجت بين العرب.

وكانت الأعداد العربية تكتب بألفاظها فى البداية، ثم أخذت الأرقام تكتب بالحروف الأبجدية، أو ما يعرف بحساب الجمل، مثل اليهود والإغريق، وذلك قبل أن تروج بشكلها العربى المعهود الآن، وذلك للاختصار، ثم انتشرت قاعدة استخراج التواريخ من الحروف الأبجدية.

هذا، ويعد محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٤٩م) أول من صب الأرقام الهندية فى قالبها العربى المعروف. وفى دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، مقال عن هذه الأعداد (المجلد ١٩, صـ ٨٦٧)، فيه أشكال الأعداد الهندية القديمة، والأعداد الأوربية، منقولة عن الكتب والمخطوطات. ومنها يتضح كيف أخذت الأشكال الحسابية الهندية طريقها إلى العرب، ثم قوم شكلها العربى وعدله أحد علماء الفلك فى بلاط الخليفة المأمون بن الرشيد (٧٨٠م – ٨٤٠م). وهكذا،

---

(١) رسائل إخوان الصفا، والتى جمعت فى القرن الرابع – فصل: فى معرفة بداية الحروف، وخلاصة الحساب – بهاء الدين عاملى، طبعة كلكتا – صـ١٦، مع شرحها للمؤلف: عصمت الله. وكشف الظنون – جلبي. ومفتاح السعادة – طه شكرى زاده (علم الحساب). وكتاب الهند – البيرونى – صـ٩٣ – لندن.

وصلت إلى الأندلس، ومنها إلى أوروبا. وهناك أقسام خاصة بالرياضيات، تعرف فى أوروبا باسم (Algorlthim-Algoritems-Algorism)، وهى أشكال معدلة لما وضعه الخوارزمى[١].

وقد أطلق أهل الأندلس على هذه الأرقام الهندية اسم (حساب الغبار)، ولعل السبب الذى جعلهم يطلقون عليها غبارية؛ أن الهندوك كانوا ينثرون الغبار على ألواح الخشب، ويرسمون عليها الأرقام اللازمة لعملية الحساب، كما هو متبع الآن فى مدارس القرى الهندية. والأعداد الأوربية مأخوذة من هذه الأعداد الغبارية.

والدليل على أن هذه الأعداد ليست عربية أن طريقة كتابتها تختلف عن الكتابة العربية؛ فهى تكتب من الشمال إلى اليمين, ولكن العرب يقرأونها من اليمين إلى الشمال[٢]. وقد نقل ابن النديم هذه الأرقام الهندية، تحت عنوان: القلم السندي، وأوضح طريقة كتابتها حتى العدد ألف (١٠٠٠). ويبدو أن هذه الطريقة قد راجت بين العرب على يد العلماء الهنود.

وبعد الخوارزمي، والذى كان فى بداية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي، يأتى على بن أحمد النسوى (٩٨٠م- ١٠٤٠م)، صاحب كتاب (المقنع فى الحساب الهندي)؛ وهو الشخص الثانى من بين المسلمين، الذى أدى دورًا مهمًا فى تطوير علم الحساب الهندى، ثم تلاه – أى كتاب النسوى – العديد من الكتب فى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية – الجزء التاسع عشر – صـ٨٦٧ – العمود الثاني.

(٢) *لقد وردت فى الفهرست، لابن النديم، من اليمين إلى الشمال. أنقلها ابن النديم خطأ، أم أن المؤلف يحاول إثبات صحة نظريته، علمًا بأن العرب أقروا بذلك؟!*

(*) *ورد فى "المنجد فى الأعلام" (٥٧٢) أن للنسوى كتاب "المقنع فى الحساب الهندى "، وكتاب "تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك "لقدرى حافظ طوقان، كما ورد فى "الفهرست" لابن النديم، فق ٧، ف٢، كتاب "اللحت فى الحساب الهندى" لسنان بن الفتح، وآخر للكلوذاتى، وكتاب "الحساب الهندى" لسند بن علي.*

هذا الصدد. وعلى الرغم من أنه قد تم نقل الارتماطيقى اليونانى قبله بكثير، أى فى عصر الخوارزمى[1]، فإن هذا لم يغض من شأن الحساب الهندى ومكانته.

ومن العجيب أن الحساب الهندى قد حاز قبولاً لدى العامة، وقد تعلم أبو على بن سينا (٤٢٨هـ/ ١٠١٥م)، الحكيم والفيلسوف المسلم، الحساب الهندى، فى طفولته، على يد بقال كان ماهرًا فى الحساب: "وأخذ يوجهنى إلى رجل يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند، حتى أتعلمه منه"[2]. *(ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - ج٣ - ط٤ - ١٩٨٧م - ص٣).*

النجوم والفلك

مر آنفًا أنه فى عام (١٥٤هـ/ ٧٧٠م) تقريبًا، اصطحب الوفد القادم من السند إلى بغداد[3]، أحد الحكماء الهنود معه، وكان مع هذا الحكيم كتاب فى الفلك، يسمى فى اللغة السنسكريتية "ابرهسبت سدهانت"، واشتهر فى العربية باسم (السند هند)، أما الكتاب السنسكريتى الثانى، المنقول إلى العربية، فكان (ارجهد)، وبالسنسكريتية (آريه بهت)، وأما الكتاب السنسكريتى الثالث، فكان (اركند) أو (اهرقن)، وإن كان الاسم الأول هو الأكثر شهرة وشيوعًا فى العربية، وأصله فى السنسكريتية هو (كهندا كهديكـ).

---

(١) فى دائرة المعارف الإسلامية، عدد ٢٢، عام ١٩١٦م، صـ٣١٥، معلومات جيدة عن هذا الموضوع باللغة الإنجليزية، فى مقال H.Suter، تحت عنوان الحساب، وبالعربية، فى كتاب محمد بن أحمد الخوارزمى (٣٨١هـ)، "حساب الهند فى مفاتيح العلوم"، وقد فصل القول فى ثلاث صفحات - صـ١٩٣ - طبعة لندن - ١٨٩٥م.

(٢) عيون الأنباء - الجزء الثانى - صـ٢ - مصر.

(٣) صاعد الأندلسى - طبقات الأمم - صـ٤٩ - بيروت.

وفى عام ١٥٤هـ، تم نقل الكتاب الأول (سدهانت)، بواسطة هذا الحكيم الهندى، الذى تتلمذ له اثنان فى بغداد، هما: إبراهيم الفزاري، ويعقوب بن طارق. وقد نقل هذان الاثنان كتاب (سدهانت) إلى العربية بأسلوبهما الخاص.

وبعلم الفلك الهندى، أمكن تقسيم الزمن، الذى يطلق عليه فى السنسكريتية (كلب)، إذ إنهم – أى الهنود – مثل الشعوب الأخرى، يعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة: الشمس، والقمر، وزحل، والمشترى، وغيرها، قد ظهرت فى نقطة اعتدال واحدة، وتحركت فى وقت واحد، كل فى اتجاهه. وهى مستمرة فى مدارها، ثم تجتمع بعد ملايين السنين فى هذه النقطة، وهنا تقوم القيامة (تدمر الدنيا)، ثم تبنى مرة أخرى، وتبدأ الحياة ثانية، بين هاتين النقطتين. فعدد السنين الشمسية يطلق عليه (كلب)، وبحساب (برهمكيت)، فإن (الكَلب) يساوى عشرين وثلاثمائة عام وأربعة بلايين عام، وعليه يمكن حساب الأيام. وقد أطلق العرب على هذا (الكلب) "سنى السند هند"؛ أى (سنه سدهانت)، وعلى الأيام (أيام السند هند).

وحيث إن حساب ملايين السنين وبلايينها كان أمرًا شاقاً، فقد أخذ العالم آريه بهت، أواخر القرن الخامس الميلادى، يسهل هذه العملية إلى الأجزاء من الوحدة الزمنية (كلب)، وأسس عليها نظامًا حسابيًا، أطلق عليه كلمة (جكـ)(1)، أو (مهاجكـ)(*).

وقد أطلق العرب على كتاب (آريه بهت)، الذى يتحدث عن هذه الأصول، اسم (ارجبهر) أو (ارجبهذ)، وكلمة (جكـ) تعنى (سنى ارجبهذ)، وقد أخطأ العرب فهم المعنى السنسكريتى الأصلى (للسند هند) و(ارجبهذ)؛ حيث فهموا أن معنيهما يتطابق مع الأسس نفسها التى وضعها (آريه بهت)؛ ففهموا، خطأ، أن معنى (السند

---

(1) ورد ذكرهما فى (فهرست) ابن النديم (من ٧ فن ٢)، ولم يذكر ابن النديم شيئًا عن تلمذتهما لحكيم هندى، أو غيره ، وذكر أنهما من علماء الفلك والملجمين، وغالبًا ما يذكر ابن النديم الأستاذ و تلاميذه، إن كان له تلاميذ، أو لهم شيوخ.

(*) كلمة "جكـ "تعنى فى الأوردية: عالم أو دنيا، و"مهاجكـ "تعنى: العالم العظيم أو الكبير.

هند)(الدهر الداهر) أى (الزمن اللانهائي)، وأن معنى (ارجهبذ) هو الألف جزء. وقد قام أبو الحسن الأهوازى بنقل هذا الكتاب الأخير إلى العربية.

أما يعقوب بن طارق (١٦١هـ)، فقد تعلم طريقة (اركند) (كهند أو كهنديكـ) من أحد العلماء الهنود، أو ممن قدموا إلى بغداد آنئذٍ. وهو أيضًا أحد كتب (برهمكيت)، إلا أن بعض أصوله أو قواعده تختلف عن (سدهانت). وعن هذه الكتب الثلاثة، شاع (سدهانت) بين أوائل علماء الفلك العرب. ويقال إنه ترجم إلى العربية بعد ذلك (كتاب المجسطي)، لبطليموس اليوناني، كما أقيم مرصد فى عهد الخليفة المأمون، وكثرت الأبحاث فى هذا الميدان.

وعلى الرغم من ذلك، ظل الفلكيون العرب، فترة من الزمن، متأثرين بهذا الكتاب الهندى (سدهانت)، من بغداد حتى الأندلس، وربما الأصح: يختصرونه ويشرحونه، ويصححون أخطاءه ويصوبونه. وظل هذا حالهم حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادي)، أى حتى عهد (البيرونى).

وفى عهد الخليفة (المأمون بن الرشيد)، أعد (الخوارزمى) تقويمًا جمع فيه الأصول الإيرانية، واليونانية، والهندية، ولهذا أطلق على كتابه اسم (السند هند الصغير) [١]، أى (السدهانت الصغير) [٢].

---

(١) *ورد فى (الفهرست) لابن النديم (من ٧، فن ٢)، أن للخوارزمى كتاب (الزيج) الأول والثانى، ويعرفان بالسند هند، لسختان أولى وثانية . وما قال كبيرًا وصغيرًا.*

(٢) *سدهاهند، ارجبهذ، اركند، ورد ذكر كل هذا فى كل من (الفهرست) لابن النديم ، والمسعودى ، والقفطي، و(كتاب الهند) للبيرونى . وكل هذه الكتب أمامى، وقد ألقى العالم الإيطالى سينير كراونلينو محاضرات بالعربية، فى الجامعة المصرية، عام ١٩٠٩-١٩١٠م، وذلك عن إسهامات العرب فى علم الفلك، وهذه المعلومات مأخوذة عن المحاضرات:٢٢،٢١، ٢٣؛ إضافةً إلى كتاب "طبقات الأمم" لصاعد الأندلسى – صـ٥٠. كما أضيفت بعض المعلومات عن البيروني.*

وبهذه الطريقة، قام حسن بن الصباح، وحسن بن الخصيب, وفضل بن حاتم التبريزي، وأحمد بن عبد الله المروزى[1]، والادمي، وعبد الله، وأبو الريحان البيرونى، فى القرن الثالث، والرابع، والخامس الهجرى، بتصحيح وإكمال (سدهانت)، وبذلوا جهدًا كبيرًا، سواء بأبحاثهم الخاصة، أو بإضافة بعض الأصول اليونانية إليه.

وقد وصلت أصول (سدهانت) إلى الأندلس فى القرن الرابع الهجري، ولخص مسلمة بن أحمد المجريطي[٢] (من سكان مدريد)، المتوفى ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، تقويم الخوارزمى (السند هند الصغير)، ثم أعد أبو القاسم أصبغ، المعروف بابن السمح الأندلسى، المتوفى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م، تقويمًا كبيرًا على أصول (السدهانت)، ثم أخذ الناس نتائج جديدة من الأبحاث القائمة على (السدهانت) توسعًا ومحافظةً على الأصل، كما كتب إبراهيم الزرقانى الأندلسى كتابًا باسم (الصفحة الزرقانية)، فى الأسطرلاب.

وعن طريق العرب فى الأندلس، وصل كتاب (سدهانت) إلى اليهود، ثم إلى أوربا. وهكذا استعان إبراهام بن عزرا اليهودى ببعض أصول (السدهانت)، عندما أعد تقويمًا بالعبرية[٢].

---

(١) ورد اسمه فى (الفهرست) (من ٢٧ فن ٢) حبس بن عبدالله المروزى الحاسب،ولم أجد اسم ابن حاتم التبريزى، وعبد الله، والبيرونى؛ لأن زمانهم متأخر عن الفهرست (ربما).

(٢) لا يعرف من النص إذا كان المجريطى قد لخص الأصول الهلاية من كتاب "سدهانت"، أم من المنقولة إلى العربية. فكل ما كُتب عنه؛ هو أنه حكيم رياضى فلكى، ولد بمجريط، ومن آثاره: الرسالة الجامعة، المعاملات في الحساب، غاية الحكيم، الأحجار، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البناني. لمزيد من التفصيل، انظر: معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، تأليف: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربى – ج ١١– لبنان.

(٣) القفطى – صـ١٧٨ – مصر: علمًا بأن ابن عزرا قد ترجم كتاب (الزريج) للتبانى أولاً، وهو شرح كتاب "الزيج " للخوارزمي، ثم ألف كتابًا فى علم الفلك والتنجيم، متأثرًا بالثقافة العربية الإسلامية.

المصطلحات السنسكريتية واللغة العربية

لقد ارتقى علم الفلك العربى مراقى التقدم والتطور، وبلغ بفضل علماء العربية، وأبحاثهم الذاتية، مبلغ الكمال. بيد أن ثمة مصطلحين سنسكريتيين (هنديين) يفصحان عن أخذ العرب علم الفلك عن الهنود؛ إذ بالإضافة إلى "سدهانت"، وغيره من الأسماء، نجد فى علم الفلك العربى القديم مصطلحًا سنسكريتيًّا، ألا وهو "كروجه"، وأصله فى السنسكريتية "كرمجيا"، والذى نحت له فى العربية "الوتر المستوي"، فيما بعد.

أما المصطلح الثانى، فمازال مستعملاً فى علم الرياضيات والمثلثات العربيين حتى الآن، وهو "جيب"، وقد فُهم خطأً أنه مشتق من الكلمة العربية "جيوب"، غير أنه معرب للفظ السنسكريتي "جيوا"، ثم استحدث منه، فيما بعد، مصطلحات جديدة، مثل: "جيب التمام"، "جيوب منكوسة"، "جيوب مبسوطة"، "ومجيب". وهكذا، أخذ هذا اللفظ القالب العربى، حتى إنه لا يشك شاك أنه لفظ غير عربي.

أما آخر الألفاظ فهو كلمة "أوج"، والتى تعنى فى مصطلحات علم الفلك "الأعلى نقطة"؛ فإنها من اللفظ الهندى "أوج"، الذى صار فى العربية "بأوج"، بعد ذلك(١).

ثم ساح هذا اللفظ فى العربية، والفارسية، والأردية، بمعنى " كمال"، مما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذا اللفظ هندي؛ حتى أننا لا نجد له جذرًا فى المعاجم العربية الأصيلة. ومثل ذلك تمامًا، لفظ "جنس"، وهو من مصطلحات علم المنطق فى العربية، وهو معرب عن اللفظ اليونانى "جينس". ولكنه استعمل فى العربية

---

(١) يرى البعض أن أصل هذا اللفظ فارسى، من الكلمة "اوكـ"، كما ذكر الخوارزمى، فى "مفتاح العلوم"، صـ ٢٢١، لندن. وهذا اللفظ موجود فى المعجم الفارسى القديم للطوسى، ولكن يُعتقد أن هذا اللفظ فى الفارسية منقول عن السنسكريتية أيضًا.

بمعانٍ متعددة، مثل: "جنس، ومجانسة، وتجنيس"؛ حيث لا نجد له أثرًا فى العربية القديمة.

وهناك لفظان آخران جديران بالذكر؛ فقد استطاع العلماء الهنود حساب دائرة نصف النهار، من حركات النجوم التى تمر بمنتصف الكرة الأرضية، وكان منتصف الكرة الأرضية ـ فى اعتقادهم ـ جزيرة (لنكا)، التى أطلق عليها العرب (سرنديب)، *(سريلانكا الآن)*، واعتقد الهنود أنها على خط الاستواء. وقد أطلق العرب على النقطة التى يتقاطع فيها خط نصف النهار مع خط الاستواء "قبة الأرض". وشرع جغرافيو الهند يقيسون من خط نصف النهار لهذه الجزيرة طول البلد. وعليه، أطلق جغرافيو العرب الأوائل على "لنكا" "قبة الأرض". وحيث إن الهنود يعتقدون أن خط نصف النهار فى "لنكا"، يمر نفسه بمدينة "أجين" فى (مالوا)، وذلك وفق طول البلد من هذه المدينة "أجين" فى "السدهانت". وقد نطق العرب "أجين" "أزين" ، معتقدين أن "أزين" هى "قبة الأرض"، ثم حذفت النقطة من حرف الزاى بعد ذلك، وأصبحت "أرين". ومن هنا، ظهر مصطلح الأرين؛ بمعنى محل الاعتدال، كما أشار الشريف الجرجانى، الفيلسوف المسلم الشهير، فى كتابه "التعريفات"(١).

وثمة لفظ آخر استخدمه علماء الفلك الأوائل من العرب، ألا وهو "بذماسه"، وهو فى السنسكريتية "ادهـ ماسه"، ومعناه "الشهور القمرية". ويعتقد بعض الناس، خطأً، أن الرياضيات والأعداد العربية منسوبة إلى الهند. ولا غرو أن يقع العالم الإنجليزى "فريدرك روسن" أيضًا فى هذا الخطأ، حين نشر كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمى، عام ١٨٣١م، فى لندن(٢). مع مراعاة أن هذا اللفظ (بذماسه) معرب

---

(١) انظر: المحاضرة المذكورة، صـ ١٥٥ـ ١٦٨، مع الهوامش، ثم انظر: "سواء السبيل"، ومستر ارنلد، تحت كلمة "جيب" و"اوج"، و"تعريفات" الجرجانى، صـ ٧، طبعة مصر، ١٣٠٦هـ.

(٢) الجبر والمقابلة للخوارزمى ـ المقدمة الإنجليزية – صـ ١٩٦ـ ١٩٧، ١٨٣١م – لندن.

عن الكلمة الفارسية "اندازه"، التى أصبحت مصدرًا فى العربية "هندزة وهندسة"(١)، واستخدم بمعنى "الهندسة".

ثم أخطأ المتأخرون من أهل اللغة الفارسية والأردية، ونطقوها "هندسة" بكسر الهاء، وقصدوا بها العدد، أما النطق الصحيح فهو "هندسة" بفتح الهاء، وأطلق اللفظ فى العربية على المهندس، لا من يعرف الحساب والأعداد(٢).

الهنود وبحثان حديثان

لقد نقل العرب مسائل كثيرة فى علم الفلك عن الهنود، من بينها أمران يتطابقان تمام المطابقة مع الأبحاث الحالية؛ حيث برهن (برهمكيت) أن السنة ٣٦٥ يومًا، و٦ ساعات، و١٢ دقيقة، و٩ ثوان. وفى العصر الحديث أيضًا: السنة ٣٦٥ يومًا، و٦ ساعات، و٩ دقائق، و٩.١٣ من الثانية. وكذلك مسألة (حركة الأرض)، فقد قال (آريه بهت) ومناصروه بحركة الأرض، وقد أنكر (برهمكيت) صحة هذه النظرية، التى توصل إليها (آريه بهت)، بينما هى نفس النظرية التى تروج بين الناس فى العصر الحالى.

---

(١) محمد الخوارزمى – مفاتيح العلوم – صـ ٢٠٢ – لندن. وهذا هو نص عبارة الخوارزمي: *"وأما الهندسة فكلمة فارسية معربة، وفى الفارسية اندازة؛ أى المقادير" الذخائر ١١٨ – مفاتيح العلوم – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ٢٠٠٤م – ص ٢٠٢.*

(٢) *أعتقد أن السيد (سليمان الندوى) لم يرجع إلى المعاجم العربية؛ ليرى معنى الهندزة والهندسة، وإن كانت كلمة (مهندس) بمعنى الملم بعلم من العلوم الهندسية، فهو تطور لغوى، أما أصل الكلمة، فمن يقدر القنى والأبنية، وينشئها على أساس، والهندسة علم رياضى يبحث فى الخطوط والأبعاد والسطوح والزوايا والكميات والمقادير، إلى غير ذلك. ونظن ظنًا أن المؤلف يحاول إعلاء بنى جلدته، ويحتال على ذلك بأى شيء، والله أعلم!*

الطب

الفن الثالث الذى أخذه العرب عن الهند هو الطب. وقد نقل عن السريانية واليونانية بعض كتب الطب إلى العربية، فى عصر الدولة الأموية[١]، ثم تطور هذا الأمر تطورًا كبيرًا، فى عصر الدولة العباسية. وكانت البداية – كما ذكرنا آنفًا – حينما استدعى من الهند طبيب، اسمه (منكه) أو (منكا)؛ لعلاج هارون الرشيد، فتحسنت صحة الخليفة على يديه، وهكذا أولت الدولة العباسية اهتمامًا كبيرًا بالطب الهندي. وقد شارك (البرامكة) فى هذا الاهتمام بشكل كبير، فعينوا أحد الأطباء الهنود مشرفًا أعلى لبيمارستانهم[٢]. كما أحضر يحيى بن خالد البرمكى خبيرًا فى الأعشاب الهندية[٣]، وعين أحد الحكماء الهنود فى (بيت الحكمة)؛ لكى يترجم الكتب الطبية السنسكريتية إلى العربية[٤]. وأرسل الخليفة موفق بن العباس شخصًا إلى الهند؛ للبحث عن الأدوية الهندية[*]، فى القرن الثالث الهجري[٥]. وقد ذكر (زخاو) هذه الواقعة، فى مقدمة كتابه (تاريخ الهند)، بيد أننى لم أقع على هذه الواقعة فى أى كتاب من كتب التاريخ العربي، وكل ما رأيته أن ثمة واقعة جاء ذكرها ضمنياً؛ وهى أن الخليفة المعتمد على الله أبو العباس (٢٢٩ ــ ٢٧٩هـ)،

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء – تذكرة ماسرجويه، مختصر الدول، لأبى فرج الملطى – صـ١٩٢ بيروت.

(٢) ابن النديم – الفهرست – صـ٢٤٥.

(٣) أيضًا – صـ٢٤٥.

(٤) أيضًا – صـ٢٤٥.

(*) *هذه القصة ورد ما يماثلها عن كسرى أنوشيروان، وأنه أرسل برزويه المتطبب للبحث عن دواء أو عشب فى الهند، يهب الحياة للموتى؛ ثم بعد بحث وتمحيص، وجد برزويه أن هذا العشب هو كتاب "كليلة ودمنة"، وقد وردت هذه الرواية فى الترجمة اللاتينية المنقولة عن العبرية، بعنوان "ملهج الحياة البشرية" Directurium Vitae Humanae.*

(٥) مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب "الهند "– زخاو – صـ٤٠.

قد أرسل أحمد بن خفى الديلمى – الذى كان ماهرًا فى علم الحساب – إلى الهند فى بعض الأمور(١).

ومعلوم أيضًا أن ثمة علاقات كانت بين الخليفة المعتمد على الله، والهيئات العلمية فى السند، وعندما وقعت حادثة خسوف القمر والزلازل، فى شوال ٢٨٠هـ، بالديبل، عاصمة السند، وراح ضحيتها ١٥٠ ألفًا من المواطنين؛ نقل الكتبة على الفور هذا الخبر إلى بلاط الخلافة(٢).

ترجمة الكتب الطبية

لقد حظى اثنان من كتب الهند فى الطب بشهرة واسعة فى لغة العرب؛ ألا وهما:

١- كتاب (ششرت)، الذى فسره العرب، وعرف باسم (سسرد)، وهو عشرة مقالات، وفيه تفصيل الأمراض؛ أعراضها وعلاجها، والأدوية الخاصة بها. وقد ترجمه "منكه"؛ تلبية لرغبة يحيى بن خالد البرمكى، حتى يكون قاعدة العمل الطبى فى البيمارستان الخاص بالبرامكة.

٢- كتاب (جوكـ)، كتبه أحد الحكماء الهنود المهرة فى الطب، وقد نقل هذا الكتاب أولاً إلى الفارسية، ثم نقله عبد الله بن على الفارسى إلى العربية(٣).

---

(١) سوانح حسين بن منصور حلاج – آز طبقات سن باكويه شيرازى مرتين Louis Massignon – باريس – ١٩١٤م – صـ٤٤.

(٢) السيوطى – تاريخ الخلفاء – صـ٣٨٠ – كلكتا. *وهذا هو نص عبارة السيوطي: "وفى أيامه، دخل الزنج البصرة وأعمالها وأخربوها... ثم أعقبه هزات وزلازل، فمات تحت الردم آلاف من الناس، واستمر إلى سنة..... وذكر الصولى أنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف آدمي" السيوطى – ٩١١هـ – تاريخ الخلفاء – تحقيق: عبد القادر عطا – ط٣ ، بيروت – ص ٣١٢.*

(٣) ابن النديم – صـ٣٠٣.

٣- وثمة كتاب ثالث، اسمه (سند ستاق) - كما ورد عن ابن النديم - وعند اليعقوبى اسمه (سند هشان)، وفى نسخة أخرى من هذا الكتاب (سند هستان)، ولعل أصله السنسكريتى هو (سند هستان) أو (سنديسن)، وذكر ابن النديم أن معناه فى العربية (صفوة النجح)، وقال اليعقوبى (صورة النجح). ونعتقد أن الصحيح ما ورد عند اليعقوبي. وعلى أية حال، فقد ترجمه ابن دهن، المسئول الأول فى بيمارستان بغداد[1].

٤ - ذكر اليعقوبى أن الكتاب الرابع هو (ندان)، ولم يرد عند ابن النديم شيئًا عنه، وفيه إيضاح أربعمائة مرض، وأربعة أمراض، دون ذكر لعلاجها[2]. (*اليعقوبى - م ٢٩٢هـ - تاريخ اليعقوبى - ج١ - بيروت - ١٩٥٥م - ص١٠٨*).

٥ - كما ترجم كتاب آخر، فيه ذكر الأسماء المختلفة للأعشاب، وفيه عشرات الأسماء لعشب واحد[*]. وقد نقله الحكيم (منكه) لسليمان بن إسحاق[3].

٦ - وآخر فيه تفصيل لأدوية أطباء الهند واليونان، والتغيرات التى تنشأ نتيجة تقسيم السنة إلى فصول[4].

٧- وقد ذكر ابن النديم كتابًا آخر فى الطب الهندى، اسمه (استانكر)، ترجمه ابن دهن.

٨ - وتحت اسم (نوكشنل)، أحد حكماء الهند، يرد كتابان: فى أحدهما ذكر مائة داء، ومائة دواء، وفى الثانى، توهم الأمراض وعللها.

---

(١) ابن النديم - صـ٣٠٣ ، واليعقوبى - الجزء الأول - صـ١٠٥.

(٢) اليعقوبى - الجزء الأول - صـ١٠٥.

(*) *ورد عند ابن النديم كتاب "أسماء عقاقير الهند".*

(٣) ابن النديم - صـ٣٠٣، واليعقوبى - الجزء الأول - صـ١٠٥.

(٤) اليعقوبى - الجزء الأول - صـ١٠٥.

٩- ترجمة كتاب حكيمة هندية، اسمها (روسا)، فى علاج الأمراض الخاصة بالنساء.

١٠- وكتاب آخر فى علاج الحبالى.

١١- وكتاب مختصر عن الأعشاب، وكتب فى بيان السكر[١].

وقد كتب المسعودى أحد كتب الطب؛ فقال: لقد كتب (الراجا كورش) كتابًا ضخمًا فى الطب، ذكر فيه معرفة أسباب الأمراض، والدواء والعلاج، كما ذكر وصفًا لشكل الأعشاب وصورها[٢]. *المسعودى - ج١ - ص ٨٢*

١٢- وقد ذكر ابن النديم اسم كتاب آخر، فى بيان الأشربة[*]، وقد نسبه إلى حكيم اسمه (انتري). وعند ابن النديم يرد اسم عالم آخر، هو (ساورى)[٣]، وقد يكون اسمه الأصلى (سيتاورمن)، الذى ذكر البيرونى كتابه باسم (ستيا)[٤].

وفضلاً عن هذه الكتب، تم ذكر لبعض الآثار الهندية والسنسكريتية، الموجودة فى الطب العربى حتى الآن. ولكننا لن نذكر تلك الآثار، التى كانت فى ظل الحكم الإسلامى للهند؛ إذ كان لها بحث مستقل. وسيقتصر حديثنا عن الآثار التى وقعت فى الطب العربى، حتى القرن الرابع الهجري. وسنبدأ قولنا بالعقاقير الهندية، التى جلبها العرب؛ إذ أرسل الخلفاء (البرامكة) رجالاً للبحث عنها. والكثير من أسماء هذه العقاقير ليس هنديًا من حيث المنشأ فقط، وإنما هو هندى من ناحية اللغة أيضًا؛ إذ على الأقل، هناك عقاران منسوبان إلى الهند، قد راجا بين

(١) الكتب السبعة المذكورة - جاءت فى كتاب ابن النديم - صـــ٣٠٣ ،ملحوظة: ذكر ابن النديم اثنى عشر كتابًا، لا سبعة فقط.

(٢) المسعودى - المجلد الأول - صـــ١٦٢ - باريس.

(*) الكتاب تحت رقم ١١، عند ابن النديم، وهو كتاب "رأى الهندى فى أجناس الحيات وسمومها".

(٣) ابن النديم - صـــ٣٠٥.

(٤) مقدمة كتاب زخاو "انديا" - صـــ٣٣.

العرب، إبان عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهما: القسط الهندى[١]، والزنجبيل (زرنجابيرا). وقد ورد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم. وقد سبق أن أوردنا أسماء بعض هذه العقاقير، فى الباب الخاص بالعلاقات التجارية.

وفى العربية لفظان: أحدهما اسم عقار، والآخر اسم غذاء؛ وهذا أمر عجيب جداً، إذ نجد اسم العقار (اطريفل)، الذى طبقت شهرته الآفاق، وراج على لسان كل مريض وطبيب.

وقد كتب محمد الخوارزمى، فى القرن الرابع الهجرى: "إن هذا اللفظ من الكلمة الهندية ترى ابهل(ترى بهل)، وهو ثلاثة أخلاط: أهليلج، أصفر، بليلج "[٢]. *(الخوارزمى، ص ١٧٦)*.

وهناك نوع آخر من العقاقير، اسمه (ابنجات)، ويقول الخوارزمي: "الآنبه (مانجو) هى ثمرة بالهند، ويعد عن طريق خلط الليمون والهليلة، وغالبًا ما يطلق عليه (كرانبه)؛ أى: مخلول أو مربى المانجو". والأشد عجبًا من هذا كله كلمة (بهطّه)، التى فسرها الخوارزمى بقوله: "البهطة، وهى كلمة سندية، هى الأرز، يطبخ باللبن والسمن. إنه نوع من غذاء المرضى، يعد عن طريق طهى الأرز باللبن والسمن، والكلمة سندية "[٣] *(ص ١٦٧)*.

والآن، عرفت أن الأرز باللبن، أى المهلبية الهندية، أصبحت عند العرب غذاءً لينًا خفيفًا للمرضى. والآن يعرف على أنه كهير (أرز باللبن) أو (فرنى).

البيطره: نقل إلى العربية كتاب الحكيم الهندى شاناق (جانكــ)، فى علاج الدواب[٤].

---

(١) صحيح البخارى – الجزء الثانى – صـــ٨٤٩ – كتاب المرضى.

(٢) الخوارزمى – مفاتيح العلوم – صـــ١٨٦.

(٣) الخوارزمى – مفاتيح العلوم – صـــ١٨٦.

(٤) الخوارزمى – مفاتيح العلوم – صـــ١٧٧.

النجوم والتنجيم – والفأل والزجر

ومما هو معلوم للكافة، ارتباط هذه العلوم بالهند؛ إذ انتشرت هذه العلوم منذ تولى الخلافة (المنصور)، الخليفة العباسى الثانى، عام ١٤٧هـ؛ فقد شغف المنصور بهذه العلوم شغفًا كبيرًا، وعندما أنشأ مدينة بغداد، أعدها، وما حوت، وفق حساب المنجمين. وكان المنجمون الإيرانيون يسيطرون على بلاط الخليفة، فى البداية، ثم رسخت أقدام المنجمين الهنود، فيما بعد.

وفى عهد (المنصور)، ترجمت الكتب الهندية الخاصة بهذا الفن، وكان (كنكه) من بين المنجمين الهنود المشهورين، وقد كتب ابن أبى أصيبعة: "حكيم بارع من متقدمى حكماء الهند وأكابرهم، وله نظرة فى صناعة الطب، وقوى الأدوية. وقال أبو معشر، جعفر بن محمد بن عمر البلخى، فى كتاب الألوف: إن كنكة هو المقدم فى علم النجوم، عند جميع العلماء من الهند فى سالف الدهر، وكان من أعلم الناس بهيئة العالم، وتركيب الأفلاك، وحركات النجوم"[(١)].

ويرى (زخاو) أن أصل هذا الاسم (كنكنايا)، وهو اسم أحد أطباء الهند المعدودين، وكان مرجعًا فى علم العقاقير الهندية[(٢)].

وقد ذكر له ابن النديم أربعة كتب[(٣)]:

١- كتاب: النمودار فى الأعمار.

٢- كتاب: أسرار المواليد.

٣- كتاب: القرانات الكبير.

٤- كتاب: القرانات الصغير.

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء – الجزء الثانى – صـ٣٣ – مصر .

(٢) مقدمة كتاب "انديا" – صـ٣٢.

(٣) مقدمة كتاب "انديا" – صـ٢٧٠.

وذكر ابن أبى أصيبعة[1] أنه كتاب فى الطب، ولكن ابن النديم ذكره فى كتب المنجمين، وقد يكون فى الفنين (الطب والتنجيم)؛ إذ إن أحوال النجوم كان لها شأن كبير فى الطب، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة كتابين آخرين:

٥- كتاب: التوهم.

٦- كتاب: فى أحداث العالم والدور فى القران. وهو المؤلف الذى نقل أبو معشر البلخى المنجم(٢٧٢هـ/٨٨٦م)، أنه (كنكا) من أكابر علماء الهند فى التنجيم، ومن متقدمى حكمائها. *(ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ج٣ - ط٤ - بيروت ١٩٨٧م - ص ٤٩).*

وقد كتب عطارد بن محمد المنجم (القرن الثانى الهجرى تقريباً) كتابًا فى التنجيم الهندي[2]. كما ذكر ابن النديم - فضلاً عن كنكه - أسماء ثلاثة من المنجمين الهنود[3]:

١- جودر الهندى، وله كتاب المواليد.

٢- نهق الهندى (نهكـ أو ناهكـ)، وله من الكتب (أسرار المسائل)، وقد نقل إلى العربية كتابًا هنديًا عن خطوط الكف، والنظر فى اليد[4]، ثم كتابًا آخر (زجر الهند)، عن الطالع الهندي[5].

٣- صنجهل الهندى (سنكهل)، وله كتاب: المواليد الكبير، واسم (سنكهل) قد ذكره البيرونى أيضًا، فى حديثه عن النجوم[6].

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - الجزء الثانى - صـ٣٣ - مصر.

(٢) ابن النديم - صـ٢٢٨ : فى إحدى نسخ الفهرست، أنه فسر كتاب الهندى.

(٣) ابن النديم صـ٢٧١.

(٤) ابن النديم صـ٣١٤.

(٥) ابن النديم صـ ٣١٤.

(٦) كتاب الهند صـ٧٦.

علم الحيات

إن الهنود مشهورون فى معرفة الحيات، وأنواعها، وتعاويذها، وتمائمها، ورقاها، وهي عندهم تعرف باسم (سروب وديا)، أى (علم الحيات). وقد تم ترجمة كتاب السيد (رائــ)، أحد علماء الهند فى هذا الفن، وفيه شرح لأنواع الحيات، وسمومها[1]. وقد ورد اسم كتاب آخر للهند فى هذا الفن[2]. *ج٣ - ص ٥٠*

علم السموم

لقد نالت الهند فى هذا الفن شهرة واسعة، وقد ورد فى كتاب (آثار البلاد الباقية)، للقزوينى، اسم العشب (بيش)[*]، وذلك فى معرض حديثه عن الهند. كما ذكر قصة عجيبة، عن موت أحد الملوك بواسطة هذا العشب؛ حدثت تحت غطاء الصداقة. وكانت معرفة (علم السمومات) ضرورية للملوك؛ من أجل سلامتهم، والحفاظ على أرواحهم.

وكتاب العالم شاناق (جانكــ)، فى تدبير الحرب (بالعربية)، والمذكور آنفاً، آخر أبوابه عن الطعام والسم. ويبدو أن ثمة كتابًا آخر سواه، خاص ببيان أنواع السموم، وكان معروفًا فى العربية، حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادى)؛ إذ إن ابن أبى أصيبعة (٦٦٨هــ/١٢٧٠م)، قد وصف هذا الكتاب وصفًا كاملاً، فقال: "ولشاناق من الكتب "كتاب السموم"، خمس مقالات، فسره من اللسان الهندى إلى اللسان الفارسى (منكة) الهندي، وكان المتولى لنقله بالخط الفارسى رجل يعرف بأبى حاتم البلخى، فسره ليحيى بن خالد بن برمك، ثم نقل للمأمون، على يد العباس بن سعيد الجوهرى، مولاه..."[3]. *(ج٣، ص١٥١)*.

---

(١) ابن النديم صــ٣٠٣.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - صــ٣٣ - مصر.

(*) *لفظ (بيش) هذا هو (بش) بالهندية؛ ومعناه (السم).*

(٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - صــ٣٣.

وفى كتاب (الفهرست)، لابن النديم، ورد ذكر كتاب آخر فى مجال السموم، مجهول المؤلف، مترجم من الهندية إلى العربية[١].

الموسيقى

لقد مر بنا آنفاً، إشادة الجاحظ (٢٥٥هـ) بموسيقى الهند، وخاصة (الربابة)، الآلة الهندية ذات الوتر الواحد. وليس فى مؤلفات بغداد أى ذكر لكتاب عن الموسيقى الهندية. لكن العالم، والمؤرخ، والقاضى، صاعد الأندلسى (٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، كتب يقول: "ومما وصل إلينا من علومهم فى الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية "نافر"، "وتفسيره: "ثمار الحكمة، فيه أصول اللحون، وجوامع تأليف النغم"[٢]. ص ١٤

وليس مستبعداً أن يكون هذا الاسم من الفارسية (نومبر)، التى تعنى (الثمرة الطازجة)، ثم نقل هذا الكتاب من الفارسية إلى العربية. لكن صديقى الهندوكى، المنسوب إلى (نافر)، يقول: قد يكون من الكلمة السنسكريتية (ناو)، التى تعنى (صوت).

المهابهارتا

هناك كتاب فارسى، فى تاريخ الهند القديم، يعرف بـ (مجمل التواريخ)، موجود فى مكتبة باريس، يحتوى على الكثير من قصص (المهابهارت). وقد ورد فى مقدمة الكتاب، أن أبا صالح بن شعيب قد نقله من اللغة الهندية (السنسكريتية) إلى العربية، ثم ترجم مرة أخرى، على يد أبى الحسن على الجبلي، الذى كان أميناً لمكتبة أحد أمراء الديالمة، عام ٤١٧هـ، وقد لخصه (اليت) إلى حد ما[٣].

---

(١) ابن النديم – الفهرست – صـ٣١٧.

(٢) الصاعد الأندلسى – طبقات الأمم – صـ١٤ – بيروت.

(٣) اليت – تاريخ الهند – المجلد الأول – صـ١٠٠.

السياسة، الحرب، الإمارة

يوجد، فى هذا المجال، كتابان لعالمين من حكماء الهند، قد تم نقلهما من السنسكريتية أو(البالي)[*] إلى العربية؛ أحدهما يسمى (شاناق)، والثانى (باكهـ) أو (باجهـ)، وربما كان اسم الأول (جانكـ)، والثانى (وياكهـ). ومضمون الكتاب الأول (جانك): تدبير الحرب، وما ينبغي على الملك أن يتخذ من الرجال، وفى أمر الأساورة، والطعام والسم[١]. أما (باجهر) فهو فى فراسات السيوف، ونعتها وصفاتها، وسومها وعلاماتها[٢].

كما ترجم كتاب آخر من السنسكريتية إلى العربية، يعرف باسم (آداب الملوك)، ترجمه: أبو صالح بن شعيب، ولم يعرف زمن تأليفه، ولا تتوفر لنا حاليًا إلا ترجمته الفارسية، التى قام بها: أبو الحسن بن جبلى، عام ٤١٧هـ[٣].

الكيمياء

أصل صناعة الكمياء القديمة، فثمة ذكر لترجمة أحد كتب علماء الهند فى هذا الفن، عند ابن النديم[٤]. وعنده أيضًا كتاب (إلى خاطف)، المنسوب إلى حكيم هندى[٥]، وإن كان اسمه محل شك كبير.

(*) *البالى: إحدى لهجات اللغة السنسكريتية، التى استخدمت فى العصر البوذى، القرن الخامس قبل الميلاد.*

(١) ابن النديم – صـ٣١٥.

(٢) ابن النديم – صـ٣١٥.

(٣) اليت – المجلد الأول – صـ١١٢.

(٤) ابن النديم – صـ٣٥٣. *ورد ذكر أحد الفلاسفة الذين تكلموا فى الصنعة (الكيمياء)، باسم: خاطف الهندى الإقرلجى فى رواية، وفى أخرى: خاطف الهنلى الأمونجي(المقالة العاشرة). كما أننى وجدت من كتب جابر بن حيان، كتاب (إلى خاطف)، لا كتاب (الخاطف).*

(٥) ابن النديم – صـ٣٥٩.

حدود المنطق

ورد فى كتاب (الفهرست)، لابن النديم، ذكر أحد الكتب الهندية، المنقول إلى العربية، هكذا: (كتاب حدود منطق الهند)(١).

غير أن اليعقوبى، الذى كان متقدمًا على ابن النديم بمائة عام، قد ذكر هذا الكتاب ضمن كتب المنطق والفلسفة، باسم "طوفانى علم حدود المنطق"(٢).

فما المراد بالمنطق هنا؟ المعنى الاصطلاحى، أم المعنى اللغوى؟ أم أنه كتاب حكايات؟ أم فى الأخلاق والأدب؟ أم المقصود الإخبار عن الحدود التى ينبغى على الإنسان اتباعها، أثناء الحديث؟ بمعنى: متى يتحدث؟ ومتى لا يتحدث؟ وكيف يتكلم؟ وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب، تحت عنوان (أسماء كتب الهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث)، فيتضح من هذا، أن الكتاب ليس من المنطق فى شيء.

المعانى والبيان

كتب الجاحظ (٢٥٥هـ)، فى كتابه (البيان والتبيين):

"قال معمر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندى، أيام اجتلب يحيىَ بن خالد أطباء الهند؛ مثل: منكة، وباريكر، وقلبرقل، وسندباذ، وفلان، وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها"(٣). ج١- ص٧٠. وقد لخص الجاحظ هذه الرسالة فى صفحة، وضح فيها: ما أوصاف الخطيب، وما المقام والمقال لخطابته؟

---

(١) ابن النديم – صـ٣٠٥. إن كتاب "حدود منطق الهند" من كتب الهند فى الخرافات (المقالة الثامنة ـ١)، لا فى علم المنطق المعروف.

(٢) اليعقوبى – صـ١٠٥.

(٣) الجاحظ – البيان والتبيين – الجزء الأول – صـ٤٠ – مصر.

الرقى والشعوذة والسحر

أحد الفنون الهندية القديمة المشهورة. فأينما تولي وجهك شطر الكتب العربية، تجد ذكرًا لخصائص الهند. وسوف تجد، بشكل خاص، ذكرًا للسحرة والمشعوذين. يقول ابن النديم: (وللهند اعتقاد فى ذلك، وأفعال عجيبة)، ثم يقول أيضًا: (وللهند خاصة علم التوهم، ولها فى ذلك كتب، وقد نقل بعضها إلى العربية). ولعل المقصود بالتوهم هنا، ما يعرف اليوم بالتنويم المغناطيسى (أو السحر)(١). وقد كتب اليعقوبى فى معناه ما يلي: (وأن الطبيعة تتصرف إلى ما تتوهمه، فما توهمت أنه ينفعها نفع، وإن كان ضارًا)(٢)، وكتب أن مصدر هذا العلم ملك اسمه (كيهن). *(ج١ – ص ١٠٠)*.

ويذكر ابن النديم واحدًا ممن لعب بالشعبذة، والطلسمات، والتيرنجات، لم يستطع المحرر أن يقرأ اسمه، فسطر خطًا وتركه. ومن الواضح أنه (سلسلة الهندى)، ثم قال: إن مذهبه فى التيرنجات، والشعوذة، والسحر، مذهب الهند، وله كتاب، سلك فيه مسلك أصحاب التوهم(٣).

الأسمار والخرافات

فى هذا الفن، نقلت بعض الكتب الهندية إلى العربية، ومنها كتابان باسم (كتاب سندباد الحكيم)، وهو نسختان: صغيرة، وكبيرة. ويعتقد البعض أنه من تأليف الفرس، بينما يقول ابن النديم: "والغالب، والأقرب إلى الحق، أن يكون الهند صنعته". وقد يكون هذا الكتاب، مثل غيره من الكتب، ترجم إلى الفارسية أولاً، ثم نقل بعد ذلك إلى العربية من الفارسية، وعليه، يخيل للناس أنه فارسي.

---

(١) ابن النديم – صـــ٣٠٩.

(٢) اليعقوبى – الجزء الأول – صـــ١٠٠.

(٣) ابن النديم – الفهرست – صـــ٣١٢.

وفى (ألف ليلة وليلة) قصتان لسندباد: سندباد البحري، وسندباد البري، وفيهما تاجر يسمى (سندباد)، يسافر فى البحر، وذكر لوقائع غريبة وعجيبة، فى الرحلة البرية. ومن لفظ سندباد، شك البعض[١] أن تكون قصته نفس القصة الهندية، لكن ذلك ليس صحيحًا؛ فأولاً: كان سندباد حكيمًا[٢]، بينما فى (ألف ليلة وليلة) تاجرًا؛ وثانيًا: فإن قصة رحلة السندباد، فى (ألف ليلة وليلة)، لا تتوافق إطلاقًا مع ذكاء السندباد وأحواله. وقد ذكر المسعودى[٣] أجزاء هذه القصة، هكذا: "سبعة وزراء، وكاهن، وولد، وقصة أميرة "، وهذا لا يتطابق مع سندباد الوارد فى (ألف ليلة وليلة).

وفضلاً عن هذا، فثمة بعض القصص الهندية، نقلها العرب، ومن بينها قصة (ديبكـ هندى)، فى الرجل والمرأة، وقصة هبوط آدم – عليه السلام[٤]. ونكاد لا نعرف إلى أى أسطورة من الأساطير تشير هذه القصة. وهناك قصة أخرى عن ملك الهند؛ فيها تفصيل عن القتال والسياحة. وأخرى عن هنديين: أحدهما جواد، والآخر بخيل، والاحتجاج بينهما، وقضاء ملك الهند فى ذلك[٥].

وهناك كتاب آخر باسم (نرياجرتر) "مكر النساء"، وقد ترجم إلى العربية، ومؤلفه راجاكوش[٦]. وكتاب آخر بعنوان (علم الهند) "حكم الهند"، وقد ترجم هذا الكتاب نثرًا، ثم نقل إلى الشعر[٧]. حيث نقله أبان اللاحقى نظمًا، ثم إننا نجد فى (رسائل إخوان الصفا) العديد من القصص والحكايات الهندية، مبثوثة بين ثناياها.

---

(١) رسائل شبلى – صـ٢٦٣ – الطبعة الأولى – مقالة التراجم.

(٢) الفهرست – صـ٣٠٥ – سطر ٢ ، ٢٠ ، واليعقوبى – الجزء الأول – صـ١٠٥.

(٣) المسعودى – مروج الذهب – الجزء الأول – صـ١٦٤ – لندن. *وهذا هو نص المسعودى: "وكان فى مملكته وعصره سندباد، دون له كتاب الوزراء السبعة، والمعلم، والغلام، وامرأة الملك" ج١ – ص٨٢.*

(٤) ابن النديم – الفهرست – صـ٣٠٥.

(٥) الفهرست – ابن النديم – صـ٣٠٥. *لم يشر ابن النديم إلى أن هاتين القصتين نقلتا إلى العربية.*

(٦) تاريخ اليعقوبى – الجزء الأول – صـ١٠٥.

(٧) ابن النديم – صـ١١٩، وغالبًا هو كتاب "كليلة ودمنة"، الذى سيرد ذكره.

الآداب والحكم

كان منهج الحكماء الأوائل هو شرح الآداب والحكم والمعارف، فى شكل قصص وحكايات، تجرى على لسان الحيوانات والطير، وفى السنسكريتية كتاب خاص، نال شهرة واسعة فى هذا المجال، ألا وهو (كليلة ودمنة). ووفقًا لما قاله البيرونى، فإن اسمه فى السنسكريتية (بنج تنتر)؛ أى: الأسفار الخمسة.

وقد ترجم هذا الكتاب من السنسكريتية إلى الفارسية قبل الإسلام، فى عصر الساسانين، ثم نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية، أواسط القرن الثانى الهجري، وكانت ترجمته أهم الترجمات، وواسطة نقله إلى سائر اللغات الحية. وقد ذاع صيتها، فقدرها الحكام والأمراء، وطبقت شهرتها الآفاق، وظل ينقل من العربية إلى الفارسية، ومن الفارسية إلى العربية، ومن النظم إلى النثر، ومن النثر إلى النظم، وحاز النقلة قصب السبق، وأخذوا العطايا من الخلفاء والوزراء؛ إذ فى أواخر القرن الثانى الهجري، وعندما قام الشاعر العربى ابان اللاحقى بنظمه إلى العربية لجعفر البرمكى (وزير هارون الرشيد)، أجازه بمائة ألف درهم[1]. وقد نقل من العربية إلى سائر لغات الدنيا؛ إذ لا توجد لغة من اللغات الحية إلا وترجم إليها. وإن نقل هذا الكتاب، ومعارضته أو محاكاته، ليشكل تاريخًا مستقلاً.

وقد ألقى الدكتور سيد على بلجرامى محاضرة تفصيلية، عام ١٨٩١م، بالأردية، عن هذا الكتاب، فى مؤتمر التعليم الإسلامى، الذى أقيم فى مدينة (على جره). وهناك مقال آخر لكاتب هذه السطور عن هذا الكتاب، منشور فى مجلة (على جره) الشهرية، وربما يكون قد نشر عام ١٩٠٥م، أو قبل هذا التاريخ، أو بعده بعام ونصف.

وواضع هذا الكتاب هو (بيدبا الحكيم)، كتبه للملك (دبشليم)، فيه كل ما يحتاج إليه الناس فى معاملاتهم، عن طريق الحكايات والقصص، والنصح على

---

(١) جهشيارى – كتاب الوزراء والكتاب ـ طبعة فيينا (النمسا) – عام ١٩٢٦م – صـ٢٥٩.

ألسنة الحيوانات. وكما هو معلوم، فإن (دبشليم) الذى ورد اسمه، كان حاكمًا للكجرات. إذ فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، كتب ابن حوقل، الرحالة العربى، عن حاكم الكجرات (ولبهــ رائــ)، فقال: "هو بلهرا، صاحب كتاب الأمثال" *(صـــ٤٢٠)* [١].

كما ذكر اليعقوبى أنه فى عهد الملك (دبشليم)، كتب الحكيم (بيدبا) هذا الكتاب[٢]. وفى كتاب (تاريخ فرشته)، نجد أن لقب حاكم الكجرات المعزول، أثناء حملة السلطان محمود على الكجرات، هو (دبشليم).

خطأ البروفيسير زخاو

وذكره البروفيسير (زخاو)، فى مقدمة كتابه (انديا) (الهند)، باعتباره كتابًا فى الحكمة؛ نقلاً عن ابن النديم. وذكر أن (بيدبا) فى الأصل هو (ويد وياس)، مؤسس الويدانت (كتاب الهندوك المقدس). وعليه، فإن كتاب (بيدبا) فى فن الحكمة هو (الويدانت). ومن ثم، توصل إلى نتيجة أخرى، ألا وهى أن فلسفة (وحدة الوجود) عرفها المسلمون من خلال ترجمة (ويدانت) لويداس[٣]. ونحن لا ننكر أثر الويدانت على المسلمين، فيما بعد، وإنما ننكر أن يكون المسلمون والعرب لهم أدنى معرفة بالويدانت، فى هذا العهد القديم. وإن الأثر فى وحدة الوجود عند المتصوفة المسلمين الأوائل، كان عن طريق الفلسفة الأفلاطونية المحدثة فى الأسكندرية، ولا مجال للبحث هنا عن هذه القضية. وغايتنا هى إزالة هذا اللبس، عند هذا المستشرق الفاضل، مما ورد فى كتاب ابن النديم. إذ إن اللغة العربية تطلق كلمة (حكمة) على ما يمت إلى أعمال العقل والنصح، عن طريق التمثيل والمعرفة والفطنة، وإن المراد بكتاب (بيدبا)، هو (كليلة ودمنة)، للحكيم (بيدبا)، كما ورد فى مقدمة

---

(١) ابن حوقل ــ سفرنامه – صــ٢٢٧.

(٢) اليعقوبى – المجلد الأول.

(٣) مقدمة انديا "الهند" – صــ٣٣.

الترجمة الفارسية(١)، ويدور موضوعه حول تعليم الحكمة والفطنة، عن طريق القصص والحكايات، لهذا أدرجه ابن النديم ضمن كتب الخرافات (القصص والحكايات)، باسم (كتاب الحكمة لبيدبا)، ولم يدرجه ضمن كتب الفلسفــة.

على أية حال، فهو أهم كتاب أنتجته العقلية الهندية. وعن طريق الترجمة العربية، تم نشره فى جميع أنحاء العالم. ويذكر البيرونى أن عبد الله ابن المقفع كان من أتباع المذهب الجومانى (إحدى الفرق المجوسية)، وقد حرف أصل الكتاب؛ طبقًا لمعتقداته وأفكاره. ويضيف: كان بودى أن أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تتر) (الأسفار الخمسة)، وهو المعروف بكتاب (كليلة ودمنة). ويبدو أن البيرونى لم تتحقق له هذه الأمنية. وهذا الكتاب مشهور فى العربية، وصار جزءًا من مناهج تعليم الناشئة هذه الأيام.

أما الكتاب الثانى، فهو (بوداسف وبلوهر) (٢)، وإن كانت شهرته أقل من كتاب (كليلة ودمنة)، لكنه يفوقه أهمية وعلواً. وقد ذكره ابن النديم، ضمن كتاب

---

(١) اليعقوبى – المجلد الأول – صـــ٩٧.

(٢) *عرف هذا الكتاب فى العالم الإسلامى باسم "بلوهر وبوذاسف". الفهرست، لابن النديم – ٣: ١٨٦، ٤: ١٣٢ (من ٣ من ٢، من ٤ من ٢، من ٨ من١). وفى العالم المسيحى باسم "برلعام ويوشافاط"، ويشير هذان الاسمان إلى (بوذا) نفسه بودهستفه، مستقبلاً بوذا (Bodhistauve – Buddha)، ثم صار فى البهلوية (بوسساف) Budasaph، وفى العربية (يوسساف)Vodasaph، وفى اليونانية يوآسف Uoeasaph (آصف أو يوآصف)، ثم أصبح أخيرًا (يوسافاط) Uasaphat، بتأثير الكتاب المقدس.*

والاسم الثانى Bagharan (اليد)، أصبح فى البهلوية Balhaver، وفى العربية Balauhar "بلوهر"، وفى السريانية Barlaha "برلاها"، ثم أصبح Barlaam، بتأثير الكتاب المقدس: نقلاً عن المقامة بين العربية والعبرية، رسالة دكتوراة: د/ مناع عبد المحسن – كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر – صـــ١٠٥، ١٠٨.

الحكايات الهندية التى ترجمت إلى العربية(*). وإن المقصود بـ(ببوذاسف) هو (بوذا)؛ إذ فى الفارسية القديمة، كانت الدال تكتب ذالاً، فصار (بوذاسف)، بدلاً من (بوداسف). أما المقطع الأخير (سف)، فهو (ستو)، كما يقول زخاو: فكلمة (بدهى ستو) صارت (بوذاسف)، حيث تنطق الواو الأجنبية فاءً فى العربية أحيانًا(**).

ويعتقد (زخاو) أن أصل (بلوهر) هو (بروهيتر)، ومعناه (أستاذ أو مرشد). وفى هذا الكتاب، ذكر حياة (بوذا)، وزهده فى الدنيا، من خلال حادثة عرضية. وسماع أحد نساك (سريلانكا) بخبره، وإتيانه إليه فى زى تاجر، والحوار بين الأستاذ والتلميذ، على هيئة سؤال وجواب، عن طريق الحكاية، وضرب الأمثال حول أسرار الدنيا، والكائنات المعقدة، وقد راج هذا الكتاب، وشاع أمره فى لغات الدنيا بأسرها، عن طريق الترجمة، فطبقت شهرته الآفاق، وصار محببًا ومرغوبًا فيه بين رجال الدين، حتى نسبه المسيحيون إلى واحد من القديسين، وجعلت إحدى الفرق الإسلامية جزءًا كبيرًا منه من تأليف إمامهم.

أما كتاب "رسائل إخوان الصفا" (الدينى والفلسفي)، الذى ظهر فى القرن الرابع الهجري، فله أهمية خاصة؛ إذ إنه يمثل مدرسة فكرية سرية، قام أعضاؤها، من هذه الجماعة، بتأليفه سرًا، ويعد عند إحدى الفرق الإسلامية صحفًا دينية. ويحوى أبوابًا مختلفة من كتاب (بوداسف وبلوهر)(١)، وقد قام مولوى عبد الغنى الوارثى بنقله من العربية إلى الأردية، فى لغة سهلة ميسرة، منذ ثلاثين عامًا.

(*) *لم يطلق ابن النديم على هذه الكتب تلك التسمية، ألا وهى "كتب الحكمة الهندية "، وإنما "أسماء كتب الهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث ".*

(**) *الفارسية هى التى تنطق الواو فاءً، مثل الألمانية، والكلمة منقولة عنها ، أما العربية فتنطق الباء المهموسة فاء (F __ P).*

(١) *أرجو أن يتمكن الباحثون من بيان الصلة بين "رسائل إخوان الصفاء"، وبين كتاب "بلوهر وبوذاسف، "إذ إن إخوان الصفاء قد تأثروا بالفكر اليونانى، وخاصة الفيثاغورثي، إذ جعلوا للحساب دورًا كبيرًا فجمعوا بين الفكر الإسلامى و اليونانى. كما أن اعتقادهم بأن العالم صادر عن الله، وقد فاض عنه، وأن الله علة كل فيض، متأثرون فيه بالفكر الهندى، فى هذا الكتاب...*

وأتذكر جيدًا حين ظهرت الترجمة الأردية، وحصل أستاذى العزيز على نسخة منها، وكنت آنذاك أقرأ الكتب العربية العادية، فأعربت له عن رغبتى فى الاطلاع على هذا الكتاب، ولكنه رفض إعطائى إياه، قائلاً: لو أنك قرأته، فسوف تزهد فى الدنيا، وستترك الدراسة، وقد كان رفضه هذا حافزًا على قراءته، وفى الليل، عندما خلد إلى النوم، تسللت وأخذت الكتاب من على منضدته، وما إن هلّ الصباح حتى كنت قد فرغت منه، وأعدته مرة أخرى إلى مكانه. ومنذ ذلك اليوم، مازال هذا الكتاب فى نظرى واحدًا من أهم الكتب عن الدنيا، مازال صداه يتردد فى قلوب المذنبين؛ ففيه العديد من الحكم المؤثرة، التى نجدها اليوم فى كلام السيد المسيح[١]، ولا تستطيع أن تقول أن هذه اللآلئ قد خرجت من قاع أى البحار أولاً.

وأختتم حديثى باثنين من العلماء المسلمين اللذين وافيا الهند؛ للارتواء من العلوم والفنون (علوم الهند وفنونها)، لا من أجل السياحة والترحال، وقد حالفهما النجاح.

التنوخي[٢]

وأولهم هو محمد بن إسماعيل التنوخي، والغالب أنه كان فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، وهو عالم فى علم النجوم والفلك. وقد عاد إلى وطنه، وفى جعبته الكثير من المعلومات النادرة حول هذا الفن[٣].

---

(١) *هذا أمر طبيعى، لأن الكتاب نقل إلى اليونانية، ثم تم نقله من اليونانية إلى العربية، ولذا نجد فيه آثار المسيحية.*

(٢) *هو المنجم المعروف، الذى دخل إلى الهند، وصدر عنها بغرائب من علم النجوم، منها "حركات الإقبال والإدبار".*

(٣) القاضى صاعد الأندلسى، طبقات الأمم – صـــ٥٦ – بيروت، وأخبار الحكماء، للقفطى – صـــ٥٨ – مصر.

ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات كافية عن حياة هذا العالم. ولو لم يذكره المؤرخ والقاضى (صاعد الأندلسى)، ما كان أحد ليعرف اسمه تقريبًا. *(طبقات الأمم - ص ٦٥)*.

البيرونى

أما العالم الفاضل الثانى، فهو الحكيم والرياضى، أبو الريحان البيرونى الخوارزمي، فقد كان هذا العالم مولعًا بمعرفة أفكار الأمم الأخرى، وقضاياها ومعتقداتها، لذلك لا يوجد مؤلف من مؤلفاته، إلا وفيه ملامح هذا الولع. ومما لا شك فيه، أنه كان على دراية كاملة بكل ما يتعلق بعلوم الهند، قبل ذهابه إليها، عن طريق المؤلفين الأوائل.

وحتى عصره، كانت العلوم العربية، والأبحاث العلمية للمسلمين، قد بلغت شأوًا عظيمًا؛ إذ طوروا العلوم التى أخذوها عن الهنود، والإيرانيين، واليونانيين، وصححوا الكثير مما هو مغلوط ومنقوص؛ لذلك لم يكن للبيرونى ثمة سبب آخر فى الاتجاه نحو علوم الهند، سوى البحث عن أشياء أخرى جديدة.

على أية حال، فنحن لا نعرف، على وجه اليقين، متى ورد إلى الهند؟ وكم مكث هناك؟ وإلى أى الأماكن ذهب؟ ومن المعروف نوعًا ما، أنه جاء إلى (غزنة) من (خوارزم)، عام ٤٠٨هـ، وأتم كتابه (تاريخ الهند) فى (غزنة)، عام ٤٢٣هـ. فقد مات السلطان محمود، عام ٤٢٠هـ، قبل تمام هذا الكتاب بثلاث سنوات. وبذلك عرفنا أن فترة إقامته فى الهند، حوالى اثنى عشر عامًا، أو ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، فيما بين عامي ٤٠٨هـ/٤٢٢هـ؛ إذ يرد فى كتاب (درة الأخبار فى تاريخ الفلاسفة والحكماء) بالفارسية، والمنقول عن كتاب (صنوان الحكمة) بالعربية، لعلى بن زيد البيهقى (ت ٥٦٥هـ): (أن البيرونى قضى فى الهند أربعين عامًا)، ولو

صح هذا التاريخ[1]، لكان البيرونى قد وافى الهند، عام ٣٨٣هـ، أى قبل قدوم الغزنويين.

ولكن يبدو أن هذا التاريخ غير صحيح، نظرًا لتواريخ حياة البيروني، وكأن رحلته إلى الهند لم تتجاوز السند والبنجاب[٢]. غير أن ما ذكره عن جغرافية الهند، فى كتابه (الهند)، توضح أنه جاب الهند كلها. وفى كتابه الثانى (القانون المسعودي) الذى كتبه بعد هذا الكتاب بعدة سنوات، كتب فيه تفاصيل عن طول جميع المدن الكبرى للهند، وعرضها.

على أية حال، فقد دخل الهند عندما كانت تتعرض لهجمات السلطان محمود. لكن البيرونى آنئذ، وهو السلطان الثانى فى العلم والفن، كان قد انشغل بمعاركه العلمية فى الهند وحيداً، وكان قلبه ضجرًا بكل هذه الاضطرابات السياسية[٣].

وكما قال (زخاو)، فإنه بتصنيف (كتاب الهند)، جعل المسلمين يفتخرون بأن واحدًا منهم قد ألف مثل هذا الكتاب، الذى غض من معلومات الرحالة الصينيين واليونانيين، عن الهند من ناحية، وأنعم على الهند، حيث جعل حضارتها، وعلومها، وأفكارها القديمة، قائمة ومحفوظة فى العالم، من ناحية ثانية.

وتجدر الإشارة هنا للفقرة التى ذكرها البيرونى، عن تكبر الهند وغرورها العلمى آنذاك، فكتب يقول: "على أنهم لا يظنون أن فى الأرض غير بلدانهم، وفى الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علمًا، حتى إنهم إن حدثوا بعلم أو عالم، فى خراسان وفارس، استجهلوا المخبر، ولم يصدقوه؛ للآفة المذكورة"، ثم أضاف

---

(١) لقد بدأ نشر هذا الكتاب فى ملحق مجلة (الكلية الشرقية) بلاهور، عدد فبراير ١٩٢٩ م، وفى الكتاب الأصلى ورد فقط "در بلاد "(فى البلاد)، إلا أن المحرر أخذ من التكملة للكتاب الأصلى، وأضاف إليها بعد ذلك كلمة (هند).

(٢) كتاب الهند – صـ١١ – لندن.

(٣) البيرونى – كتاب الهند – المقدمة .

يقول: "على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة، فهذا (براهمر)، أحد فضلائهم، حين يأمر بتعظيم البراهمة، يقول: (إن اليونانيين، وهم أنجاس، لما تخرجوا وأنافوا فيها على غيرهم، وجب تعظيمهم). ويضيف قائلاً: (إنى كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ؛ لعجمتى فيما بينهم، وقصورى عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلاً لها، أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، وألوح لهم الطرق الحقيقية فى الحساب، فانثالوا على متعجبين، وعلى الاستفادة متهافتين، يسألون: عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه؟ وأنا أريهم مقدارهم، وأترفع عن جنبتهم مستنكفاً، فكادوا ينسبوننى إلى السحر، ولم يضعونى عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر، والماء يحمض حتى يعوز الخل"(١).

وأعظم إنجازات البيرونى أنه قام بدور السفير العلمى بين المسلمين والهنود، حيث قدم للعرب والفرس العلوم الهندية، وما للهنود من الأبحاث العربية والفارسية. كما ترجم لأصحاب العربية من اللغة السنسكريتية، ولأصحاب السنسكريتية من اللغة العربية.

وهكذا، أدى الدين الذى كان للهند على العلوم والفنون العربية منذ مدة. وقد كتب ثلاثة أنواع من الكتب، فيما يتعلق بالهند؛ واحدًا من العربية إلى السنسكريتية، والثانى من السنسكريتية إلى العربية، والثالث بحث وتحقيق فى العلوم والمسائل الهندية.

ومن الكتب التى كتبها للهنود ما يلي:

١- إجابات أسئلة المنجمين الهنود.

٢- إجابات عشرة أسئلة لعلماء كشمير، وحل ما اشتبه عليهم فيها.

٣- كتاب عن صنعة الإسطرلاب.

٤- كتاب المجسطى، لبطليموس.

---

(١) البيرونى – كتاب الهند – صـــ١٢.

٥- أصول إقليدس.

٦- كتاب فى الفلك.

القسم الثانى: الكتب التى ألفت لأصحاب العربية:

١- كتاب الهند، وفيه خلاصة عقائد الهند وعلومها.

٢- خيال الخسوفين.

٣- راشيكات الهند.

٤- ترجمة سانكهيا (فلسفة).

٥- ترجمة كتاب باتنجلي.

٦- شرح للرسوم الهندية فى تعلم الحساب.

٧- ترجمة كتاب لكهوجاتكم لدراه مهر (فى شرح الولادة).

٨- رسالة عن عودة (وسوديو) إلى الحياة مرة أخرى، وغيرها من الرسائل.

٩- ترجمة كتاب (بانج سدهانت) لبرهم كيت.

١٠- ترجمة (برهم سدهانت) لبرهم كيت.

١١- حساب وتعداد الأرقام الهندية.

القسم الثالث من الكتب، وهي:

١- تصحيح الأخطاء التى صدرت من المؤلفين والمترجمين لكتب الفلك الهندية، والتى نقلت من السنسكريتية إلى العربية، وهذه الكتب هي: كتاب (سدهانت)، و(آريه بهت)، (كهنديا كهند) (خانداخاديكا).

٢- كتاب جوامع الموجودات لخواطر الهنود، وهو كتاب فى خمسمائة صفحة، ويشرح فيه (سدهانت) برهما كيت، العالم الرياضى الهندي.

٣- رسالة يوضح فيها طريقة كتابة الأعداد فى العربية، بوصفها هندية.

٤- كتاب (فى الإرشاد إلى تصحيح البادئ علمى النمودرات). وفى المقالة الخامسة (القانون المسعودي)، تحدث البيرونى عن طول المدن الهندية

التالية، وعرضها: لوهاور (لاهور)، اوستان (اوستهان)، والتى هى حاضرة كشمير. ونيبال (ويقول عنها إنها بمثابة مكمن بين الهند والتبت)، ووبند (وهى إحدى المدن الهندية الخاصة في وادى السند)، وسيالكوت، والملتان، ثم (ميناء بلوجستان) سومنات (سومناتهــ)، ونهلواله (نهرواله)، وكهبمايت، وهار (مالوه)، واوزين (اوجين)، وبهروج، فى وسط الهند، وماهوره (متهرا)، وقنوج (ويقول إن مملكة قنوج هى جزء فى وسط البلاد)، وظلت عاصمة الملوك العظام، وتقع غرب نهر الجنجا، وماری (وهى العاصمة الحالية لمملكة قنوج)، وقلعة كواليار، ولوبراني، والديبل (ميناء السند)، وكهجوارهه، واجوهه (اجوادهيا)، وبنارس (بنارس)، ويقول عنها إنها مدينة مقدسة، وهى مركز علوم الهند، وجزيرة لنكا، وجمكوت، وتنجاور، و سنكلديب، ومنكرى (مهانكري).

وقدم البيرونى إنجازًا عظيمًا فى الهند، ألا وهو قياس دوران الأرض. وكان الخليفة المأمون بن الرشيد، أول من اهتم بمساحة الأرض، أوائل القرن الثالث الهجري. ولم يكن قد مر على ذلك عامان، إذ كان البيرونى شغفًا ولعًا بالبحث والتحقيق؛ إلا أنه لم يجد الفرصة مهيأة فى خوارزم وأفغانستان، فوجدها مصادفة فى الهند، وخاصة فى هذا المجال، الذى كان أحد أطرافه الجبل، وهكذا، وطبقًا لقاعدته الهندية، استطاع أن يقيس مساحة الأرض[١].

وقد أدى المسلمون الدّين كاملاً لعلم الفلك، وعلم الهيئة الهندي، وذلك فى عهد السلطان أكبر[٢]، والسلطان محمد شاه، عندما أمر السلطان أكبر بترجمة

(١) القانون المسعودى . وقد اطلعت على النسخة المخطوطة، فى مكتبة جامعة (على جره).

(٢) *السلطان أكبر: هو أبو الفتح جلال الدين أكبر (١٥٤٢ ــ ١٦٠٥م) سليل تيمور لنك، وابن همايون من زوجته الفارسية، يعتبر أعظم ملوك المسلمين، وأباطرة المغول فى الهند، سعى عبثًا إلى التقريب بين المسلمين وغير المسلمين فى الهند، بتأسيس دين جديد يوحد بين الأديان كافة، سماه "الدين الإلهي".*

(الزيج الغ بيكي) إلى السنسكريتية، وهو عبارة عن مجموعة ملاحظات حديثة للمرصد التيموري، والأبحاث الفلكية الإسلامية بالمراغة[١].

وفى عهد السلطان (محمد شاه)، قام الملك (جـ سنكهـ) بترجمة أمهات الكتب العربية، فى علم الهيئة، إلى اللغة السنسكريتية؛ لإنشاء مرصد بمنطقة جـ بور، ودهلي، وبنارس[٢].

الألعاب الجادة

آمل ألا يكون القراء قد ملوا سماع الأبحاث العلمية، ومصطلحاتها الفنية الثقيلة، ولهذا فإننى أنهى هذا المقال بفرش بساط اللعب؛ للتسرية عن السامعين والمتحدثين.

إن أشهر لعبتين فى العالم هما: الشطرنج والنرد، وكلتاهما من إبداع العقل الهندي. وخير من كتب فى هذا الموضوع بالعربية، هو اليعقوبي؛ حيث قال: (إنها ليست مجرد لعبة، بل تقوم أساسًا على المسائل الفلكية، والحسابية الدقيقة). وقد أفاض فى شرح هذه المسائل، قائلاً: "إن رقعة الشطرنج إن هى فى الحقيقة إلا خريطة لتطورات الزمن، وخاناتها عبارة عن التقويم الفلكى، ثلاثمائة وستون يومًا، وكل يوم أربعة وعشرون ساعة، وفى اليوم اثنتا عشرة ساعة. وصورة كاملة لليلة مدتها ثلاث عشرة ساعة، ورقعة النرد تكمن فى علامات النرد، وطريقة لعبه، وأساس الشطرنج أربع وعشرون خانة، ثم أصبح اثنتين وثلاثين، ثم ثمانى، ثم صار أربع خانات، وناهينا عن هذه الحسابات المعقدة، فلم ينعم النظر أحد ليرى أن اللعبتين، إن هما إلا شرح وبيان لمدرستين ومذهبين فى الفلسفة الهندية.

---

(١) آئين أكبرى .

(٢) آزاد بلجرامى – سبحة المرجان فى تاريخ هندوستان.

إذ تؤكد لعبة النرد على أن الإنسان مُسير لا مخير، وأن الإنسان لعبة فى يد القدر، يسيره كيفما يشاء، وبغيره لا يستطيع أن يضع قدمه، أو يرفعها فى هذه الدنيا.

وعلى العكس منه تمامًا، الشطرنج الذى يؤكد أن كل ما يفعله الإنسان فى هذه الدنيا ثمرة جهوده الذاتية؛ ففشله أو نجاحه يتأتى طبقًا لأفكاره وأفعاله.

وصفوة القول، إن هاتين اللعبتين هما الحل العملى للقضايا المستعصية، التى لا حل لها فى الدنيا. وكتب اليعقوبى يقول: "إن أحد العلماء اخترع فى البداية النرد، وأهداه لأحد الملوك؛ بغية أن يعلمه قضية الجبر، ثم جاء عالم آخر، وقدم الشطرنج، محاولاً إثبات قضية الاختيار".

وصفوة البيان، إن هاتين اللعبتين قد بينتا أن الإنسان، الذى لم يستطع أن يحل قضية الجبر والاختيار، بآرائه ودلائله المنطقية والفلسفية، لن يتمكن من الوصول إلى كنه لعبة القدر.

إن مخترع لعبة الشطرنج، طلب من الملك (باراني) جائزة اختراعه، وكانت هذه الجائزة لعبة حسابية محيرة أيضًا؛ حيث طلب المخترع أن توضع حبة من القمح فى أول خانات الشطرنج، على أن يضاعف هذا الرقم فى الخانة التالية، حتى تكتمل كل الخانات على هذا النحو، وفى البداية، اعتقد الملك أنها جائزة بسيطة؛ لكن عندما شرع فى حساب هذه الخانات، وجد نفسه عاجزًا عن أداء هذا الرقم الكبير؛ الذى حسبه كلاً من المسعودى واليعقوبي(١).

لكن سرده هنا سيجعلنا نعود إلى العمليات الحسابية مرة أخرى، ونترك بساط اللعب، الذى نحن بصدد الحديث عنه. وقد وصلت كلتا اللعبتين إلى العرب، فى القرن الأول الهجرى، عن طريق إيران. وكان النرد سابقًا على الشطرنج؛ إذ

---

(١) القصة كاملة فى اليعقوبى – الجزء الأول – صـــ٩٩ – ١٠٥، ثم المسعودى – الجزء الأول – صـــ١٦٠ – لندن.

إن ذكره قد ورد فى الأحاديث النبوية، ثم لحقه الشطرنج، فى القرن الثانى الهجرى، وغالبًا فى عهد العباسيين؛ لأن آراء المجتهدين من فقهاء القرن الثانى الهجرى متواترة، فيما يتعلق به من الناحية الشرعية.

وقد زعم الفرس أن أصل لفظ الشطرنج هو فارسى، وهو من الكلمة الفارسية (هشت رنج)[1] *اليعقوبى – ج١ – ص ١٠٣*. بيد أن دعوى الفرس هذه دعوى مكشوفة؛ إذ إن الشطرنج اسم ملك من ملوك الهند، وأصله (جترنكـــ)[٢]، يعنى: ذو الأعضاء الأربعة. ثم استلحقه الفرس، بعد أن أطلقوا على قطعه أسماء فارسية؛ مثل: شاه (بادشاه)، فرزين (وزير)، بياده (عسكري). ولكن بقى شيئان، هما بمثابة وثيقة رسمية على أحقية الهند، وهما (هاتهي) الفيل، والطابية والرخ (الحصان). فالفيل من سمات الهند المميزة، أما الرخ فهو اسم أحد مطايا الهند، ويطلق عليه فى الهندية (رتهـــ)، ولا وجود له إلا فى الهند.

وقد ذكر أهل التحقيق أن لعبة الشطرنج قد ورد ذكرها فى الملحمة الهندية (الرامايانا) [٣]. وقد ادعت أمم أخرى، غير الفرس، ملكية الشطرنج، مثل: المصريين، واليونان، والرومان، والبابليين. وإحقاقًا للحق، لا يمكن قبول أى ادعاء آخر؛ إذ إن الشطرنج اسم أحد ملوك الهند[٤].

ويجب أن لا ننسى هذه النقطة، وهى أنه سواء كان اسمه فى إيران (هشت رنج)، أو فى الهند باسم (جترنكـــ)، إلا أن العرب، بعدما عدلوا فى حروفه بما يناسب لغتهم، قد وضعوا له هذا الاسم الذى مازال شائعًا فى كل من الهند وإيران إلى اليوم، ألا وهو لفظ (شطرنج).

---

(١) اليعقوبى – الجزء الأول – صـــ١٠١ – لندن.

(٢) سواء السبيل فى معرفة المولد والدخيل – بروفيسر ارنلد.

(٣) دائرة المعارف البريطانية – المجلد ٦ – صـــ١٠٠، تحت كلمة Chess.

(٤) دائرة المعارف البريطانية – المجلد ٦ – صـــ١٠٠، تحت كلمة Chess.

الباب الرابع

العلاقات الدينية

المصادر

ونضيف إلى الكتب التى تم ذكرها آنفًا أربعة مراجع أخرى جديدة، بمثابة مصادر لما هو وارد فى هذا المقال:

١. التقرير عن ديانات الهند، الذى أعده (يحيى بن خالد البرمكي) فى القرن الثانى الهجرى، ويضم كتاب (الفهرست) لابن النديم، خلاصة له، لا تزال موجودة حتى يومنا هذا.

٢. كتاب (تاريخ البدو) لمطهر بن طاهر المقدسى (٣٣٥هـ) الفيلسوف والمؤرخ العربى الشهير، وقد نشر هذا الكتاب فى ستة مجلدات بباريس عام١٨٩٩م، ويضم بين صفحاته بابًا عن ديانات الهند.

٣. كتاب (الديانات) لأبى العباس إيران شهري، وعلى الرغم من أن النسخة الأصلية لهذا الكتاب غير موجودة، فإن بعض الأجزاء المقتبسة منه فى كتاب (الهند) للبيروني، بها العديد من أحوال البوذيين.

٤. أما أهم كتاب فيما ورد، فهو كتاب (الملل والنحل) لعبد الكريم الشهرستانى (٥٤٩/٤٤٩هـ)، وقد طبع أكثر من مرة فى أوربا، ومصر، وبومباي.

كما تمت الاستعانة ببعض المقالات المتفرقة، لعبد القاهر البغدادى (٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، ومنها (الفرق بين الفرق) فى تاريخ الفرق الإسلامية، المطبوع فى مصر. وهذه المقالات منقولة عن كتاب (المعتزلة) لمرتضى الزبيدي، التى قام بطبعها البروفيسور (ارنلد) بدار المعارف، حيدر آباد.

الفرق بين الفاتحين العرب، والأتراك، والأفغان، والمغول

قبل أن نمضى قدمًا فى استعراض ما يلي، يجب أن نشير إلى نقطة مهمة، ألا وهي أن فاتحى الهند من الترك، والأفغان، والمغول، كانوا من المسلمين؛ لذلك فإن مرد كل أعمالهم وتصرفاتهم إلى الإسلام.

ولهذا صار لزامًا علينا أن نعرف جميعًا تلك الحقيقة، وهى أن الولاة والقادة الأتراك، الذين قدموا إلى الهند, باستثناء بعض القادة وأصحاب الوظائف، لم يكونوا يمثلون الإسلام، ولم يكن نظام حكمهم يمت إلى الإسلام بشىء؛ إذ إن معظم القادة الأتراك كانوا من الموالى، حديثى عهد بالإسلام، وقد لا يفهمون شيئًا فى الأحكام الإسلامية الخاصة بالاتفاقيات أثناء الحرب والسلم.

وحين قامت الدولة الغزنوية فى هذا البلد، كانت تعد آخر أطراف حدود الخلافة الإسلامية على الإطلاق، وحتى تلك الفترة، لم يكن الإسلام قد وطد أقدامه بعد. وكان قوام قوات جيش السلطان محمود الغزنوى خليطًا من مختلف الطوائف الغزنوية والخلجية، والترك، والأفغان. كما كان بينهم هندوك أيضًا[1]. ولم تكن معظم القبائل التركية قد دخلت الإسلام بعد، فهم إما عبيدٌ اشتراهم الأمراء والسلاطين من الأسواق بالآلاف, فأصبحوا عماد الجيش بعد اعتناقهم الإسلام، وإما فارون من بلادهم فى وسط آسيا، من أجل النهب والقتل, فيهبطون على الدول الإسلامية، ويعتنقون الإسلام، ثم ينخرطون فى صفوف جيوش مختلف الملوك والأمراء، ثم شيئًا فشيئًا، يصبحون من كبار القادة، مما يرقى بهم إلى سدة الحكم، وقد صاروا ملوكًا. وخير مثال على ذلك، مؤسس الدولة الغزنوية (ألب تكين)-[2]

---

(١) ابن الأثير ــ الكامل – الجزء ٩ صــ١٣٥ بريد لندن ١٨٦٢م.

(٢) *ألب تكين (ت ٩٦٣م) مؤسس الدولة الغزنوية، كان مملوكًا تركيًا خدم السامانيين، أمير غزنة ٩٦٢م انظر: المنجد فى اللغة والأعلام – ط ٣٣ دار المشرق بيروت ١٩٩٢ صــ٦٢.*

(ت ٩٦٣م) وسبكتين[١]، فقد كانا من الموالى الأتراك، وينتمى إلى تلك الفئة آلتمش[٢]، خليفة السلطان الغورى، وغيره.

أما السلاجقة الأتراك، الذين أسسوا الدولة السلجوقية العظيمة بعد بضع سنوات، فإنهم ينتمون إلى القسم الثانى من الأتراك؛ أى الذين هبطوا على الدولة الإسلامية وصاروا مسلمين. وهذا هو جيش السلطان محمود الغزنوي، الذى كان جيشه، بالإضافة إلى ما سبق يضم متطوعين من تركستان، وبلاد ما وراء النهر[٣]، وكان معظم هؤلاء مسلمين.

ولم يكن المغول قد دخلوا الإسلام بعد، إذ حتى القرن السابع الهجرى، كانوا لا يزالون كفاراً. والسلطان علاء الدين الخلجي[٤] (ت ٧١٦هـ) هو أول من جندهم للخدمة فى جيشه بعد إسلامهم، وقد قتل منهم حوالى خمسة عشر ألف جندى دفعة واحدة فى عهد علاء الدين لدهلي[٥].

وكانت كل المدن الأفغانية الكبرى فى ذلك الوقت تدين بالإسلام، بيد أن الأفغان أهل البلاد الأصليين مازالوا كفارًا، ولم يدخل الإسلام فى قلوبهم[٦]، وقد أعلن ملك كابل إسلامه، أوائل القرن الثالث الهجري؛ أى قبل الغزنويين بحوالى

---

(١) سبكتكين (ت ٣٨٧هـ - ٩٩٧م) قائد ساماني، صهر ألب تكين وخلفه، استقل فى (غزنة) وهو جد الغزنويين. انظر: المنجد فى اللغة والأعلام صـ٢٩٤.

(٢) آلتمش: كان أحد قادة دولة المماليك بالهند، توفى عام ١٢٣٥م.

(٣) تاريخ فرشته – الجزء الأول – صـ٢٩ – ٣٢ نولكشور.

(٤) علاء الدين محمد شاه الخلجى (١٢٩٥ – ١٣١٥م): من السلالة الثانية لسلطنة دهلى ١٢٩٠ – ١٣٢٠، والتى أسسها جلال الدين فيروز، من اصل تركي، بلغت الدولة فى عهده أوج عزها. انظر: المنجد فى اللغة والإعلام صـ٢٣٢.

(٥) تاريخ فرشته – الجزء الأول – صـ٢٤.

(٦) تاريخ فرشته – الجزء الأول – صـ١٢٠.

مائة عام كاملة[١]، ثم أخذت أكثر القبائل الأفغانية تدخل فى الإسلام تباعًا، أثناء حكم السلطان محمود الغزنوي[٢].

أما القبائل الغورية، فلم تكن تعرف الإسلام بعد، فى أواسط القرن الرابع الهجري، أى بعد ظهور الغزنويين[٣]؛ إذ لم يكن يوجد فى تلك البقاع أى مدارس لتعليم الدين الإسلامي، أو أى مظاهر للتقاليد الإسلامية، أو تواجد للعلماء المسلمين، حتى مجيء السلطان محمود الغزنوي. ولهذه الأسباب كلها، لم يكن أسلوب حياة هذه القبائل، وقواعد حروبها إسلامية.

أما العرب الفاتحون، فكانوا على النقيض منهم، إذ تمكنوا، خلال قرن واحد، من أن يتخطوا حدود الشام، مرورًا بمصر وشمال أفريقيا، حتى وصلوا إلى أسبانيا، ثم توسعوا شرقًا عبر العراق، حتى وصلوا إلى خرسان وإيران وتركستان، ليتجه جزء منهم فاتحًا كاشغر، والجزء الثانى فاتحًا السند؛ فقد أشرب هؤلاء الناس بحق تعاليم الدين الإسلامي، وكانوا على هدى وبصيرة بأحكام الإسلام فى السلم والحرب، إذ كان القادة الفاتحون يصحبون بعض الصحابة، الذين تشرفوا بصحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أحيانًا، كما نهل الكثير منهم من فيض الصحابة – رضوان الله عليهم؛ لذلك كان أسلوب حياتهم، وطريق إدارتهم لأمور الحكم تختلف تمامًا عن أولئك القادمين عبر ممر خيبر (الترك والمغول والأفغان).

وفى عام ٩٣هـ، فتح قتيبة بن مسلم[٤] سمرقند، وسكان تلك البقاع – فى هذه الفترة – من البوذيين، وقد اضطر قتيبة لسبب ما (يبدو أنه ضائقة مالية)، إلى

---

(١) ابن الأثير – الكامل – المجلد ٩ صـ٢١٨.

(٢) البلاذرى – فتوح البلدان – صـ٤٠٢ لندن.

(٣) ابن حوقل ـ سفر نامه، والكامل، لابن الأثير الجزء ٩ صـ١٥٦، وتاريخ بيهقى مطبوع كلكتا صـ١٢٧.

(٤) *قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ/٧١٥م): من كبار القادة الأمويين، فتح ما وراء النهر، وبخارى، وسمرقند وفرغانة، فى عهد عبد الملك بن مروان، قتل فى ثورة الجلد فى (فرغانة) بعد تولى سليمان بن عبدالملك. انظر: المنجد فى اللغة والأعلام – صـ٤٣٤.*

حرق تماثيل (بوذا)، ليستخرج منها الذهب والفضة؛ حتى يعبر تلك الأزمة، بيد أنه لم يفعل ذلك، لا بالقوة ولا بالحرب، ولكنه لجأ إلى عقد اتفاق شريف مع الطرف الثاني، تكون كافة التماثيل بموجبه تحت تصرف المسلمين، فوافق أهالى سمرقند، وحينما جاء وقت حرق التماثيل، قال له الملك التركي: "أنا أدين لك بالفضل والإحسان؛ لذلك فمن واجبى أن أحذرك ألا تحرق التماثيل؛ لأن من بينها من إذا حرقته، سيكون هلاكك مؤكدًا " فأجابه قتيبة: (لو أن الأمر كذلك، فسأحرق هذه الأصنام بيدي) وقام قتيبة بحرق هذه الأصنام بنفسه، وعندما لم تحل عليه لعنة هذه التماثيل، انصرف كثير من الأتراك عن عبادتها، وأصبحوا مسلمين"[١].

وباستثناء الأحداث العارضة التى حدثت أيام الخلفاء الراشدين، ما نكث العرب شيئًا من معاهدات الصلح التى عقدوها مع هؤلاء الشعوب، فتركوا أماكن عبادتهم، لم يمسوها بسوء؛ إذ مازالت معابد النار مضيئة فى إيران، ومازالت التماثيل قائمة فى كنائس الشام وفلسطين ومصر والعراق، بل مازالت أصوات أجراسها تدق إلى الآن. غير أن الفاتحين الأتراك، وهم حديثو عهد بالإسلام، لم يتبعوا هذه التعاليم، ولم يقتفوا آثار أسلافهم، ويسيروا على نهجهم القويم.

---

(١) ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل فى كتاب (تاريخ الطبري) – الجزء ٨ – صـــ١٢٤٦ لندن، والكامل لابن الأثير – الجزء ٤ – صـــ٤٠٨ لندن. والفقرة الأخيرة ذكرها البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) صـــ٤٢١ لندن. ونص العبارة عند ابن الأثير: *"فلما تم الصلح، وأخلوا المدينة، وبنوا المسجد، دخلها قتيبة فى أربعة آلاف انتخبهم، فدخل المسجد فصلى فيه، وخطب وأكل طعامًا، ثم أرسل إلى الصغد: من أراد أن يأخذ متاعه، فليأخذ، فإنى لست خارجًا منها، ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون فيها، وقيل: إنه شرط عليهم فى الصلح مائة ألف فارس، وبيوت النيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، وأتى بالأصنام، فكانت كالقصر العظيم، وأخذ ما عليها وأمر بها فأحرقت، فجاء غوزك فقال: إن شكرك على واجب، لا تتعرض لهذه الأصنام، فإن منها أصنامًا من أحرقها هلك. فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فدعا النار، فكبّر، ثم أشعلها فاحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال" ج٤ ص ٥٧٣*

وحين كان العرب يأخذون الجزية من غير المسلمين، لم يكونوا يحصلون على أى شيء آخر، سوى ما حددته الشريعة من خراج للمحاصيل، غير أن الترك والأفغان، والمغول، كانت تأخذهم حمية الإيمان، ويحصلون على الجزية مضافًا إليها بعض المكوس، والمحاصيل، والجبايات الأخرى، التى يحصلون عليها من الرعايا المسلمين وغير المسلمين، ولكن أحكام الإسلام التى أقرها العرب فى هذه البلاد، والتى ظل العمل بها قائمًا ردحًا من الزمن، تنص (هذه الأحكام) على أن هناك مصدرين لموارد البلاد، هما: الزكاة، وعُشْر المحصول، من المسلمين، والجزية، والخراج، من غير المسلمين.

والأصل فى هذا أن الإسلام قسم أهل العالم جملة إلى أربعة أقسام، هي: (١) المسلمون، (٢) أهل الكتاب (وهم الذين لهم كتاب منزل، ورسول مرسل، قد ورد ذكره فى القرآن الكريم)، (٣) من لهم شبهة كتاب (وهم الذين يدعون نزول تعاليم سماوية عليهم، ولكنها لم تذكر فى القرآن)، ولذلك لا يعدون (أهل كتاب) لعدم معرفة حقيقة أمرهم (٤). الكفار، وهم الذين لم تنزل فيهم آيات سماوية. وقد ساوى الإسلام بين المسلمين جميعًا فى الحقوق والواجبات، بقطع النظر عن القومية والوطنية.

ولهذا، فإن أهل الكتاب لهم ما للمسلمين من الحقوق، وعليهم ما عليهم من الواجبات، بعد أداء الجزية، ويحل للمسلمين أكل ذبائحهم، ومناكحتهم والزواج من بناتهم، وتجب حمايتهم والمحافظة على عبادتهم، ورفع من قصدهم بأذى فى أموالهم وأرواحهم من قبل أولى الأمر، نظير دفع الجزية. أما من لهم شبهة كتاب، فينحى بهم نحو أهل الكتاب، ويتمتعون بكافة الحقوق والواجبات مثلهم، بل والتى يتمتع بها المسلمون أنفسهم، إلا أنه لا يجوز أكل ذبائحهم، ولا الزواج من بناتهم[1].

---

(١) قبل أن أوضح ما جاء فى كتب الفقة حول البراهم (الهنادكة) يجب أن نعرف بهؤلاء القوم؛هم قوم انتسبو إلى رجل يقال له "براهم"، وعقيدتهم تقوم على نفى النبوات، غير أنهم يقرون التوحيد، وهو ما أكده البيرونى، فى كتابه المعروف "تاريخ الهند"، وصاحب كتاب (الملل والنحل)، الشهرستاني، =

وعليه، فإن أول شيء كان يحدث عندما تستقر الدولة الإسلامية فى بلد من البلاد، هو النظر فى أهل هذا البلد، وإلى أى قسم من الأقسام الأربعة السابقة ينتمون. بيد أنه مما يؤسف له أن القادمين عبر ممر خيبر (الأتراك، والمغول، والأفغان) لم يطبقوا هذه الأحكام، فنجدهم قد أصروا على أخذ الجزية التى كان من المفترض أن يقبلوها فقط من أهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب – من الهندوك – هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم يوفوا بالعهد فى الحفاظ على معابد الهندوك، وتقاليدهم الخاصة، والتى يجب أن تصان وتحترم، بمجرد دفع الجزية.

وظل الهندوك معلقين، بين بين، لم يحدد أمرهم، إلى أى قسم من الأقسام الأربعة ينتمون؟ وظل هذا حالهم حتى عهد السلطان علاء الدين الخلجى ٦٩٦هـ[١]. وهذه المساوئ كلها نتيجة الجهل الذى لحق بهؤلاء. وما إن وطئت أقدام العرب بلاد السند، حتى حسموا هذه القضية؛ ألا وهي، إلى أى فئة ينتمى الهندوك، فى ظل الحكومة الإسلامية؟

= يعدهم ممن لهم شبهة أهل الكتاب، فيقول: "وممن لهم شبهة أهل الكتاب، مثل: المجوس، والمانوية، وممن لهم حدود وأحكام دون كتاب، مثل: الفلاسفة الأوائل، والدهرية، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة" الشهرستانى – الملل والنحل الأنجلو المصرية ١٩٧٧م ص ٤٠.

جاء فى المغني، وهو أحد كتب الفقه المعروفة، نقلاً عن (فقه السنة) للسيد سابق، طبعة دار التراث بالقاهرة : "وسائر الكفار، وغير أهل الكتاب ــ كمن عبد ما استحسن من الأصنام والأحجار والشجر والحيوان ــ فلا خلاف بين أهل العلم فى تحريم نسائهم وذبائحهم. ص ٩٠. وهناك من سوى بينهم وبين اليهود والنصارى، فى معرض حديثه عن الصابئة الذين يعبدون الكواكب، بقوله: "... وإنهم بمقتضى هذا يصح الزواج منهم؛ لقول الله – عز وجل: "اليوم أكملت لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم" الآية، وهذا مذهب الإمام أبى حنيفة، وصاحبيه.

ومنهم من تردد؛ لعدم معرفة حقيقة أمرهم..... وهذا هو المروى عن الشافعية والحنابلة. ص ٩٣

(١) ضياء برنى – تاريخ فيروز شابى صـ٢٩٠ كلكتا، وتاريخ فرشته صـ١١٠ نولكشور.

الهندوك ممن له شبهة كتاب عند العرب الفاتحين

عند وصول القائد العربى (محمد بن القاسم) بلاد السند، وافى مدينة الرور (الور)، وكانت أول محطة فى فتح هذه البلاد. فناضله أهلها، وقاتلوه عدة أشهر، ثم تم الصلح بينهم على شرطين، أولهما: الكف عن قتل المدنيين العزل، والثاني: حماية معابدهم، وعدم التعرض لها بسوء، فوافق محمد بن القاسم على هذين الشرطين، قائلاً كلمته المأثورة: "ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود، وبيوت نيران المجوس". وقد ورد ذكر هذه الواقعة فى كتاب (جج نامه)، وهو الترجمة الفارسية لأقدم كتب التاريخ العربى فى بلاد السند.

وهو على النحو التالي:

"قبل محمد بن القاسم الطلب الذى تقدم به أهالى برهمن آباد (السند)، وسمح لهم بالعيش فى الدولة الإسلامية فى السند، مثلما يعيش اليهود والنصارى فى الشام والعراق"[١].

كان هذا أهم تصريح جاء على لسان قائد عربي، منح الهندوك المكانة الصحيحة، طبقًا لتعاليم الإسلام السمحة، وجعل معابدهم صنو معابد أهل الكتاب وكنائسهم، وعاملهم معاملة من له شبهة كتاب فى الإسلام. وفى تاريخ فتوحات (السند) تسطع هذه الحقيقة، وهى أن العرب أوفوا بعهدهم، وقد نصح أحد أتباع (بوذا) أميرًا من الأمراء الهندوك، فقال له ذات يوم: " نعلم تمامًا أن محمد بن القاسم لديه أمر من الحجاج[٢]، أن يعطى الأمان كل من يريد الأمان؛ لهذا اقتنعنا بعقد الصلح معه؛ لأن العرب أهل أمانة، ويوفون بالعهود "[٣].

---

(١) جج نامه – تاريخ اليت – المجلد الأول – صـــ١٨٦.

(٢) *الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي، أحد ولاة الخليفة الأموى (الوليد بن عبد الملك) على العراق.*

(٣) جج نامه – تاريخ اليت – المجلد الأول – صـــ١٥٩.

كانت (الديبل) أولى المدن السندية التى هاجمها العرب، ويقع أكبر المعابد البوذية، وأضخمها، فقذف محمد بن قاسم أعلى منارته - التى كانت ترى من الخارج - بالنيران؛ كى يجبر المتحصنين على فتح أبواب المدينة، ولكن عندما تم له فتح المدينة، لم ينتهك حرمة المعبد، ولم يدمره، وظل هذا المعبد قائمًا حتى القرن الثالث الهجرى بعد زوال البوذية. وجاء الخليفة المعتصم بالله عام (٢١٨/٢٢٧هـ) واقتطع عامله على السند عتبة بن إسحاق الضبي، وهدم أعلى تلك المنارة، وجعل فيها سجنًا، وابتدأ فى مرمة المدينة[١]، وقد أقام محمد بن القاسم نفسه مسجده فى هذه المدينة[٢]، حتى تم له فتح مدينة (نيرون)؛ فأقام مسجده أمام المعبد[٣].

معبد الملتان

ظل معبد الملتان قائمًا بكل هيئته بعد فتحها، وظل على صورته، طيلة حكم العرب الذى استمر ثلاثة قرون. وخلال هذه الفترة، ظل واحدًا من أجمل المزارات السياحية للرحالة العرب، وكان (البشارى المقدسي) آخر شخص وصف الحالة التى عليها المعبد؛ حيث رآه حوالى عام ٣٧٥هـ. وقد استفاد العرب من وجود هذا المعبد فائدتين، إحداهما سياسية، والأخرى اقتصادية؛ أما السياسية، فاستخدامه درعًا فى صد أى هجوم على المدينة من قبل أحد راجاوات الهند؛ إذ فى هذه الحالة، يهدده العرب بتدمير المعبد إن هو قدم على تلك الخطوة، فيحجم عن ذلك، ويرجع أدراجه مرة أخرى.

---

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - صـ٤٢٥.

(٢) أيضًا صـ٤٢٥.

(٣) جج نامه - اليت - صـ١٥٨.

وأما الفائدة الاقتصادية؛ فيقول عنها ياقوت:" وبها صنم تعظمه الهند، وتحج إليه من أقصى بلدانها، ويتقرب إلى الصنم فى كل عام بمال عظيم، ينفق على بيت الصنم، والمعتكفين عليه"[١]. (*الإصطخرى – ص ١٠٣*).

وقد قدم الرحالة العرب وصفًا بديعًا لمعبد الملتان، حيث الذهب والفضة يكثران فيه كثرة لا مثيل لها.

فعليك أن تتصور أن المعتقدين به كانوا يرسلون مئات الدنانير– لمجرد حرق عود تبركًا به – عن طريق التجار العرب[٢]. وكان التمثال نفسه لا يقدر بمال؛ إذ كان فى موضع عينه أحجار كريمة، وكان على رأسه أكليل من الذهب، وقد مد باعيه[٣].

وظل المعبد تحت حكومة الأمراء العرب حتى عام ٣٧٥هـ، وهو فى كامل رونقه وأبهته؛ ولكن عندما زار أبو الريحان البيرونى المكان عام ٤٠٠هـ، وجد مسجدًا مقامًا مكان المعبد، وفى ذلك كتب يقول: " وكان محمد بن قاسم بن المنبه، لما فتح المولتان، نظر إلى سبب عمارتها، والأموال المجتمعة فيها، فوجد ذلك الصنم، إذ كان مقصودًا محجوجًا من كل أوب، فرأى الصلاح فى تركه، بعد أن علق لحم بقر فى عنقه؛ استخفافًا به، وبنى هناك مسجدًا جامعًا"[٤] *البيرونى – ص٨٨*. فأكد بهذا أنه لم يتركه لسبب خاص بالعقيدة، وأقام للمسلمين مسجدًا منفصلاً. وحين خضعت الملتان، كما يضيف البيروني، لحكم القرامطة (إحدى فرق الشيعة الضالة)، كسر جلم بن شيبان المتغلب ذلك الصنم، وقتل سدنته، وجعل بيته، وهو قصر مبنى من الآجر على مكان مرتفع، جامعًا بدل الجامع الأول، وأغلق

---

(١) ياقوت – معجم البلدان ــ نقلاً عن الإصطخرى – المجلد ٨ صـ٢٠١ مصر.

(٢) أبو زيد السيرافى ــ سفر نامه صـ١٣٠.

(٣) البشارى المقدسى – أحسن التقاسيم – صـ٢١ ليدن ١٩٠٦م صـ٤٨٣.

(٤) لم يرد ذكر هذه الواقعة فى كتب تتحدث عن فتوحات السند، ولا ندرى من أين استقى البيرونى هذه الحكاية.

ذلك بغضًا لما عمل فى أيام بنى أمية، ولما أزال الأمير المحمود، رحمه الله، أيديهم عن تلك الممالك، أعاد الجمعة إلى الجامع الأول، وأهمل هذا الثاني، فليس الآن إلا بيدرًا لصبر الحنا[1] *(البيرونى - ص ٨٩)*.

وفى هذا السياق، كتب البلاذرى الذى عاش أواخر القرن الثالث الهجرى، هذا الكلام العجيب؛ وفحواه، إن البسطاء من الناس كانوا يظنون أن هذا التمثال هو لنبى الله أيوب – عليه السلام – صـ٤٤.

الحقوق والامتيازات

بعد فتح السند، جاء وفد من البراهمة إلى محمد بن القاسم، فأكرم وفادتهم ابن القاسم، وأحسن استقبالهم، وتقدم البراهمة بمطلبهم، ألا وهو أن تكون مرتبتهم أعلى من مراتب الطبقات الأخرى؛ وفق دستور الهند[2].

وبعد أن تحقق محمد بن القاسم من ذلك، لبى طلبهم، وحازوا المناصب الرفيعة، والمرتبة العليا، فشكروا له حسن صنيعه، وانتشروا فى القرى يشيدون بالحكام المسلمين، وامتدحوا الحقوق التى حصلوا عليها، معلنين ذلك فى كل مكان.

الجزية

دعا الأمراء العرب أهل السند إلى الدخول فى الإسلام، أو دفع الجزية، معلنين: أن من يسلم سيصبح أخًا للمسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن أبى إلا دينه، تركوه عليه وأعطى الجزية، فدخل البعض فى دين الإسلام، وظل البعض قائمًا على دينه. وقد ورد فى جج نامه:

---

(١)- البيرونى – كتاب الهند – صـ٥٦.

(٢) *إذ إن البراهمة يعتبرون أنفسهم من عنصر إلهي، فهم كهنة الإله، لا تجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وتحت أيديهم، وقسموا المجتمع البرهمى إلى أربع طبقات ١- طبقة الكهنة ٢- طبقة المحاربين ٣- التجار و المزارعين ٤- طبقة الخدم.*

"إن من أسلموا، قد تحرروا من الرق، وسقطت عنهم الجزية وغيرها، وأما الذين ظلوا على دينهم؛ فقد صنفوا ثلاث درجات: الطبقة العليا، وهم الأثرياء وأهل اليسار، وقد أخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً، ومن الطبقة المتوسطة أربعة وعشرون درهمًا، ومن الطبقة الدنيا، وهم الفقراء، اثنا عشر درهمًا؛ فالذين دخلوا فى الإسلام سقطت عنهم الجزية، أما الذين ظلوا على دين آبائهم فأخذت منهم، ولكن لم تصادر أراضيهم ومنقولاتهم؛ بل ظلت فى حوزتهم "[١].

وبحساب هذا الوقت، فإن الدرهم يساوى ثلاث روبيات[٢] إلا ربعاً؛ أى كان الأغنياء يدفعون ما يوازى عشر روبيات، ومتوسطى الحال خمس روبيات، والفقراء كانوا يدفعون ما يعادل روبيتين ونصف. ووفقًا للقاعدة، فإن النساء، والأطفال، والشيوخ، ورجال الدين، والمعوقين، ومن لا قدرة لهم على الكسب؛ كل هؤلاء لا تضرب عليهم الجزية. أما المسلمون فيدفعون الزكاة عوضًا عن الجزية، حوالى روبيتين ونصف، والعشر من خراج الأرض، وكان يؤخذ من غير المسلمين الخراج المحدد أيضًا، ولم تكن ثمة ضرائب أخرى مفروضة، فى ظل الحكومة العربية.

الهندوك والمسجد

أثر تسامح العرب فى الهندوك أثرًا كبيرًا، فعندما سقط الحكم العربى من إحدى المدن فى القرن الثانى الهجري، باستيلاء الهندوك عليها، لم تمتد أيديهم إلى مسجد المسلمين بسوء، فتركوه للمسلمين، يجمعون فيه، ويدعون للخليفة[٣].

وقد ذكر الإصطخري، وابن حوقل (من رحالة القرن الرابع الهجري) أن المناطق الواقعة بين مدينتى كهمبايت وجيسور، كانت خاضعة لحكم الرجاوات؛

---

(١) جج نامه – اليت – صـ١٨٢، ١٨٤.

(٢) *الروبية تساوى عشرة قروش مصرية تقريباً.*

(٣) البلاذرى – فتوح البلدان – صـ٤٣٣ لندن.

غير أن المسلمين كانوا يقطنون فى كل مكان، وفى كل مدينة، وكانت لهم مساجدهم التى تقام فيها صلاة الجماعة. وسوف نروى قصة شيقة عن تدمير المسجد الجامع، بمدينة كهمبايت، وبنائه فى عهد رجاوات الهند.

الدراسات التى تمت حول المذهب الهندوكي

رغب العرب رغبة أكيدة فى دراسة ديانات الهند، نتيجة لتلك العلاقات الودية بينهم وبين الهنادكة. وعليه، كان ثمة عامل فى وزارة يحيى البرمكى – والتى استمرت حكومته من عام ١٧٠هـ إلى عام ١٩٠هـ – أرسل إلى الهند؛ كى يدون ما يراه عن عقاقير الهند، وأديانها. وفى تلك الفترة كانت (بغداد) ملتقى كل الديانات والعقائد من كل حدب وصوب فى العالم.

وفى بلاط الخلفاء العباسيين، وبعض الأمراء ممن لهم ميول فلسفية، جرت المناقشات الدينية، والمناظرات الفلسفية، وفى اليوم والوقت المحددين لانعقاد تلك المجالس، كان أتباع كل مذهب يعرضون أدلتهم، ويسجلون اعتراضاتهم على الإسلام، وينصتون إلى إجابات الآخرين، وكان يؤم هذه المجالس والمناظرات رواد علم الكلام، حيث وجدوا كل عناية ورعاية من البرامكة خاصة، ولا غرو أنه مما سبق ذكره من مناظرات ومجالس، نشأ الاهتمام بمعرفة ديانات الهند.

أما النسخ الأصلية من التقارير التى أعدها المبعوث الخاص عن أحوال الهند، فإنها غير محفوظة، ولم يتم العثور عليها، إلا أن تلك الواقعة التى حدثت عام ٢٤٩هـ، ذكرها ابن النديم فى كتابه، الذى ألفه بعدها بحوالى سبعين أو ثمانين عاماً، وذكر أنها بخط الفيلسوف العربى المشهور، يعقوب بن إسحاق الكندي.

وتقول الرواية: إن يحيى البرمكى بعث برجل إلى الهند، ليدرس مذاهبها؛ وبناء عليه، كتب ذلك الشخص كتابًا بعنوان (ديانات الهند ومعتقداتها)، وكتب باختصار عن أحواله، التى يتضح من خلالها أنها خلاصة التقرير المكلف به، وكتب فى تلك الرسالة عن راجه "ولبهـ"، حاكم الكجرات، وعن معبد العاصمة

(مهانكر)، وما فيه من ذهب وفضة، ومعادن وعاج وجمال، وكل أنواع الجواهر والأحجار الكريمة.

وكتب أيضًا عن تلك الأصنام الذهبية العديدة الموجودة فى المعبد، ويبلغ ارتفاع أحدها اثنى عشر ذراعًا، على سرير (قاعدة) من الذهب الخالص، وترتكز هذه القاعدة فى وسط قبة من ذهب، مرصع ذلك كله بالجوهر الأبيض، الحب، والياقوت الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر.

وفى كل عام، كان ثم مولد أو عرس لهذا المعبد، فكان الملك يمشى من داره إلى هذا البيت، ويعود مشيًا على الأقدام كى يقدم القرابين للآلهة، وكان الناس أيضًا يضحون بأنفسهم قربانًا للآلهة، فى يوم من السنة معروف عندهم.

كما وصف أيضًا الصنم (التمثال) الموجود فى مدينة (الملتان) وقد وصف بقية الأصنام (التماثيل)، وذكر بعض أحوال فرق الهند الدينية، وأصنامها على النحو التالي:

١. أول تلك الفرق على الإطلاق، فرقة (مهاكاليه)، وهم أتباع الإله (مهاكالى)، ذى الأيادى الأربع، ولونه اسمانجوني، كثيف شعر الرأس، كاشر الأسنان، كاشف البطن، وعلى ظهره جلد فيل يقطر منه الدم، وبإحدى يديه ثعبان، وبالأخرى عصا، وبالثالثة رأس إنسان، واليد الرابعة قد رفعها فى الهواء، وفى أذنيه حيات، وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التفا عليه، وعلى رأسه إكليل (تاج) من عظام القحف (الجماجم)، وعليه من ذلك قلادة.

٢. الفرقة الثانية، الدينكتيه أو الادنيكتيه (ادت بهكتي): عباد الشمس، وهذه الآلهة (الصنم) على عجل تجرها أربعة أفراس، وفوق هذه العربة تمثال، وهم يسجدون له، ويطوفون حوله، ويوقدون البخور، ويعزفون الألحان، وله ضياع كثيرة وغلات، وله العديد من الكهنة والسدنة يقومون بمصلحته،

ومصلحة ضياع هذا الوقف، ويحج له المرضى من كل مكان؛ اعتقادا منهم أنهم سيبرأون، ويبلغون المراد بزيارته.

٣. الفرقة الثالثة: جندر بهكيته (جندر بهكتي): وهم عباد القمر، وقد اتخذوا له صنمًا (إلهاً) فوق عربة مرتكزة على أربعة قوائم، ومع الإله جوهر يقال له (جندر ديت)، ويصوم اتباعه فى الليلة الرابعة عشرة عند اكتمال القمر، ويتم تقديم الطعام والشراب واللبن قرباناً له، ويصعدون على سطوح منازلهم، يدعونه فى الليلة الرابعة عشرة، ويرنمون إليه.

٤. البكرنتيه[١]: ويكون أتباعها مكبلين بالقيود، مصفدين بالحديد، ومن سنتهم أنهم يحلقون رؤوسهم ولحاهم، ويظلون عراة إلا من قطعة قماش تستر عورتهم.

٥. الفرقة الخامسة: (جنجا ياتره) (كنكا جاتري)، وينتشر أتباع هذه الملة فى جميع أرجاء الهند، ومن سنتهم أن من اغتسل بماء الجنجا، يطهر بذلك، وتغفر جميع ذنوبه.

٦. الفرقة السادسة: الراجبوتيين، وهم شيعة الملوك، ومن عقيدتهم معونة الأمراء، ولهذا يعدون خدمة الملوك جزءًا من العبادة.

٧. الفرقة السابعة: وهذه الفرقة يطول أتباعها شعورهم، ويفتلونها على وجوههم، ويتدلى الشعر المعكوف من كل جانب، ومن سنتهم ألا يشربون الخمر، ويعتكفون فى الجبال، وألا يقربون النساء، وألا يدخلون العمران"[٢].

---

(١) سيرد ذكر أصل هذا اللفظ، كما سيرد ذكر هذه الفرقة أيضاً، أما كلمة "بهكشو" نفسها، فقد ورد ذكرها فى كتب أخرى بمعنى: بكرنتيه، بدلاً من الكلمة "بيكر جين"، وأطلق عليها (بزرك بن شهريار): "بيكور طائفة من رهبان سيلان" صـ١٥٥، وذكرهم البيرونى فى (كتاب الهند)، صـ٥٨، عبدة "مها ديو".

(٢) ابن النديم – الفهرست – صـ٣٤٥-٣٤٩.

ومن المعاصرين لابن النديم، وقريبى العهد به، المطهر[1]، أحد علماء علم الكلام العرب ببيت المقدس، ٣٧٥هـ، وقد ذكر فى هذا الأمر توضيحًا أكثر فى كتابه (البدء والتاريخ):

"فى الهند تسعمائة فرقة، غير أن المعروف منها تسع وتسعون فقط، مندرجة تحت خمس وأربعين عقيدة، وتنحصر فى أربعة أصول. وتعود الأصول الأربعة إلى فرعين أساسيين: وهما السمنى أو البوذى والبرهمي؛ أما السمنى فهو من لا يعترف بإله أو آلهة ليس لها اختيار. وأما أتباع المذهب البرهمى فهم على ثلاثة مذاهب: الأول، من يؤمن أتباعه بالتوحيد، والثواب والعقاب؛ دون رسالة سماوية. والثاني، القائل بمبدأ الثواب والعقاب عن طريق التناسخ، ولكن لا يؤمن أتباعه بالتوحيد أو الرسالة "[2].

وبعدها قدم المؤلف بيانًا مختصرًا عن المكانة العلمية لأهل الهند. وذكر فى المقدمات قضايا الشهادة بالأسلوب القديم الذى كان سائدًا فى الهند آنذاك، مثل لمس الحديد الساخن، وغيره.

ثم يذكر المؤلف: "يعتقد البراهمة أن المسلمين نجس، لا ينبغى ملامستهم، أو مخالطتهم. والبقرة مقدسة عندهم، وهى كالأم يكنّون لها كل تقدير واحترام، ومن يمسها بسوء؛ فعقوبته القتل. ويجوز لغير المتزوجين مضاجعة نساء الغير (الآخرين) لئلا ينقطع النسل"[3].

---

(١) ذهب الحاجى خليفة إلى أن هذا الكتاب لأبى زيد أحمد بن سهيل البلخي، وصدرت عدة مجلدات له فى باريس باسم البلخي، ولكن تم تصحيح البيان السابق ووضع اسم مطهر بن طاهر، المؤلف الحقيقي.

(٢) المجلد الرابع – صـ٩ – ١٩ . باريس، و تم إغفال ذكر الفرقة الثالثة.

(٣) ربما يريد هنا ذكر قضية النيركـ؟

وإذا اقترف المتزوجون إثماً؛ فعقابهم القتل، وإذا لمس أحدهم يد مسلم، ثم عاد إليهم، فلا يقتل؛ بل يحلق شعره، ويكفر عن إثمه هذا (وهى الطريقة التى مازالت مستمرة إلى الآن) بأن يخلطوا بعض الأشياء من إفرازات البقرة، ويسقونه إياها، ويتناكحون فيما بينهم، ويحرمون الخمر وذبح الحيوان).

وبعد ذلك، شرح مفصل لمعبودات الهند وأتباعها، ووصف هيئة كل إله، نحو: "المهاديو(*)، وكالي(**)، وشيولنك(***)، وغيرها". ثم ذكر لفرقتين جديدتين، يقال لإحداهما: (جل بهكتيه) عباد الماء. والثانية "اجنى هوطريه" (اجنى هوتري) عباد النار. وثم ذكر للأحبار؛ وهم الذين يقضون جل وقتهم فى التأمل والاستغراق، حتى أن الأعمال الظاهرة الحسية تتوقف عندهم.

ويعتقدون أنهم يقتربون من الروحانيات، كلما افترقوا عن الماديات، كما أن أعينهم مغلقة دائماً. وأخيرًا، كتب عن الجوكيه، وعن أحوال الذين يضحون بأنفسهم، وكتب عن البراهمة يقول:

"إنهم يعبدون البقر، ويعتبرون عبور نهر الجنجا حرام، ولا يباح لأى شخص اعتناق دينهم". وأخيرًا يضيف المؤلف: "أن من لا يؤمن بالآخرة والرسالة؛ يقبل الثواب والعقاب عن طريق التناسخ. أما عكوفهم على عبادة الأصنام؛ لأن الله – تعالى – فوق العلم والحس والإدراك، وفوق كل شيء، وحتى تخرج الحواس من سجنها لابد لها من واسطة".

وبعد ذلك يظهر على الساحة اسم محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (٤٦٩–٥٤٩هـ) المحقق المدقق، وعالم الديانات المشهور، والذى نقل بالتفصيل

(*) مهاديو : الإله الأعظم.

(**) كالى: الآلهة القبيحة المتعطشة للدماء؛ وهى الوجه القبيح لزوجة الإله (شيفا)، و(أكا) الوجه الآخر الجميل، فيقال له: باروفتي.

(***) شيو لنكـ: كلمة لنكـ تعني: العلاقة، ولكن هنا تعني: عضو شيفا الذكري، ويعبد فى الهند كرمز لشيفا نفسه، وهو موضوع العبادة الرئيسى فى المعابد الشيفية، ورمز للخصوبة.

ما أورده مطهر المقدسي؛ وقد انفرد بذكر فرقة جديدة، تدعى البرجسبيكية (بركش بهكت)، وهم عبدة الأشجار[١].

وقد ذكر أبو الريحان البيرونى شرحًا كاملاً عن ديانات الهند فى الباب الحادى عشر من مؤلفه (كتاب الهند)، وضح فيه فلسفة عبادة الأصنام؛ فكتب يقول:

"وليتحقق ما قلنا من أن هذه الأصنام منصوبة للعوام، الذين سفلت مراتبهم، وقصرت معارفهم". وقد نقل بعض الفقرات عن (جيتا)، كتاب الهندوك المقدس، والتى تقول إحداها: "إن كثيرًا من الناس يتقربون فى مباغيهم إلى بغيرى، ويتوسلون بالصدقات والتسبيح والصلاة لسواي، فأقويهم عليها، وأوفقهم لها، وأوصلهم إلى إرادتهم؛ لاستغنائى عنهم".

ثم ينقل بعض أقوال الإله كرشنا[٢]، وهو يخاطب أرجن[٣]، يبدى فيها ضيقه الشديد من عبدة الشمس والقمر، وغيرها من المعبودات، ثم يذكر ما وضحه القاضى صاعد، الرحالة العربى الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، عن الإيمان بالغيب، حسبما وضحه فى كتابه (طبقات الأمم)، عن تاريخ علوم الشعوب المتحضرة فى العالم.

---

(١) الملل والنحل – المجلد الثانى – الباب الأخير. *وأصل عبارته " ومن ذلك البركسهيكية، ومن سنتهم أن يتخذوا لأنفسهم صنمًا، ويقربون له الهدايا، وموضع متعبدهم له، أن ينظروا إلى باسق الشجر وملتفه، مثل الشجر الذى يكون فى الجبال، فيلتمسون منها أحسنها وأطولها، فيجعلون ذلك الموضع موضع متعبدهم، ثم يأخذون ذلك الصنم، فيأتون شجرة عظيمة من ذلك الشجر، فيثقبون فيها موضعًا، فيركبونه فيها، فيكون سجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة" (جـ ٢ – ص٢٦٠).*

(٢) *كرشنا: واحد من أكثر آلهة الهنادكة توقيرًا وشعبية عند الهنود، وهو التجسيد الثامن للإله فشنو، والكلمة نفسها تعني: الأسود أو الداكن، مما يعنى أنه كان إلهًا للهنود الأصليين المائلين إلى السواد.*

(٣) *أرجن: أحد أبطال ملحمة (المهابهارت) الهندية.*

"وأما الأمة الأولى، وهى الهند، فأمة كثيرة العدد.... وقد اعترف لها بالحكمة، وأقر لها بالتفوق فى فنون المعارف.... أما العلم الإلهي، فهم يجمعون منه على التوحيد لله – عز وجل، والتنزيه له عن الإشراك به، ثم هم مختلفون فى سائر أنواعه، فمنهم براهم، ومنهم صابئة. فأما البراهمة؛ وهى فرقة قليلة العدد منهم، شريفة النسب عندهم، فمنهم من يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوءات، وتحريم ذبح الحيوان، والمنع فى إيلامه... ولبعد الهند من بلادنا، واعتراض الممالك بيننا وبينهم، قلت عندنا تآليفهم، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم، ولا وردت علينا منهم إلا نبذ من مذاهبهم، ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم"[(1)] *(ص ١٢ ــ ١٣)*.

١. والتفاصيل التى قدمها الرحالة العرب عن الهند، وخاصة فيما يتعلق بالحالة الدينية؛ تركز معظمها على وصف بعض معابد السند والملتان، مثل: تمثال الملتان الخشبى المشهور، وقد ألبسوه جلدًا يشبه السنجاب، أحمر لا يتبين منه غير عينيه، وهما جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، قد مد باعيه"[(2)].

وقد أخبر البيرونى أنه تمثال إله الشمس، ولذلك أطلق عليه (ادت)؛ أى الشمس[(3)].

٢. وكذلك حال المعابد، التى يروج بها اقتناء الجواري، مما أثار ضيق ونفور الرحالة العرب، عند حديثهم عنها. وقد أسهب رحالة جنوب الهند فى وصف

---

(١) صاعد الأندلسى ــ طبقات الأمم – صـــ١١ – ١٥ بيروت.

(٢) البشارى المقدسى ــ أحسن التقاسيم – الطبعة ٢ – ليدن ١٩٠٦م – صـــ٤٨٣، وآثار البلاد، للقزوينى، صـــ٨١، وغيرها من كتب الجغرافيا.

(٣) كتاب الهند – صـــ٥٦ – لندن.

هذه المعابد[1]. ولكن هذا النوع من المعابد ذكرها المقدسى أيضًا، عندما زار الهند، عام ٣٧٥هـ[2].

٣. كما أكثر الرحالة من ذكر التضحية بالنفس قربانًا، ونسجوها بطريقة تقشعر منها الأبدان، وقد يكون إغراق النفس فى نهر الجنجا شيئًا طبيعيًا، أما غير الطبيعى وما تمجه النفس، هى عادة (الساتي)، التى تمارسها النساء بعد وفاة أزواجهن، ولكنهم لم يوفوها حقها من الكتابة.

ويقول أبو زيد السيرافي: "فى مملكة بلهرا، وغيره من ملوك الهند، من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم..... وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه، سار إلى باب الملك، فاستأذن، ثم دار فى الأسواق، وقد أججت له النار..... وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان، يملأه جمرًا..... يمشى وهامته تحترق.... وهو لا يتغير فى مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتى النار، فيثبت فيها، فيصير رمادًا، فذكر بعض من حضر رجلاً يريد دخول النار، أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر، فوضعه على رأس فؤاده، فشقه بيده إلى عانته..... ثم زج بنفسه فى النار" *(ص ٨٣)*.

وثمة مشهد لشخص آخر يشق صدره بخنجر، وينزع قلبه بيده فى هدوء واطمئنان كاملين[3].

وقد حكى ابن الفقيه: "أن رجلاً من الهند أتى هذا الصنم، وقد اتخذ لرأسه تاجًا من القطن ملطخًا بالقطران، ولأصابعه كذلك، وأشعل النار فيها، ووقف بين يدى الصنم، حتى احترق"[4]. (آثار البلاد ص ١٢٢).

---

(١) سليمان التاجر، وأبو زيد السيرافى ــ سفرنامة - صــ١٣٠ - باريس.

(٢) أحسن التقاسيم صــ٤٨٣.

(٣) أبو زيد السيرافى ــ سفرنامه صــ١١٥ -١١٨.

(٤) القزوينى ــ آثار البلاد - صــ٨١.

وقد قسم مطهر المقدسى الفرق الهندية إلى قسمين: فأطلق على الفرقة الأولى اسم (البرهمنية)، والثانية (السينية). وقد اشتبه لفظ (برهمن) على بعض المؤلفين العرب، فظنوا أن (برهمن) ما هو إلا من أتباع إبراهيم – عليه السلام؛ ولذلك أطلقوا عليه (برهمن). ولكن الشهرستانى أصاب كبد الحقيقة، حين كشف هذا الخطأ قائلاً: من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم – عليه السلام – وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفى النبوات أصلاً ورأسًا، فكيف يقولون بإبراهيم – عليه السلام؟ والقوم الذين اعتقدوا بنبوة إبراهيم – عليه السلام – من أهل الهند هم الثنوية، منهم القائلون بالنور والظلمة، والظلمة على رأى أصحاب الثنيين وقد ذكرنا مذاهبهم، وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له "براهم"، وقد مهد لهم نفى النبوات أصلاً " *الشهرستانى (٤٧٩ــ ٥٤٨هـ)، الملل والنحل ج ٢مصر ١٩٧٦م، ص ٢٥٠ــ ١٥٣.* ويطلق لفظ البوذيين على المناوئين للبراهمة السينية فى اللغة العربية (وسترد مناقشة هذا الأمر ودراسته فى الأبواب القادمة).

وتنحصر عقيدة أتباع (بوذا) فى أنه يحل فى صورة إنسان بين الحين والأخر، ولهذا السبب رأى بعض أصحاب النوايا الحسنة، أن (بوذا) على ما وصفوه، إن هو إلا (الخضر) الذى يثبته أهل الإسلام[1].

وهنا يظهر ثمة تقارب واتفاق بين الطائفتين، بل اتحاد فى الأفكار وتقارب فى الآراء؛ مما يعد تذكارًا لتلك الفترة.

ملك هندوكى يجل آل البيت

"فى عام ١٤٧هـــ، خرج أحد السادات العلويين، أيام حكم (المنصور)، الخليفة العباسي، وأراد أن يجعل حكمه فى (السند)؛ فأعد العدة، ولكنه خسر

---

(١) الشهرستانى ــ الملل والنحل *" الحقيقة أن الشهرستانى لم يقل بذلك ، ولكن قال : إن صدقوا فى وصفهم، لا يشبه إلا الخضر الذى يثبته أهل الإسلام".*

الحرب، وقضى الوالى على ثورته؛ فولى هاربًا، يبحث عن مكان أمين يلجأ إليه. فإذا برجل هندى يقول لأسرة السادات: ثم ملك يجل الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويحترمه؛ فعليكم باللجوء إليه، والعيش تحت كنفه وحمايته؛ فذهبوا إليه، فأحسن استقبالهم، وأكرم وفادتهم، وعاشوا آمنين مطمئنين"(١).

ذكرنا فيما سبق، فرقة السينية، وهى التى عرفها العرب باسم أتباع (بوذا). غير أنني، بعد بحث وتمحيص ودراسة، وبعد الحصول على بعض البراهين والأدلة – التى جمعتها منذ فترة – وصلت إلى هذه النتيجة:

إن أول من ذكر اسم هذه الفرقة، هو عبد القادر البغدادي، المتوفى عام ٤٢٩هـ، الموافق١٠٣٧م، فى كتابه (الفرق)، وجاء ذكرها بسبب اتهام إمام المعتزلة، القائلة بالعقل حين أنكر النبوة؛ وأصبح التمييز بين الحق والباطل فى هذه القضية مستحيلاً؛ إذ إن الأدلة القوية تحيطها من كل جانب؛ وأنه أخذ هذا كله من البراهمة والسينية.

ثم قرأت فى كتاب مرتضى الزبيدى (المعتزلة) أن فرقة السينية بالهند، قد أرسلت إلى هارون الرشيد، إنكارها على الإسلام هذه القضية.

وقد أرشدتنا هذه الفرقة، إلى أن هذه الفرقة من الهند ثم وجدت لأكثر من مرة – أثناء دراستى لأحوالها – ذكر اسم هذه الفرقة. كما قد قرأت للمؤرخ اليت، وهو فى هذا يرجع إلى أقوال البروفيسور (مولر) وغيره، قوله: إن هؤلاء هم أتباع (بوذا)، وأصل هذا اللفظ فى السنسكريتية هو (سرسن)؛ أى الناسك. ويذكر أيضًا أن الرحالة اليونان أطلقوا عليهم (سرامينس)، و(سرمينا)، و(سيموني)(٢).

---

(١) الكامل – ابن الأثير – أحداث ١٤٧ هـ. *نص العبارة فى كتاب ابن الأثير هكذا: " قال عمر: رأيت رأيًا، ها هنا ملك من السند، عظيم الشأن، كثير الملك، وهو على شوكة، أشد الناس تعظيمًا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم، وهو وفيّ. أرسل إليه، فاعقد بينك وبينه عقدًا، فأوجهك إليه، فلست ترام معه، ففعل ذلك، وسار إليه الأشتر، فأكرمه، وأظهر بره" ج٥ – ص ٥٩٦.*

(٢) اليت – انديا ــ الجزء الأول – صــ٥٠٦.

وقد أبان السيد (اليت) هذا الأمر نوعًا ما، إلا أن ابن النديم، الذى جاء بعده بينه فأحسن تبيانه؛ اطمأن قلبى لمقاله؛ وعرفت من كلامه: لم أطلق عليهم اليونان هذا الاسم؟

أصل السينية

فى مقدمة كتابه "تاريخ ملوك الأرض" - عام٣٥٠هـ تقريبًا، والذى يعد سندًا فى تاريخ إيران وخراسان – كتب حمزة الأصفهانى[١]:

"والعالم لم يكن فيه إلا فرقتان، إحداهما: سمنيون، والثانية: الكلدانيين (كالديا والـ)، وكان السمنيون فى الشرق، ومازال بعض أفرادها فى أطراف الهند والصين. ويطلق عليهم أهل خراسان (الشمنان)، وهى جمع كلمة (شمن)".

ويتضح من هذا، أن العرب قد عرفوا اسم (البوذيين) من أهل خراسان؛ فراج الاسم بينهم. وفضلاً عن بيان الأصفهانى هذا، فقد وجدت معلومات كافية عند ابن النديم (٣٧٥هـ): " قرأت بخط رجل من أهل خراسان، قد ألف أخبار خراسان فى القديم، وما آلت إليه فى الحديث، وكان هذا الجزء يشبه الدستور، قال: نبى السمنية (بوذاسف). وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر (تهرينز وأوكيشيتا) قبل الإسلام، وفى القديم، ومعنى (السمنية) منسوب إلى (سمني) وهم أسمى أهل الأرض والأديان.

وقد أخبرهم نبيهم (بوذاسف) أن أعظم الأمور التى لا تحل، ولا يسع الإنسان أن يعتقدها أو يفعلها، قول (لا) فى الأمور كلها، فهم على ذلك قولاً وفعلاً. وقول (لا) عندهم من فعل الشيطان، ومذهبهم دفع الشيطان "[٢].

---

(١) تاريخ ملوك الأرض – صـ٧ – طبعة ديانى برلين.

(٢) ابن النديم – الفهرست – صـ٣٤٥.

وينطبق هذا كله على أتباع (بوذا)، وقد مر علينا أن أصل كلمة (بوذاسف) هى (بودهى ستو). وعلمنا أيضًا أن البوذية كانت العقيدة السائدة فى وسط آسيا قبل الإسلام.

وبعد هذا التوضيح، أصبح من اليقين، أن السينية والبوذية شيء واحد.

مبادئ السينية

وفى عام ٣٤٥هـ/١٠٣٧م كتب عبد القادر البغدادى مذكرة ضمنية عن أحد مبادئ السينية، أطلق عليها " تكافؤ الأدلة " باصطلاح اللغة العربية. وهى تقترب من مبادئ الفرق التى تنكر وجود الله؛ بمعنى أن الحق والباطل كليهما موجودان فى الحياة، ولمعرفة النفى لابد أن يكون ثمة إثبات، ولا يجوز أن يقال عن واحد منهما: هذا خطأ، وذاك صواب.

ومما لا مرية فيه، أن هذا من تعاليم (بوذا)، بيد أننا نجد هذه المبادئ عند أتباع العقيدة الجينية[١] بصورة أجلى وأوضح. أما المبدأ الثانى من مبادئ (بوذا)؛ فهو التحرر من الآم الدنيا ومصائبها. وقد عبر ابن النديم عن هذه الآلام والمصائب بلفظ (الشيطان)؛ إذ إنه أس البلاء. فقال: "ومذهبهم (السمنية) دفع الشيطان"؛ أي: البعد عن المساوئ والآلام.

وقد استخدم الشهرستاني، الذى عاش أواخر القرن الخامس الهجري، لفظ (بد)، بدلا من كلمة (السينية)، ومعلوم أنه كان على دراية تامة بهذا المذهب؛ إذ يقول: "ومعنى (البد) عندهم، شخص فى هذا العالم لا يولد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم، ولا يموت ". وكأنه يذكر درجة من درجات النجاة؛، ثم ذكر بعد ذلك تعاليم (بوذا)؛ وقال: إنها اجتناب الذنوب العشرة، واستكمال عشر خصال،

---

(١) الجينية: عقيدة هندية، ظهرت فى القرن السادس قبل الميلاد مع البوذية، وأصحابها يعتقدون أنه ساهم فى تأسيسها ٢٤ قديسًا، آخرهم هو مهابير(البطل العظيم)، ومن أهم مبادئ هذه العقيدة: الامتناع عن الإيذاء، والكذب، والسرقة، والتملك.

وقد شرح كل واحدة منها. وكتب " قالوا: ولم يكن بينهم اختلاف فيما ذكر عنهم (البددة) من أزلية العالم، وقولهم فى الجزاء"[١].

وقد نقل مطهر بن طاهر من كتاب (المسالك)، أحد كتب الجغرافيا العربية (ليس كتاب ابن خردازبه "المسالك والممالك"، والذى ألفه فى أواخر القرن الثالث، أوائل القرن الرابع الهجري)[٢]، كما نقل ابن النديم (عن غير كتاب الكندي)، هذا القول الصائب: " لدى السينية طائفتان: قالت طائفة أن (بوذا) رسول من عند الله، وزعمت أخرى أن (بوذا) صورة البارى – تعالى جده "[٣].

والحق أنه قد نتج عن هذا خلاف، مفاده: أثم وجود لله فى المذهب البوذي، أم لا؟ ويرجع هذا الخلاف إلى طائفتين: إحداهما، لا تعترف بوجود الله ألبته، والأخرى، تقول بوجود الله. وإن كانت البوذية نفسها قد تركت هذه القضية غامضة.

وقد كتب محمد الخوارزمي، فى أواخر القرن الرابع الهجري، يقول: "السمنية: هم أصحاب سمن، وهم عبدة أوثان، يقولون بقدم الدهر، وتناسخ الأرواح... ويزعمون أن نبيهم (بوذاسف) الخارج فى بلاد الهند... وبقايا السمنية بالهند والصين" *(ص ٣٦)*، والكلدانيون ينسبون أنفسهم إليهم[٤].

وقد كتب عن أحوال الصين، المسعودى (٣٣٣هـ)، فقال: "ودينهم دين سلف، وهى ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحوًا من عبادات قريش قبل مجيئ

---

(١) الشهرستانى – الملل و النحل – عقائد الهند.

(٢) *ربما كتاب (المسالك والممالك) للمروزي،جعفر بن أحمد، ويكنى: أبا العباس ، وهو أول من ألف فى المسالك والممالك كتابًا، ولم يتمه. أما ابن خردازبه فقد ولد نحو ٢٠٥هـ / ٢٨٠هـ، كما ورد فى (الأعلام) للزركلى، ٤: ١٩٠، وهذا نقلاً عن (الفهرست) لابن النديم، مقال ٣ فن ٣.*

(٣) *ابن النديم صـ٣٤٧، كتاب البد والتاريخ – المجلد ٤ صـ١٩ .*

ملاحظة : "هذا الرجل لا يحسن الاقتباس، ويحمل النص ما لا يحتمل".

(٤) الخوارزمى ـ مفاتيح العلوم – صـ٣٦ لندن.

الإسلام. يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة، والجاهل منهم، ومن لا علم له، يشرك الأصنام بألوهية الخالق، ويعتقدها جميعًا"(١).

وصف بوذا

شخصية (بوذا) هي الشخصية الوحيدة في العالم، التي احتفظ الزمن بصورتها وتمثالها، على الرغم من مرور آلاف السنين، وعن طريق المتاحف شاع في جميع أنحاء العالم. وكان العرب يعرفون شكل (بوذا) وصورته معرفة تامة. وقد صوره ابن النديم بهذه الكلمات:

" فأما صفة البد الأعظم، فإنسان جالس على كرسي، لا شعر بوجهه، مغموس الذقن في النقم، ما هو مشتمل بكساء، كالمبتسم، عاقد بيده اثنين وثلاثين"، (وقد شاهد ابن النديم تمثالاً له في بغداد، وكان عليه كتابة)(*).

انتشار البوذية

كان عند العرب معرفة تامة بالبوذية، وأماكن انتشارها في العالم. وكما أوضح ابن النديم، فقد كانت البوذية الديانة السائدة في خراسان، وبلاد ما وراء النهر؛ أي أن البوذية كانت ديانة أهل وسط آسيا، قبل الإسلام، كما كان معلومًا أن البوذية ملة أهل الصين، وانتقلت إليهم من الهند. وقد ذكر الرحالة العرب هذا كثيراً. ويقول سليمان التاجر (٢٣٧هـ/٨٣٧م)، أول رحالة عربي، ورحلاته بين أيدينا؛ يقول في مذكراته:

---

(١) المسعودي – مروج الذهب – المجلد الأول – صـ٢٨٨ – لندن.

(*) *ما بين القوسين المعقوفين كلام لم يرد عند ابن النديم.*

"انتقلت عقيدة أهل الصين من الهند؛ ويقولون: إن تماثيل (بوذا) قد بناها الهنود لنا. ويؤمن البلدان (الصين والهند) بفكرة التناسخ، ويختلفان فى الأمور الأخرى"[1] (*ص ٥٤*). وهكذا نجد آثار هذه العقيدة فى جنوب الهند وجزرها.

بهكشو

كتب أبو زيد السيرافى عن أحوال جنوب الهند والصين، فى نهاية القرن الثالث الهجري، ذاكرًا فقراء البوذية، وقد أسماهم (بيكرجي)؛ ولعلها تحريف (بهكشو)؛ إذ تنطبق عليها معنى ومبنى. فيقول: "وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين، عراة، قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب؛ إذ كانت لا يقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة. وفى عنق رجل منهم خيط فيه جمجمة من من جماجم الإنس. فإذا اشتد به الجوع، وقف بباب بعض الهند، فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ، مستبشرين به، فيأكل فى تلك الجمجمة، فإذا شبع انصرف، فلا يعود لطلب الطعام إلا فى وقت حاجته (*أبو زيد – ص ٨٧*) [2].

وقد رأى بزرك بن شهريار ناخدا هذه الطائفة من الفقراء، حين وافى (سرنديب) عام٣٠٠هـ، وقد وصف أحوالهم، وأطلق عليهم اسم (بيكور). وكتب يقول: "... عباد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف، منهم البيكور، وأصلهم من (سرنديب)، وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلاً شديدًا، وهم فى الصيف عراة، حفاة، لا يسترون بشيء. وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة، أربعة أصابع فى مثل ذلك، مشدودة بخيط فى الوسط، وفى الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة، ومنهم من يلبسون الإزار مرقعًا من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى... ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت،

---

(١) سليمان التاجر – سفرنامه ـ مطبوعة باريس ١٨١١م صـ٥٧.

(٢) أبو زيد السيرافى – سفرنامه صـ١٢٧ – ١٢٨.

يأكل فيه ويشرب، على سبيل الاتعاظ بذلك، والتواضع" *بزرك بن شهريار – عجائب الهند – القاهرة ١٩٩٨م – ص ١٨٩ـ ١٩٠* [١].

وقال البيروني: إن هؤلاء الفقراء هم أتباع (مهاديو)، فهم على شاكلتهم، وأشكالهم تشبه أشكالهم. يضعون قلائد العظام في رقابهم، ويهيمون في الغابات[٢].

جوكى (الزهاد)

وقد ذكرت هذه الكتب أحوال الزهاد والفقراء؛ غير أن أغرب حادثة قد ذكرها سليمان التاجر، وذلك من خلال المشاهدة (وليس من رأى كمن سمع). ففى منتصف القرن التاسع الميلادي، كتب يقول:

"وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة فى الغياض والجبال، وقلما يعاشر الناس، يأكل أحيانًا الحشيش، وثمر الغياض.... ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً، إلا أن عليه شيئًا من جلود النمور، فقد رأيت رجلاً منهم كما وصفت، ثم انصرفت، وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيته على تلك الحال، فتعجبت: كيف لم تسمل عينه من حر الشمس؟" *(سليمان – ص ٥١)* [٣].

السنية والإسلام

كانت بداية تعلق المسلمين بالسنية فى أفغانستان وتركستان وخراسان، ثم تقدمت شيئًا فشيئًا، حتى وصلت الهند . وبدءًا من حكم البرامكة فى مدينة نووبار (نويهار) ببلخ، دخل أهل البلاد البوذيون فى دين الإسلام أفواجاً.

وحدث فى (السند) نفس المنوال، إذ بعد مرور بضع سنوات من فتح المسلمين لها، عندما بعث (عمر بن عبد العزيز)، الخليفة الأموي، يدعو أهلها إلى

---

(١) بزركـ بن شهريار – عجائب الهند – صـ١٥٥ – لندن.

(٢) البيروني – كتاب الهند – صـ٥٨.

(٣) سليمان التاجر – سفرنامة – صـ٥٠ – ٥١.

الإسلام، نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادي)، لبوا دعوته، ودخل الكثير من حكام (السند) فى دين الله أفواجًا[1].

وحدث الشيء نفسه فى (مليبار)، وذيبة المهل (مالديب)، وبعض الجزر الأخرى؛ وقد فصلنا الحديث عن ذلك فى عدة مقالات بعنوان (الإسلام فى الهند)، ولهذا لا حاجة إلى تكرار القول هنا.

السنية والحصرية

وقد ذكرنا سابقًا واقعة عن النظام المعتزلي، والفيلسوف الشهير، الذى عاش نهاية القرن الثانى الهجرى (القرن الثامن الميلادي). وكان النظام أستاذًا للمأمون بن الرشيد، الخليفة العباسي، وقد اتهمه أعداؤه أنه فى زمن شبابه، قد عاشر قومًا من الثنوية (المجوس)، وقوما من السمنية (السينية)، القائلين (بتكافؤ الأدلة)، وعلى أية حال، فقد وردت هذه العبارة فى كل الكتب بصيغة واحدة، وحدث التحريف فى لفظ واحد فقط، ألا وهو (السمنية) بدلاً من (السنية)، التى وردت، أول ما وردت، فى كتاب (الفرق بين الفرق) لعبد القادر البغدادي، المتوفى ٤٢٩هـ/١٠٣٧م.

إلا أن السمعاني، المؤرخ والمحدث الثقة، والمتوفى ٥٦٢هـ، قد نقل هذه العبارة كاملة فى كتاب (الأنساب)؛ ولكنه كتب (الحصرية) عوضًا عن (السنية)، حسبما وردت فى نسخة كتابه القديمة.

وقد نشرت جب ميموريل، عام ١٩١٢م، فى لندن، صورة زنكوغرافية من نسخة هذا الكتاب الأصلية، خلوًا من ذكر فرقة باسم (الحصرية). والغالب أن أحدًا قد أطلق عليها (الدهرية)، حسبما ورد فى كتاب (علم الكلام) لمولانا شبلى النعماني؛ بيد أن هذا تصحيف واضح. وقد أخذت أبحث عن الاختلاف بين كلمة (السنية) و(الحصرية) ردحًا من الزمن، وقد هدانى الله أخيرا إلى نتيجة أطمئن

---

(١) البلاذرى – فتوح البلدان ـ فتح السند – صـ٤٢٩.

إليها، بحمد الله. ومفادها أنه لا وجود لكلمة (الحصرية) فى نسخة السمعاني؛ وإنما صحف النساخ الكلمة، وأثبتوا الحاء والصاد المهملة، والأصل فى الحقيقة (الخضرية)، وقد هدانى ما كتبه الشهرستاني، المعاصر للسمعاني، والمحدث والفيلسوف المعروف، حين كتب يقول:

"وليس يشبه البد علىٰ ما وصفوه، إن صدقوا فى ذلك, إلا بالخضر الذى يثبته أهل الإسلام"[1].

وحيث إنه ثم افتراض تشبيه (بوذا) بالخضر؛ فمما لا مرية فيه، أن يكون أتباعه قد أُطلق عليهم لقب (الخضرية)، وأن السمعانى قد سمى هذه الفرقة (الخضرية)، فى معرض حديثه عن النظام، وعليه فإن (سمنية) البغدادى و(خضرية) السمعاني، شيء واحد.

المحمرة

أما الاسم الثالث الذى أطلقته كتب العرب على البوذية، فهو المحمرة؛ أى: من يرتدون الملابس الحمراء[٢]، ولعل المقصود بذلك اللون الأبيض، أو الزعفرانى؛ إذ إنه لباس رجال الدين (كهنة بوذا).

بوذا والأصنام

وقد أشير فى هذا السياق إلى لفظ (بت)، الذى نشأت منه كلمتا: عبدة الأصنام، والمعبد، ويعد هذا اللفظ بصفة عامة فارسياً، بيد أن أصل الكلمة (بدهـ)

---

(١) الشهرستانى – الملل والنحل ـ المجلد الثالث صـ٢٤٢، حاشية ابن حزم.

– *قد أضاف المؤلف جملة: "والذى ادعى وجود الخضر الملجمون والسحرة المسلمون"، إذ لا وجود لهذه العبارة عند الشهرستاني.*

(٢) – البيرونى – كتاب الهند صـ١٩١.

أى (بوذا)، والتى حرفت إلى (بد) ثم إلى (بت) أى (الصنم)، وحيث إنهم كانوا يعبدون صنم (بوذا)، فقد أصبح لفظ (بد) فى الفارسية (بت)، والجمع منه (بدده)[1].

تمثال صقلى فى الهند

كان العرب يعرفون جيدًا أن أكثر زبائن التماثيل والأصنام هم الهنود. وفى هذا المقام، ترد رواية عجيبة وغريبة؛ وهي: "غزا معاوية بن جديع الكندي، أيام معاوية بن أبى سفيان، سقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تغزى بعد ذلك. وقد فتح آل الأغلب بن سالم الأفريقي..... وقال الواقدي: سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الذرقي، سقلية، فأصاب ذهبًا وفضة مكللة بالجواهر، فبعث بها إلى معاوية، فوجه بها معاوية إلى البصرة، لتحمل إلى الهند، فتباع هناك، ليثمن بها " *البلاذرى ص ٢٣٧* . وقد اختلف المسلمون حول هذا الشأن، ولم يعملوا به[2]. كما ذكر بعض المؤرخين. بينما يقول البيروني: إن هذه التماثيل بعث بها إلى السند؛ لتباع هناك[3]. ونظن ظنًا أن البيرونى قد استند على رواية الواقدي، وهى الرواية التى نقلها البلاذرى فى (فتوح البلدان)[4].

وعلى أية حال، فقد أثمرت العلاقات الدينية بين العرب والهند، وأتت أكلها، وحدث بينهما التأثير والتأثر، وعرف كل منهما مذاهب الآخر ومعتقداته. وأرى أن العقيدة التى كانت سائدة فى الهند، تلك الفترة؛ هى البوذية. وأن أكثر المناطق تأثرًا

---

(١) ابن النديم – الفهرست ــ صــ٣٤٧، وسفر نامه – سليمان صــ٥٥ – ٥٧ ، وكتاب (البد والتاريخ) صــ١٩، و(الملل والنحل) للشهرستانى صــ٢٤٠.

(٢) نهاية الإرب – إمارة صقلية صــ٤٢٦.

(٣) البيرونى – كتاب الهند.

(٤) البلاذرى ــ فتوح البلدان صــ٢٣٥ لندن. *ونص العبارة : وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وسموا بأسماء العرب" ص ٢٤٩.*

بدين العرب هى المناطق، التى كانت ممر تجارتهم، ابتداء من معبر (كارومندل) ومليبار، وكولم إلى الكجرات، ومن السند حتى كشمير.

وكان التأثير العربى أكثر وضوحًا جنوبى الهند، وفى جزر الهند الجنوبية، ويرجع الفضل فى ذلك. فضلاً عن التجارة، إلى المداومة على زيارة أثر (قدم سيدنا آدم) فى سرنديب (سيرلانكا الحالية).

المقام المقدس عند العرب والهنود

ومن المعروف أن ثم آثار أقدام فوق سفوح جبال (سرنديب) أو (سيلان) أو (لنكا)، سمِّها ما شئت. والله وحده يعلم، منذ متى وآثار هذه الأقدام مركزٌ لعقيدة الناس. غير أن الشيء العجيب حقًا، أن تتواجد عقائد العرب المسلمين والبوذيين، وكافة الهنادكة؛ تعظيمًا لها وتكريمًا. وقد لا نجد لذلك مثيلاً فى عقائد الدنيا الأخرى؛ فالمسلمون يعظمونه، باعتباره أثر قدم سيدنا آدم – عليه السلام. وعند البوذية أثر أقدام (شاكهيه موني)؛ بينما يعتقد الهنادكة أنه أثر أقدام الإله (شيو)[1]، ولهذا يقدسونه، ويحج إليه الناس من كل حدب وصوب.

وكان الرحالة العرب المسلمون، ومتصوفة العراق، يتطلعون إلى زيارة هذا المكان فى شوق كبير، وقد ذكره الرحالة العرب فى رحلاتهم البحرية، وقد جذبهم الشوق إلى زيارته. وأخيرًا، فقد ثبت الإسلام أقدامه فى هذه الأرض، ووطد أركانه، (بالأسوة الحسنة)، وجولات الصوفية فى هذه الجزيرة، ذهابًا وإيابًا.

وفى عهد ابن بطوطة، كان حاكم هذه الجزيرة هندوكي، وكان عند أثر الأقدام غار خاجه الخضر، وغار بابا طاهر، كما تكثر الأفيال فى شيلاؤ (سالايم)، غير أن الأفيال لا تؤذى أحدا، ببركة دعاء الشيخ عبد الله الخفيف (ت ٣٣١هـ)، القطب الشيرازى الشهير.

---

(١) *شيو: أحد الآلهة الرئيسية فى العقيدة الهندوكية، يحمل صفات متناقضة، فهو المدمر، والملشئ، ورمز الشهوة، إلخ...*

ومنذ ذلك الحين، أى منذ ظهور كرامات هذا الشيخ؛ أخذ سكان هذه المنطقة من غير المسلمين يحترمون المسلمين، ويضيفونهم فى منازلهم، بين أهليهم وأطفالهم، وظل الناس يذكرون اسم الشيخ عبد الله الخفيف احترامًا وتقديرًا، حتى عهد ابن بطوطة.

الإسلام فى الهند

وقد أخذ الإسلام يوطد أقدامه شيئًا فشيئًا، فى كل من السند، والكجرات، وكارومندل، ومليبار، وذبية المهل (المالديف)، وسرنديب، وجاوه. وكان انتشار البوذية أيضًا بتأثير الهنود من ناحية، والصينيين من ناحية أخرى.

ومن خلال قراءة كتب الجغرافيا والرحالة فى القرون المختلفة، يتضح لنا أن تأثير الإسلام قد أخذ ينمو، ويزيد أمره بالسلم والأمن، لا بالحرب والجبروت. وكان ثمة فرصة كى يتعرف كل منهما على عقائد الآخر، ونختتم هذا الباب بذكر بعض أحداث هذا العصر المتفرقة.

إسلام أحد ملوك البنجاب

يقول البلاذري, الذى أرخ لما حدث أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى):

"حدثنى أبو بكر، مولى الكريزيين، أن بلدًا يدعى العسيفان[1] بين قشمير، والملتان، وكابل، كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنمًا، قد بنى عليه بيت ، فمرض ابن الملك، فدعى سدنة ذلك البيت؛ فقال لهم: ادعوا الصنم أن يبرئ ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعوناه، وقد أجابنا إلى ما سألناه؛ فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره،

(١) ذكر أمير خسرو فى كتابه (خزائن الفتوح) قلعة سيوان، التى تبعد عن دهلى بمائة فرسخ، والتى كان ملكها سيتل جند، فى عام ٧٠٨هـ.

وعلى السدنة فقتلهم، ثم دعا قومًا من تجار المسلمين، فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم، وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله – رحمه الله (٢١٨هـ/٢٢٧هـ)"[١].

مناظرة دينية بين العرب والهنادكة

لقد بلغت العلاقات بين العرب المسلمين والهنادكة والبوذيين شأوًا بعيدًا، أدى إلى عقد المناظرات الدينية بينهم جميعا. وفى نهاية القرن الثانى الهجري، حدثت واقعة، كانت فى عصر هارون الرشيد، والد الخليفة المعتصم؛ إذ أرسل أحد ملوك الهند رقعة إلى هارون الرشيد، يطلب منه (أن يرسل عالمًا من علماء دينه يعرفه الإسلام، وأن يعقد مناظرة مع أحد الكهنة الهنادكة).

وفى رواية أخرى، أن أحد حكام السند كان عنده عالم من علماء البوذية، فأضل الملك إلى أن يرسل رقعة، يقول فيها: "إنه ليس لديك دليل على صدق دينك إلا السيف، ولو كنت على يقين من صدق مذهبك، فأرسل إلى عالمًا يناظر أحد علمائي". وقد أرسل الخليفة إليه أحد علماء الحديث الأجلاء، سفيرًا لهذه المهمة. وعندما بدأ العالم الهندوكى (بندت) فى عرض اعتراضاته العقلية، شرع العالم المسلم يرد عليه بالأحاديث النبوية. فقال له العالم الهندوكي: إن هذا سند الذين يؤمنون بدينك، ودليل لهم. وفى رواية أخرى: إن العالم الهندوكى سأله: إن كان إلهك قادرًا على كل شيء، أقادر على أن يخلق كيانًا مثله؟ فقال العالم إن الإجابة على هذه الأسئلة من اختصاص علماء الكلام. فأعاد الملك هذا العالم، وأرسل رقعة إلى هارون الرشيد، قائلاً: لقد عرفت هذا من أسلافى منذ البداية، والآن، وبعد أن شاهدت بأم رأسي، تيقنت أنك لا تملك أى دليل على صدق مذهبك. فاستدعى الخليفة علماء الكلام، وعرض عليهم هذه القضية، فانبرى طفل من وسط هذا الجمع، وقال:

---

(١) البلاذرى – فتوح البلدان صـ٤٣٣.

"يا أمير المؤمنين، إن هذا الكلام محض لغو؛ فالله لم يلد، ولم يولد، وليس مخلوقاً؛ فلو فرضنا أنه سيخلق إلهًا آخر، فلن يكون مثله، لأنه سيكون مخلوقه، ثم، إذا كان مثله، فهذا تهوين بالذات الإلهية؛ وهذا محال على الله. ومثل هذا مثل شخص يقول: أيمكن أن يكون الله جاهلاً؟ أيمكن أن يموت ؟ أيمكن أن يأكل أو يشرب؟ أو ينام؟ والظاهر أن الله لا يفعل شيئًا من هذه الأشياء، ففى كل هذا تهوين لذاته العلية. فأعجب الجميع بهذه الإجابة. وأراد الخليفة أن يرسل هذا الغلام لمناظرة العالم الهندوكى فى الهند. إلا أن المخضرمين قالوا: يا مولاي، إنه لا يزال صبيًا، وإن كان أجاب عن سؤال؛ ليس معناه أن يجيب عن كل الأسئلة. فاختار الخليفة أحد علماء الكلام المشهورين، وأرسله إلى الهند".

وهناك رواية تقول: إنه ناظر هذا العالم البوذى وهزمه. وفى رواية أخرى: إن العالم البوذى خشى مقابلة هذا العالم الفاضل، بعد أن علم بفضل تمكنه فى العقليات والأديان؛ فما كان منه إلا أن دس له السم فى الطريق، قبل أن يصل إلى بلاط الملك.

وعلى أية حال، فإن هذه الرواية سواء أكانت صحيحة أم خاطئة؛ فإن الثابت هو، أن العلاقات والروابط الدينية بين العرب والهنود بلغت شأوًا بعيدًا فى الرقى والتطور.

ملك يعشق المناظرة

كتب المسعودي، الذى جاء إلى الهند عام ٣٠٣هـ، كتب عن أحوال كهمبايت يقول: "عندما وصلت هنا عام ٣٠٢هـ، كان ثم حاكم هندوكى من طبقة (البنيا) التجار، وكان من ولاة ملك مهانجر " ولبهـ رائـ"، وكان يعشق المناظرات، وكان يناظر من يوافى مدينته من رجال الدين المسلمين، وغير المسلمين"(١).

(١) المسعودى – مروج الذهب – المجلد الأول – صـ٢٤٥ – لندن.

مناظرة مع البوذيين

إن أتباع المذهب البوذى لا يؤمنون إلا بالعلم عن طريق الحواس الملموسة، وكانت مدينة البصرة، أواسط القرن الثانى الهجري، مركزًا لأصحاب الملل، والعقائد المختلفة.

وفى البصرة، جرت مناظرة بين واصل بن عطاء، وجهم بن صفوان، وبين علماء البوذية، فأفحمهم واصل بن عطاء بأدلته(1).

مسلم يعبد الأصنام

فى عام ٣٧٠هـ، كتب أحد الرحالة العرب المقدسيين (وأما الأصنام بهذا الإقليم، فصنمان بهيروا من حجر لا يصل إليه أحد له طلسم إذا وضع الرجل يده بقيت لا تصل إليه، وهما على شبه الذهب والفضة. كل من طلب عندهما حاجة زعموا أنها تقضى. وثم عين ماء خضراء، كأنها زنجار، أشد بردًا من الجليد، حجرها يبرئ الجراحات. والخدم يأكلون من الزنا، وعليه أوقاف من الزناة كثيرة. ومن أراد أن يكرم ابنته جعلها وقفًا عليه. فهما فتنة، ورأيت رجلاً من المسلمين، ذكر أنه ارتد، ورجع إلى عبادتهما، وافتتن بهما، ثم عاد إلى نيسابور، فأسلم، وهما طلسمان)(2).

الترجمة الهندية لمعانى القرآن الكريم منذ ألف عام

شرع الناس اليوم فى ترجمة القرآن الكريم إلى الهندية، لكن مما يبعث على الدهشة، أن القرآن الكريم قد ترجم إلى الهندية أو السندية منذ ألف عام تقريبًا. هذا ما نقله لنا بزرك بن شهريار، بقوله: "فمما فى الهند، ما حدثنا به أبو الحسن بن

---

(1) أحمد بن يحيى المرتضى – كتاب المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل– باب ذكر المعتزلة – طبعة حيدر آباد الدكن – سنة ١٣١٦هـ – أحوال واصل بن عطاء – صـ ٣١ ــ ٤٣.

(2) البشارى المقدسى – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم – صـ٤٨٣.

عمرو بن حمويه.... بالبصرة، قال: كنت بالمنصورة فى سنة ثمان وثمانين ومائتين، وحدثنى بعض مشايخها، ممن يوثق به، أن ملك الراء(الور الواقعة فى السند) وهو أكبر ملوك بلاد الهند، والناحية التى هو بها بين قشمير الأعلى(كشمير)، وقشمير الأسفل(البنجاب)، وكان يسمى مهروك بن رائق، كتب فى سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة (الواقعة بالسند)، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية، فأحضر عبد الله هذا رجلاً كان بالمنصورة، أصله من العراق، حاد القريحة، حسن الفهم، شاعرًا، قد نشأ ببلاد الهند، وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرّفه ما سأله ملك الراء، فعمل قصيدة ذكر فيها ما يحتاج إليه، وأنفذها إليه، فلما قرئت على ملك الراء استحسنها، وكتب إلى عبد الله، يسأله حمل صاحب القصيدة، فحمله إليه، وأقام عنده ثلاث سنين، ثم انصرف عنه، فسأله عبد الله عن أمر ملك الراء، فشرح له أخباره، وأنه تركه، وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام؛ خوفًا من بطلان أمره، وذهاب ملكه"[1]. (ص٧٤).

عدل دينى منقطع النظير لملك الكجرات

فى أواخر القرن السادس الهجري، حينما قامت حكومة شمس الدين آلتمش فى (دهلي)، وحكومة ناصر الدين قباجه فى (السند)، عقب السلطان الغوري. جاء إلى الهند عالم فاضل اسمه (محمد عوفى)، قادمًا من بخارى، وقد بدأ ترحاله إلى الخليج الفارسي، والسواحل العربية، وسائر موانئ الهند من أحد سواحل المنصورة غالبًا.

وفى أثناء تلك الرحلة، وصل إلى (كهبمايت)، وكان له فى ذلك الوقت كتابان: الأول (تذكرة شعراء الفارسية) الموسوم (لباب الألباب)، كتبه لوزير ناصر الدين قباجه؛ وقد نشرته سلسلة (جب) فى مجلدين بلندن. والثانى أكبر منه

---

(١) عجائب الهند – صـ٤ – لندن.

قليلاً، ألا وهو (جامع الحكايات، واللامع فى الروايات)، يذكر فيه المؤلف كل ما سمعته أذناه، أو رأته عيناه، أو قرأه فى كتاب، من وقائع وقصص ذات عناوين مختلفة.

وقد كتب هذا الكتاب لقوام الدين جنيدي، وزير السلطان ألتمش. ومازال هذا الكتاب مخطوطًا لم ير النور حتى الآن. ومنه نسخة محفوظة فى مكتبة دار المصنفين بالهند. وقد كتب (محمد عوفى)، فى الباب الثانى من هذا الكتاب: ذكر ملوك الطوائف وأحوالهم، وكتب قصة غريبة وعجيبة، نعرف منها علاقات الهنادكة والمسلمين، وكيف كانت تسير فى ذلك البلد، خلال فترة الحكم العربي، وكيف كان الحاكم الهندوكى يعامل رعاياه المسلمين، ويشملهم بعدله وإنصافه.

كانت رحلة (محمد عوفي) قبل عام ٦٦٥هــ، والواقع أن هذه القصة سابقة على ذلك التاريخ؛ إذ كان هذا عندما كانت الكجرات – خلا بعض المناطق – تخضع للسلطان محمود الغزنوي، ولقطب الدين أيبك، بعده بمائتى عام؛ حيث لم تشهد هذه المنطقة أى حكم إسلامى عداهما. يقول محمد عوفي:

"ذات مرة، ذهبت إلى كهمبايت مصادفة؛ حيث إنها مدينة على شاطئ ميناء، يقطنها جماعة من المسلمين، تقوم على خدمة المسافرين وإكرام وفادتهم، وهى تتبع مدينة نهروالة (القريبة من أحمد آباد بالكجرات). كما يقطنها فضلاً عن المسلمين، البعض من غير المسلمين. وحين وافيتها، سمعت ما يشبه قصة نوشيروان، وهو أنه فى عهد حكم الملك (جنكــ)، كان ثم مسجد به مئذنة، يؤذن فيها المسلمون للصلاة؛ فحرض المجوس (البارسين) الهنادكة على المسلمين؛ فحطموا المئذنة، وهدموا المسجد بعد أن قتلوا ثمانين من المسلمين. ففر إمام المسجد، وكان اسمه عليًا، وذهب إلى مدينة نهروالة، واستغاث ببلاط السلطان، إلا أن أحدًا لم يعره اهتمامًا. وعندما رأى الإمام هذا، راودته فكرة أن ينظم قصيدة باللغة الهندية (والغالب بالكجراتية)؛ يروى فيها الواقعة كاملة. واحتال فى معرفة موعد خروج الملك إلى الصيد".

وعندما حل يوم الصيد؛ أخذ القصيدة، وتخفى فى أحراش الطريق. وعندما مر موكب الملك، قفز الإمام أمام الملك مستغيثًا، ورجا الملك أن يسمع استغاثته. فأمر الملك موكبه بالتوقف، واستمع إلى مظلمته متأثرًا بها تأثرًا شديدًا. وأخذ القصيدة، وسلمها قائدًا من قواده؛ وطلب منه أن يقرأها له ثانية، حين تسنح الفرصة.

وعاد الملك من صيده، واستدعى وزيره، وطلب منه أن لا يزعجه أحد مدة ثلاثة أيام؛ لأنه سيخلد إلى الراحة فى قصره. وطلب منه أن يتولى إمضاء الأمور نيابة عنه، ثم ذهب إلى قصره.

وامتطى الملك ناقة سريعة العدو ليلاً، وذهب إلى كهبمايت، التى تبعد عن نهروالة حوالى أربعين فرسخًا. وقطع الملك تلك المسافة فى يوم واحد، وتنكر فى زى تاجر، ودار فى الأزقة والأسواق؛ ليتحقق مما حدث بنفسه، واستمع إلى كلام الناس فى الشوارع. وأجمع الجميع أن المسلمين قتلوا غيلة بلا جريرة، وأنهم ظلموا ظلمًا كبيرًا، وبعد التحرى والتحقيق، أخذ معه إبريقًا مملوءًا من مياه البحر، وأحكم غلقه، ورجع إلى عاصمته ممتطيًا الناقة، خلال أربع وعشرين ساعة.

وفى الصباح، دعا إلى عقد البلاط، ثم عرضت المظالم, وطلب عرض مظلمة إمام المسجد. ولما حضر الإمام إلى البلاط، أمره الملك أن يعرض مظلمته، فكذبه أمراء البلاط الهنادكة، واحتجوا على دعواه. فنادى الملك على الساقي، وأمره أن يحضر هذا الإبريق، وطلب أن يشرب كل واحد جرعة من مائه، وكل من شرب لم يستسغ أن يبلع الماء؛ وقال: إنه ماء أجاج. فقال الملك: :إننى لم أعتمد على أحد آخر فى هذا الأمر؛ حيث إننا نختلف معهم فى الدين. وعليه، فقد سافرت بنفسي، وتحريت هذا الأمر، وثبت لى بالدليل القاطع ما وقع على المسلمين من ظلم بين، ولا أقبل أن يقع ظلم على أحد فى مملكتي، وأمر بالقبض على كل من ارتكب هذه الجريمة من الهنادكة؛ ليعاقب على جرمه. وأمر بدفع تعويضات للمسلمين،

تقدر بحوالى مائة ألف (بالوتهرا) (العملة الكجراتية فى ذلك الوقت)، كى يمكنهم من إعادة بناء المسجد والمئذنة مرة أخرى. ثم خلع على الإمام حلته وأنعم عليه.

وهكذا بنى المسجد مرة أخرى، وظلت هذه العطايا ذكرى لصاحبها فى المسجد. وكانت تعرض على الزائرين فى كل عيد من الأعياد. ويقول محمد عوفي: (مازالت هذه الأشياء موجودة حتى الآن (٦٦٥هـ)، ومازال المسجد والمئذنة قائمين، إلا أنه حدث بعد عدة أيام أن هجم جيش بالو (بالا) على الكجرات، فدمر المسجد. وأخيرًا، قام أحد التجار العرب، ويدعى سعيد بن أشرف، ببناء المسجد مرة أخرى على نفقته الخاصة، وبنى حوله أربع قباب ذهبية، ومازال المسجد قائمًا، يخلد ذكرى الإسلام، فى ديار الهنادكة حتى الآن).

وحدة الوجود عند المسلمين

كانت لنظرية (وحدة الوجود) أشكال مختلفة عند كافة الشعوب، قال بها بعض الفلاسفة اليونان، وآمنت بها الفرقة الأفلاطونية فى الإسكندرية. وكانت هذه الفكرة عند اليهود والمسيحيين القدماء أيضًا. وحاول بعض المتصوفة المسلمين الدعوة لها بكل قوة؛ مما يدل على أن نظرية (وحدة الوجود) بها معانٍ كثيرة مختلفة. وقد شرحت هذه النظرية شروحًا عديدة، وكان شرحًا من شروحها مرادفًا ومطابقًا لمعنى الحلول.

وليس غايتنا من هذه القضية إلا بحثها من الناحية التاريخية. وقد برز هذا التساؤل كثيرًا، وهو: من أين أتى هذا المفهوم لمتصوفة المسلمين؟ وعن طريق البحث، فليس ثمة دليل يؤكد أن العرب عرفوه عن طريق (الويدانت) الهندوكية. علمًا بأن هذا المفهوم قد ظهر فى نهاية القرن الثالث الهجري، زمن حسين بن منصور الحلاج، ومحيى الدين بن عربي. ومما لا مرية فيه أن المتصوفة المسلمين

قد تأثروا بالويدانت الهندوكية، بعد مجيئهم إلى الهند(١). بيد أن هذا المفهوم كان موجودًا فى الفكر الإسلامى، الذى كان أول من قال به محيى الدين بن عربي، وهو من سكان الأندلس، وما سنحت له فرصة مقابلة الفلاسفة الهندوك، والمظنون أنه تأثر بالفلسفة الأفلاطونية، لا بالويدانت الهندوكية.

أما الحسين بن منصور الحلاج؛، فإن ما كان يدعيه من (وحدة الوجود) لم يكن مفهومًا لصوفى مسلم، يأخذ بالحيطة والاعتبار؛ بل كان نوعًا من الحلول، على غرار الذى يحدث لإله الهنادكة، ذى الكيان البشرى.

وقد فصل القول فى هذا كتاب التذاكر القدامى، كما اتضح من كتابة (الطواسين)، وثبت أيضًا أنه وافى الهند؛ لتعلم السحر والشعوذة وغيرها من الأعمال – كما يقول البعض – كى تساعده فى نشر أفكاره. وليس مستغربًا أن يكون قد أخذ مفهوم "وحدة الوجود" من الهند، ثم رحل إلى العراق(٢).

الوحدانية لدى الهنادكة

كما ثبت أيضًا أن مفهوم الوحدانية المنزهة، ونبذ عبادة الأصنام، قد جاء من جراء الإسلام. وهذا موضوع كبير يحتاج إلى بحث خاص، على أن يكون ملحقًا من ملاحق بحث آخر.

---

(١) فى الغالب أن أحد البنغاليين، حديثى العهد بالإسلام، فى القرن الثامن الهجري، اشترك مع أحد المتصوفة فى ترجمة كتاب " امرت كند " من السنسكريتية إلى العربية باسم " عين الحياة " ، ومنه ترجم إلى الفارسية، ثم ترجم من الفارسية إلى الأردية. وقد ترجم " دارا شكوه " كتاب "جوكــ بشت" فى الفارسية باسم " السر الأكبر "فى عصره.

(٢) لقد نشر أحد المستشرقين المتصوفة الفرنسيين لويس ماسينون (Lous Massiguan) كتاب "الطواسين" للحلاج، عام ١٩١٤م فى باريس، كما جمع فى مجلد مستقل بعض أحوال الحلاج، وواقعة قدوم الحلاج إلى الهند مذكورة فى كتاب (ابن باكويه)، الصوفى الشيرازي، انظر: صــ٣١٤، طبعة باريس.

الخاتمة

إن ما تم عرضه فى تلك الصحف عن العلاقة الدينية بين العرب والهنود، وبإنعام النظر فيه، يبرز هذا التساؤل: أسمح العرب والهنود، على الرغم من تدينهما الشديد، بأى شيء يعكر صفو هذه العلاقة؟ وهل حدث فى الماضى ما يمكن حدوثه فى المستقبل؟

الباب الخامس

المسلمون فى الهند (قبل الفتح)

المصادر:

وفضلاً عن المصادر السابق ذكرها، فقد أفدنا فى سرد المعلومات الواردة أدناه من كتب تاريخ السند، المكتوبة بالفارسية، والتى ما زالت مخطوطة لم تطبع، وإن كانت هذه المخطوطات متوفرة فى المكتبات. وجعلت نصب عينى الاقتباسات الكثيرة، التى قدمها السيد (اليت) فى الجزء الأول من كتابه التاريخى، وهذه المصادر هي:

١- جج نامه

أقدم كتاب عربى عن تاريخ السند، عنوانه " تاريخ السند والهند "، نقله محمد على بن حامد بن أبى بكر الكوفى من العربية إلى الفارسية، عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م؛ وذلك حين استوطن "اوج" (السند)، إبان عهد ناصر الدين قباجه. وقد فقد النص العربي، الذى لا يختلف عن الترجمة الفارسية إلا فى قصة وفاة محمد بن القاسم، وحادثة أسر بنت الملك "داهر"؛ أما بقية الوقائع التى اشتمل عليها، فتحظى بتوثيق من كتب التاريخ العربية القديمة.

٢- تاريخ معصومى

وهو كتاب فى تاريخ السند، ألفه مير محمد معصوم، عام ١٠١١هـ، فى عهد أكبر.

٣- بيكـ لار نامه

ألف هذا الكتاب حوالى عام ١٠١٧هـ/ ١٦٣٦م، وهو منسوب إلى شاه قاسم خان بن سيد قاسم بيكـ لار.

٤- تاريخ طاهرى

كتاب عن السند، ألفه مير طاهر بن سيد حسن القندهاري، عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٥٤م، أثناء أقامته بالسند.

٥- تحفة الكرام

هو آخر تلك الكتب، ألفه على شير، عام١١٨١هـ/ ١٧٦٧م. وقد ورد بشأن جميع المعلومات المبسوطة فى هذه المقدمة فى اللغة الأردية، كتابان جديران بالذكر:

١- تأليف مولانا عبد الحليم شرر اللكهنوي، عام ١٩٠٩م، وهو جزءان، عن تاريخ السند الإسلامية، غاية فى الإسهاب، اعتمد مؤلفه اعتمادًا أساسيًا على ما ورد من معلومات ومصادر فى الجزء الأول من كتاب تاريخ السند "لأليت"، وزاد عليه بعض تحقيقاته الخاصة، ورغم غزارة مادته المهمة، فإنه فى حاجة إلى التحقيق العلمى الحديث. وفضلاً عن أن مولانا قد اعتمد فى كتابه على كتاب "اليت" بصورة مطلقة، فقد فسر بعض القضايا بمثل هذه الأفكار، التى هى عندي- كما سيتضح بعد – بمعزل عن الصواب. كما أنه لم يذكر أرقام الصفحات أو رقم الجزء أو الباب، عند الإشارة إلى مصادره؛ لذا فإنه من الصعوبة بمكان أن نقتنع بما نقله من أحداث.

٢- أما الكتاب الآخر، فهو كتاب بيرزاده محمد حسين صاحب الدهلوى (ماجستير)، وهو عبارة عن ترجمة قام بها للجزء الثانى من رحلات ابن بطوطة، القسم الخاص بالهند. وأهم ما يميزه تلك الحواشى التى سطرها المترجم عن الأعلام والبلدان، التى ذكرها ابن بطوطة؛ والتى استقاها بدوره من الترجمة الإنجليزية، والبحث والتحقيق الذاتي.

إن تاريخ الهند الذى يدرس فى مدارسنا وجامعاتنا له هدف محدد، وفى ظل هذا الهدف تؤلف الكتب عن تاريخ الهند بالإنجليزية، وينبغى أن يطلق على محتوى

تلك الكتب (تاريخ الهند القديم). إذ كأنه جزء من تاريخ الإسكندر وخلفائه، فمنذ هذا الغزو، وقد انقلبت الهند رأسًا على عقب، فامتلكت ثروة من العلم والفن، واحتلت مكانًا فى تاريخ العالم.

ومن هنا، أصبح تاريخ الهند القديمة مجرد استقصاء لكل ما يتعلق بهجوم الإسكندر، ومسالكه التى اتخذها إبان زحفه؛ فضلاً عن تصحيح جميع الأسماء اليونانية المغلوطة، وعرض تصريحاتهم المغلوطة وترتيبها. وعندما يأخذ هذا المؤرخ فى الكتابة عن تاريخ الإسلام والهند، يخصص عدة سطور عن العرب البرابرة؛ (نعوذ بالله) من رسولهم السفاك، ومن خلفائه، وما قاموا به من حملات متكررة، وذلك فى صفحة أو صفحتين، ثم ينتقل مباشرة إلى غزنة؛ حيث يقف جيش السلطان محمود على أهبة الاستعداد للجهاد فى الهند.

ويقود السلطان جيشه، الذى يصل به إلى البنجاب والسند والكجرات فورًا، ثم يقفل عائدًا بعد السلب والنهب. ثم بعد مائة وخمسين عامًا يأتى السلطان شهاب الدين الغورى إلى الهند، ثم يدفع بشريط أحداث تاريخ الهند فى القرون الوسطى إلى الأمام. والسؤال هنا، كيف تلتقى حدود الهند واليونان على الرغم من بعد الشقة بينهما؟ ثم ألا تلتقى حدود أفغانستان والهند من ناحية، وحدود مكران والسند من ناحية أخرى مع القرب والجوار؟ أو لم يكن بين هذه الدول نوع من العلاقات السلمية والحربية؟ وهل كانت هذه العلاقات قائمة قبل إسلام هذه القبائل الحدودية أم لا؟ وفى النهاية، يجب أن تتصل عرى هذه الحلقات المفقودة، فهل لنا أن نخرج منها بنتيجة أم لا، بعد بحثها وتنقيبها؟

ومن الاطلاع على هذه الكتب التاريخية، يتضح لنا أن قدم مسلم لم تطأ هذه الأرض الطاهرة حتى قدوم محمود الغزنوى إلى هذه البلاد، وأن أى نوع من العلاقات بين المسلمين والهنادكة لم تحدث، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، وليس ثم أى نوع من الرحلات بينهما؛ ولكن الصفحات السابقة تروى لنا مدى ما كان بين هاتين الأمتين من علاقات شتى.

لقد كان ثمة روابط سلمية وحربية دائمًا بين الهند والبلاد الواقعة بعد ممر خيبر، وكانت هذه أحوال البلاد قبل الإسلام. وعندما أصبح ملك كابل فى قوة ومنعة، استولى على (ويهند) حتى بشاور، وعندما سنحت الفرصة أيضا (لراے لوهار)، أقام حدوده حتى كابل وقندهار.

وقد استولى ملك إيران على المنطقة من مكران حتى نهر السند أحيانًا، كما بسط ملك السند سيطرته من بلوجستان ومكران حتى حدود إيران أحيانًا أخرى. وكان هذا حال البلاد حتى القرن السابع الميلادي.

وعندما توالت الفتوحات الإسلامية، واعتنق سكان وقبائل هذه البلاد الإسلام؛ كانت الدولة السامانية – والتى اتخذت من بخارى عاصمة لها – أول الدول الإسلامية هناك. غير أنه لم يكن ممكنًا التفكير فيما وراء كابل آنئذ.

ثم قامت الدولة الصفارية لفترة وجيزة، بيد أنها كانت تتطلع إلى ما بعد كابل وقندهار، وقد أسند إليها (اسميا) ولاية السند من قبل الخلافة العباسية؛ إلى أن قام أحد القادة الأتراك البتكين (منتصف القرن الرابع الهجري) بالتمرد على حدود الدولة السامانية، واتخذ من (غزنة) مركزًا لحكومته المستقلة فى تلك المنطقة البعيدة، والثانية من أجل أن يحافظ على ملكه ونفسه من بطش سيده وهجماته عليه.

ثم ظهر السلطان (محمود الغزنوي)، الذى يعتبر الحاكم الثانى أو الثالث لهذه الدولة الغزنوية. وعلى امتداد فترة حكمه، الذى استمر ثلاثة وثلاثين عامًا، قام بحملات لا حصر لها على كل الدول والولايات التى تجاور غزنة. سواء أكانت هذه الدول مسلمة أم غير مسلمة، وضمها إلى دولته، التى صارت دولة عظيمة الشأن، مترامية الأطراف؛ حيث ضم دولة (كاشغر) الإيلخانية الإسلامية من جهة، ودولة سيده السامانية من جهة أخرى، ثم ضم دولة الديالمة، ودولة آل زياد فى (طبرستان) من جهة ثالثة. أما من الشرق فقد ضم بلاد الغوريين، التى لم تكن أسلمت بعد، ولم تكن أيضًا تابعة لأى دولة قط.

ثم قام بقلب أنظمة الأمراء العرب فى السند والملتان، وبعض ملوك لاهور والهند شرقًا، وبذا أقام دولته الغزنوية، التى كانت كلها دويلات إسلامية، ماعدا دولة الهند والغور.

وحيث إن الخوض فى تفاصيل هذه الأمور خارج عن نطاق هذا البحث؛ لذا أناشد الباحثين فى تاريخ الهند – بعد كتابة هذه السطور القليلة – جمع المادة العلمية عن العلاقات الأفغانية الهندية، قبل محمود الغزنوى بكل فحص وتدقيق، وأن يطلعونا على ما توصلوا إليه من نتائج جديدة.

مما سبق، يمكن القول: إن ما أبلاه المسلمون القادمون مع ملوك الهند عبر أبواب الجبال الأفغانية، لم يكن نتيجة الشعور بالواجب الدينى فقط، بل كان حلقة فى سلسلة من الصراعات القومية، امتدت عدة قرون.

على كل حال، كان هذا الوضع فى شمال الهند. أما فى جنوبها، فقد اتخذ شكلاً آخر؛ إذ فى عام ٤١٦هـ/١٠٦٤م قام محمود الغزنوى، ومن بعده شهاب الدين الغورى، عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، ثم قطب الدين أيبك، عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، قاموا بشن هجمات متوالية على (الكجرات) كانت أشبه بالسحاب الذى يسبق العاصفة. وبعد ذلك بمائة عام، دعا الوزير (مادهو) بعلاء الدين الخلجي، عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، حاكمًا على (الكجرات) إثر شقاق بينه وبين الملك (باگهينا). ثم ما لبثت فتوحات علاء الدين الخلجى أن امتدت من (الكجرات) حتى منطقة (كارومندل) على ساحل البحر، إلا أن هذه السلسلة من الفتوحات كانت أشبه بسفينة تشق عباب البحر إلى الأمام، وكلما تقدمت محا الماء آثارها من الخلف، وكأن هذه الفتوحات لم تعد أن تكون نزهة عسكرية لقائدها الخلجي، ليس أكثر.

وفى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، قام أحد قواد علاء الدين الخلجي، ويدعى ملك كافور، بفتح (كرناتك)، ثم بعدها (وفى عام ٧٢٧هـ/١٣١٣م) تأسيست سلطنة هندوكية عظيمة الشأن فى (بيجانگر) جنوب الهند، ظلت تحمى جنوب الهند قرونًا

طويلة من الغزاة المسلمين فى الشمال، حتى أن معبر (كارومندل)، الذى كان ملك (كافور) قد ضمه إلى فتوحاته، ليصبح دولة إسلامية، سقط بعد أربعين عامًا فى يد سلطنة (بيجانگر)، وأصبح تحت سلطانها.

وكان المقيمون العرب والمسلمون والعراقيون، بعيدين كل البعد عن دائرة هذه الحروب والصراعات والهجمات؛ لأنهم لم يكونوا قد أتوا من الشمال إلى الجنوب عن طريق البر، بل جاءوا عن طريق البحر، فاستوطنوا هذه المناطق، التى كانوا يترددون عليها.

والآن، أصبح الأمر واضحًا وضوح الشمس، وهو أن المناطق الإسلامية قد قامت فى جنوب الهند قبل شمالها، وهذا راجع إلى العلاقات التجارية. ولم ينته الأمر عند استيطان بعض المسلمين الوافدين لهذه المنطقة؛ بل إن سكان هذه المناطق أخذوا يعتنقون الإسلام. وهناك العديد من الروايات المشهورة، تزدحم بها كتب التاريخ والرحلات، وتتفق جميعها على أن هذا نتيجة أمرين: أحدهما، تردد التجار العرب من ناحية، وكرامة المتصوفة والدراويش القادمين لزيارة أثر أقدام سيدنا آدم – عليه السلام – فى (سرنديب) من ناحية أخرى.

سرنديب المقر الأول للمسلمين

كتب فرشته يقول: "بما أن العرب كانوا يأتون هذه الجزر تجارًا قبل الإسلام، وكان أهل البلاد يذهبون أيضًا إلى بلاد العرب، كان ملك (سرنديب) أول من اطلع على أحوال الإسلام والمسلمين؛ فاعتنق الإسلام فى عهد الصحابة – رضوان الله عليهم – عام ٤٠هـ (أى فى بداية القرن السابع الميلادي)"[١]. وما أشار (فرشته) إلى المصدر، الذى استقى منه هذه المعلومات، بيد أن ما ورد فى كتاب (عجائب الهند) القديم – الذى تم تأليفه عام ٣٠٠هـ – يؤكد هذه الرواية

(١) فرشته – المجلد الثانى – المقالة الثامنة – السند – صـ٣١١ نولكشور.

تمامًا. ويصف بزرك بن شهريار ناخدا، الذى كان بحارًا فى هذه الجزر، يصف سرنديب، فيقول:

"وذكرت... أمر عباد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف، منهم البيكور(١)، وأصلهم من سرنديب، وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلاً شديدًا، وهم فى الصيف عراة، حفاة، لا يسترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة، أربعة أصابع فى مثل ذلك، مشدودة بخيط فى الوسط، وفى الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة، ومنهم من يلبسون الإزار مرقعًا من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم، وينتفون لحاهم وشواربهم، ولم يحلقوا شعر العانة، ولا شعر الإبطين، وفى الأكثر يقصون أظافرهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت، يأكل فيه ويشرب، على سبيل الاتعاظ بذلك".

ومما لا مرية فيه أنه من هذا الوصف، ومما نقله الرحالة العرب عن هذه الجماعة، ندرك أنه ليس هناك أدنى شك فى أنها من أتباع الديانة البوذية.

ثم يأخذ صاحبنا (الناخدا) بسرد حكايته، فيقول: "وكان أهل سرنديب وما والاها بلغهم خروج النبى – صلى الله عليه وسلم، وتوفى أبو بكر – رضى الله عنه، ووجد القائم بالأمر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فسأله عن أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – فشرح له وبين.

ورجع وتوفى الرجل بنواحى مكران (بالقرب من بلوجستان). وكان مع الرجل غلام له هندي، فوصل الغلام إلى سرنديب، وشرح لهم الأمر، وما وقف عليه من أمر النبى – صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب – رضى الله عنه، ووصف لهم تواضعه، وأنه كان يلبس مرقعة، ويبيت فى المساجد؛ فتواضعهم لأجل

---

(١) غالبًا هذه هى الكلمة التى وردت فى كتاب " البدء والتاريخ "، ورحلات سليمان التاجر، وغيره، باسم "بيكرجين"، وأحيانًا باسم " بيكرتين ".

ما حكى لهم ذلك الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر – رضى الله عنه – المرقعة، ومحبتهم للمسلمين، وميلهم إليهم لما فى قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر – رضى الله عنه"[1] *(عجائب، ص ١٨٩ ــ ١٩٠).*

ومما يؤكد هذه الرواية أيضًا، أن السفن كانت تبحر من العراق إلى جزر الهند، زمن الحجاج الذى كان واليًا على العراق فى عهد بنى أمية، أواخر القرن الأول الهجري. وقد أهدى ملك سرنديب (التى كان يطلق عليها العرب جزيرة الياقوت)، نسوة ولدن فى بلاد المسلمين ومات آباؤهن، وكانوا تجارًا، فأراد التقرب بهن[2].

من هذه الواقعة، يتأكد لدينا أن استيطان المسلمين (سرنديب) قد بدأ فى القرن الأول الهجري، ولقد ذكر أبو زيد السيرافى (عام٣٠٠هــ)، أواخر القرن الثالث الهجري، إقامة التجار العرب فى هذه البلاد وترددهم عليها[3].

وصفوة القول، إننا نستطيع أن نخلص من كل هذه الروايات المتعددة إلى أن (سرنديب) كانت أول منطقة إسلامية عربية فى هذه البقاع، وأن ذلك يعود إلى القرن الأول الهجرى – السابع الميلادي.

المقر الثانى المالديب (مالديف)

كانت جزيرة (مالديف) المقر الثانى للعرب والمسلمين، والذين أطلقوا عليها اسم (ذيبة المهل)، بل كانوا يطلقون على كل هذه الجزر الصغيرة كلمة (ديبات)[4]، وقد ذكر ابن بطوطة أحوال هذه الجزيرة بشيء من التفصيل. وفى زمانه؛ أى فى

---

(١) عجائب الهند – صــ١٥٥ – ١٥٧.

(٢) البلاذرى – فتوح البلدان ــ عام ٢٧٩هــ – صــ٤٢٣.

(٣) أبو زيد السيرافى – صــ١٢١ – باريس.

(٤) كلمة " ديب " فى السنسكريتية تعني: الجزيرة.

عصر محمد تغلق (عام ٧٠٠هـ)، كانت الجزيرة كلها مسلمة. وكان سكانها من العرب والمسلمين، وكانت تحكمهم سيدة بنغالية، تدعى السلطانة خديجة.

وإن عصر ابن بطوطة، كان به العديد من العلماء والبحارة، اليمنين وغير اليمنين. وما ورد على لسانه بشأن إسلام أهلها: "إن أهلها كانوا عبدة للأوثان، وكانت تداهمهم مصيبة كل شهر على هيئة عفريت (جان) يخرج من البحر؛ فكانوا يواجهون هذا بوضع فتاة بكر بعد أن يزينوها في المعبد، الذى كان على شاطئ البحر. وعندما مر، مصادفة، رجل من المغرب يدعى الشيخ أبا البركات البربرى المغربي، انزاح هذا الهم بفضل دعائه وكراماته؛ فاعتنق الملك (شنوازه) ورعاياه الإسلام على يديه؛ لما رأوه من كرامات.

ويذكر ابن بطوطة أنه رأى على محراب المسجد، الذى شيده ذلك الملك، حديث العهد بالإسلام، رأى لوحةً مكتوبًا عليها: (اعتنق السلطان أحمد شنوازه الإسلام على يد أبى البركات المغربي). والخلاصة أنه منذ ذلك الوقت وأهالى هذه الجزيرة جميعًا من المسلمين، ومنهم عدد كبير من الأجناس العربية المختلطة".

المقر الثالث مليبار

ثبت من الروايات، أن المركز الثالث للإسلام والعرب كان فى أواخر سواحل الهند، الذى كان الهنادكة يطلقون عليه فى الزمن الغابر (كيرالا)، ثم أطلقوا عليه مليبار (وهو مكون من ملى بهار) أى: ملك الجبل.

وقد ذكر الجغرافيون العرب أن حدوده تمتد من نهاية (الكجرات) وحتى (كولم)، التى تقع فى تراونكور. وتقول رواية تحفة المجاهدين، التى نقلها (فرشته) ما يلي:

"كان التجار اليهود والمسيحيون، يترددون على هذه المنطقة قبل الإسلام وبعده، وما لبثوا أن استقروا بها، وحين مضى على الإسلام مائتا عام، كان ثم جماعة من متصوفة العرب والعجم فى طريقها إلى (سرنديب) التى يسمونها (لنكا)؛

لزيارة آثار قدم سيدنا آدم – عليه السلام؛ فتصادف أن ضلت سفينتهم الطريق إثر عاصفة هوائية، أدت بهم إلى ساحل كدنكلور (كدنكانور) بمدينة مليبار؛ فاستقبلهم مليكها زيمور (سامرى)[1] بحفاوة بالغة.

وقد ورد ذكر الإسلام فى ثنايا الحديث. فقال الملك: لقد سمعت من اليهود والمسيحيين عن أمر دينكم ورسولكم، وأود لو تحدثتم عن ذلك بأنفسكم. فشرح له المتصوفة حقيقة الإسلام بطريقة مؤثرة خلبت لب الملك. فأخذ منهم موثقًا، أن يمروا من عنده، فى طريق عودتهم. وقد أوفوا بالعهد.

فقام الملك بدعوة كل الأمراء، وقال: "إننى الآن أريد أن أكون مع الله"، ثم قسم الإمارة بين قواده قسمة متساوية. وتخفى مع المتصوفة إلى بلاد العرب، واعتنق الإسلام، وأخذ يشرح للمتصوفة نشر الإسلام فى مليبار، قائلاً: "عليكم أن تشرعوا فى التجارة مع المليباريين". وسلمهم رسالة إلى أمرائه، فحواها أن يحسنوا معاملة التجار الأجانب، وأن يقدموا لهم كل عون فى أمور الخير، وأن يسمحوا لهم ببناء دور للعبادة، وأن يسلكوا معهم سلوكًا حسنًا، يولد الرغبة فى الإقامة واتخاذ البلد وطنًا لهم.

ومنذ ذلك الحين، أخذ التجار العرب يتوافدون عليها، ويعيشون بها. وهناك رواية أخرى (يراها فرشته أصح من الأولى، رغم أننى أراها عكس ذلك)؛ وهى أن إسلام (زيمور) قد تم فى عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم. على أية حال، فقد عاد هذا الدرويش إلى (مليبار)، وبنى مسجدًا فى (كدنكور)، فأقام بعض الناس هناك، وذهب البعض الآخر إلى مدينة (كولم) بمدينة (تراونكور)، وبنوا بها مسجدًا، ثم أخذوا يتوسعون فى بناء المساجد، وإقامة التجمعات الجديدة فى مناطق (هيلى ماراوى)، و(جريتن)، و(دربتن)، و(فندرنيا)، و(بندارانى)، و(جاليات)، و(فاكنور)، و(منكلور).

---

(١) *أزيمور سامرى يهودى مثلاً؟*

كان هذا خلاصة ما قاله (فرشته). بيد أن هناك اقتباسًا أو أكثر من النسخة الأصلية (لتحفة المجاهدين)، على جانب كبير من الأهمية؛ إذ يظهر فيها أسلوب الحياة بعد تلك الفترة.

"كان التجار من كل أنحاء العالم يتوافدون بكثرة إلى موانئ ساحل الهند الغربي؛ مما نتج عنه تعمير مدن جديدة. وبسبب تجارة المسلمين، ازداد فيها عدد السكان، وتم بناء العديد من المنازل. وكان الملوك والزعماء يتجنبون التشدد مع المسلمين على الرغم من أنهم يعبدون الأوثان، هم وجنودهم. ولكنهم كانوا يوقرون دين المسلمين، ويحترمون شعائرهم. والدهشة التى يثيرها هذا الانسجام بين المسلمين وعبدة الأصنام، هى أن تعداد المسلمين لم يكن يتعدى عشر تعداد السكان.... وبصفة عامة، فإن معاملة جميع ملوك (مليبار) الهنادكة، كانت تتسم باحترام المسلمين وتقديرهم؛ إذ إن تعمير المدن الكثيرة فى بلادهم كان ثمرة إقامة التجار المسلمين بها "[١].

وفى (مليبار) انضم إلى المسلمين العرب، من التجار والمهاجرين الذين اشتهروا فى الهند بأسماء (موبلا) و(نائت)، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية قبل البرتغاليين، انضم إليهم السكان المحليون، الذين اعتنقوا الإسلام، أو تآخوا معهم بالمصاهرة.

كولم

تدخل مدينة (كولم) فى نطاق مدينة (تراونكور) الحالية. وكان البحارة العرب يطلقون عليها " آخر بلاد الفلفل، وهى على خور من البحر، وفيها حارة للمسلمين، وبها جامع"[٢].

---

(١) تحفة المجاهدين – نقلاً عن " دعوة الإسلام " للدكتور ارنلد – صـــ٣٨٢ – ٣٨٣.

(٢) تقويم البلدان – صـــ٣٦١.

المقر الرابع معبر أو كارومندل

يطلق العرب على السواحل الأخرى المواجهة لمليبار فى (مدراس) لفظ (معبر)، وتعرف الآن باسم (كارومندل)، وكان اسم (معبر) يحظى بشهرة كبيرة بين الرحالة والتجار العرب بصفة خاصة. وقد ذكرها ابن سعيد المغربي، أواخر القرن السادس، وقال: "إنها على مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، شرقى كولم، ولكنها تميل ناحية الجنوب"(١).

وقد كتب زكريا القزويني، عام ٦٨٦هـ، أى فى القرن السابع، كتب اسمها (مندل)، وأثنى على ما فيها من خشب العود" وهى مخزن العود"(٢). وبالقرب منها، تقع راس كمهرى (راس كمارى)، التى ينسب إليها العود الكامرانى (قامرونى)"(٣).

ثم كتب أبو الفدا، عام ٧٣٢هـ- ١٣١٣م عن (راس كمارى)، وذكرها باسم (راس كمهرى)(٤). وكتب عن حدود (معبر) يقول: "وأول بلاد المعبر من جهة المنيبار راس كمهري.... ومن معبر "منيفتن" (أى مسيرة ثلاثة أيام تقريبًا من كولم).... وهى على الساحل، وقصبة المعبر "بيرداول"، وهى مدينة سلطان المعبر، وإليه يجلب الخيول من البلاد"(٥).

ويبدو أن هذه المنطقة من الساحل، قد استخدمها العرب بعد عدة قرون. حيث أن اسمها يتردد أواخر القرن السادس. ونلاحظ فيها نفوذًا عربيًا لا بأس به إبان القرن السابع.

---

(١) تقويم البلدان – صـ٣٦١.

(٢) القزوينى ــ آثار البلاد ــ صـ٨٢.

(٣) تقويم البلدان – صـ٣٥٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تقويم البلدان.

وكتب كل من وصاف (ت عام ٧٢٨هـ)، ورشيد، مؤلف (جامع التواريخ) (ت عام ٧١٨هـ) كتابين في نهاية القرن الثامن، إبان عصر جلال الدين فيروز شاه الخلجي بالهند، فجاءت أقوالهما متقاربة الألفاظ؛ حيث يقولان:

"يمتد طول (معبر) من (كولم) وحتى سيلوار (نيلور)، على سواحل البحر مسافة ثلاثة فراسخ، وتضم الكثير من المدن والقرى، ويطلق أهلها على ملكهم، لقب (ديوار) أي: الثري.

وتجلب لهم السفينة الصينية الضخمة (جنك) حاجياتهم من الأقمشة والبضائع الثمينة، وذلك من بلاد الصين والسند والهند. وتحمل من (معبر) الأقمشة الحريرية، والأخشاب العطرة، فضلاً عن اللآلئ، التي يستخرجها أهلها من البحر. فتصل منتجاتها إلى العراق وخراسان والشام والروم وأوربا. ولا غرو، فهذه البلاد غنية بالياقوت، والأعشاب العطرة، كما تكتظ معابدها باللآلئ. إنها بحق مفتاح الهند.

منذ عدة سنوات، كان ملكها هو (سندر باند)، الذي تمتد سطوته مع إخوته الثلاثة، إلى عدة جهات مختلفة. وكان ملك تقي الدين بن عبد الرحمن بن محمد الطيبي، أخو الشيخ جمال الدين، هو وزيره ومستشاره الخاص، وقد عهد إليه بولاية (بتن)، و(ملي بتن) (بتم وملي بتم)، و(باول). وبما أن خيول (معبر) لم تكن على قدر كبير من الأصالة؛ لهذا أبرمت معاهدة بينهما، أن يجلب جمال الدين إبراهيم إلى الملك ألفًا وأربعمائة فرس عربي قوي؛ من ميناء كيش(قيس)(1)، وكان يستورد كل عام عشرة آلاف فرس من الموانئ الأخرى على الخليج العربي، مثل: القطيف، والإحساء، والبحرين، وهرمز، وغيرها، وقد كان ثمن الفرس الواحد يقدر بحوالي ٢٢٠ دينارًا ذهبيًا.

---

(١) قد سبق الحديث عن أحوال هذه الجزيرة، ضمن العلاقات التجارية بين العرب و الهند.

توفى الملك (ديوار) عام ٦٢٩هـ/١٢٩٣م، وتفرقت ثروته بين وزرائه ومستشاريه ونوابه؛ حتى إن الشيخ جمال الدين، الذى تولى الخلافة من بعده، يزعم أنه نال سبعة آلاف ثور محملة ذهبًا وجواهر، وأن تقى الدين، طبقًا للاتفاقية المبرمة من قبل، عين نائبًا له"[١].

وقريب من ذلك، زار (ماركو بولو) هذه الجزيرة، فوجد السلطة آنئذ يتقاسمها خمسة ملوك هنادكة، وقد استرعى انتباهه ما كان يتمتع به المسلمون من نفوذ تجاري، فوصف الصورة التى كان يتم بها استيراد الخيول من البلاد العربية، هكذا: "لم تكن الخيول متوفرة فى هذه المدينة، وكان التجار يجلبونها كل عام من ميناء (عدن) و(هرمز)؛ فيبتاع الملوك الخمسة كل عام ألفين من الخيول. وكانت قيمة الفرس الواحد خمسمائة دينار". كما ذكر ثروات هذه البلاد الثمينة، وأنها ثروات لا حصر لها.

معركة بين المسلمين من أجل ملك هندوكي

لقد أخضع السلطان علاء الدين الخلجى المنطقة من (الكجرات) وحتى (كارومندل) تحت سلطانه، ووقعت أثناء ذلك أول حادثة من نوعها فى تاريخ الهند؛ إذ ناهض مسلمو العراق غزاة المسلمين الأتراك، مناصرة لملك (كارومندل)، التى كانت عاصمتها (بيردهول). ولقد تناول (أمير خسرو) هذه الواقعة بالتفصيل فى (خزائن الفتوح)، هذا الكتاب التاريخي، الذى يتناول فتوحات علاء الدين الخلجى بإسهاب لا معنى له[٢].

لقد ناصر المسلمون العرب ملك (بيردهول)، باعتبارها أمانًا لهم، والتزامًا بميثاقهم؛ ومن ثم أخذوا يقاتلون مسلمى الأتراك بكل قوة. بيد أن مواجهة الأتراك

---

(١) ترجمة "جامع التواريخ"، اليت – المجلد الأول – صـ٦٩- ٧٠, وقد ذكر هذا (وصاف) بمزيد من التحقيق والدراسة. انظر: وصاف – المجلد الثانى – صـ٣٢-٥٣.

(٢) أمير خسرو (خزائن الفتوح)، طبعة الجامعة الإسلامية على جره ـ ١٩٢٧م – صـ١٥٧-١٦٢.

البواسل لم تكن أمرًا هينًا، حيث انهزم الملك؛ واستولى (كافور) قائد السلطان علاء الدين على البلاد. وأراد أن ينكل بكل من حاربه من المسلمين، لكن سرعان ما تذكّر كلمة التوحيد، مؤكدًا بذلك حسن إيمانه (١). وهذا من حوادث عام ٧١٠هـ/١٣١٠م.

أحد أخطاء السيد اليت

لخص (اليت) الجزء الثانى من كتاب (خزائن الفتوح)، بعنوان (التاريخ العلائي)، وقد ترجم فيه ما يتعلق بهذه الواقعة، ولخص عبارة أمير خسرو كالآتي: "هؤلاء المسلمون كانوا من الهندوكية، والإسلام بين بينٍ؛ أى لم يكن إيمانهم قويًا"(٢).

ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق؛ فالحق أن أمير خسرو قد وبخ هؤلاء المسلمين على مساندة الملك الهندوكي، ومؤازرته، بألفاظ تملؤها العبارات الإنشائية، والمبالغات الشعرية، ولم يكن هناك أى هدف من ذكرها، إلا أنهم أنصاف هنادكة(٣).

المقر الخامس الكجرات

كان المركز التجارى الخامس للعرب (الكجرات)، و(كاتهياوار)، وبعضًا من منطقة (كوكن) التى كانت تُخضع لحكومة الملك (ولبهـ راے) أو (بلهرا)، الذى نال الحظوة عند العرب، وكانت عاصمته (ولبهى بور)، وهى مدينة كبيرة بالقرب من مدينة (بهاونگر) الحالية. وكان العرب يسمونها دائمًا (مانگر) أو (مها نگر).

وقد ثبت من الأبحاث والاكتشافات الأثرية أن محيط هذه المدينة يمتد خمسة أميال، وكان بعض ملوكها يعتنق البوذية، والبعض الآخر يعتنق الجينية. وربما

---

(١) الجزء الثالث – صـ٩٧.

(٢) انظر: خزائن الفتوح – صـ١٦١ – ١٦٢.

(٣) خزائن الفتوح – صـ١٦١ – ١٦٢.

كانت نزاعاتهم السبب فى انهيار دولتهم. وكان ميناء (جيمور)، الذى أطلق عليه العرب (صيمور)، تابعًا لسلطانهم، وكان على درجة عالية من التطور، يليه فى هذا ميناء (كهيمايت)، وغيره.

لقد مدح سليمان – الذى كان أول رحالة وتاجر عربى يقوم برحلة، عام٢٣٥هـ – الملك (ولبهـ راے)، فكتب يقول:

"ويزعم أهل مملكة بلهرا أنه إنما تطول مدة ملكهم وأعمارهم فى الملك؛ لمحبتهم للعرب" *سليمان ص ٤١* [١].

يتضح مما نقلناه مدى ما كان يسود العلاقات بين التجار العرب والمستوطنين، وبين أهل البلاد الأصليين من حب ومودة. لهذا كثرت المناطق العربية المتعددة فى مدن هذه السلطنة، وظلت حتى نهايتها.

كما يتضح لنا موقف ملك "طاقن أو داكهن" نسبة إلى (الدكن) من المسلمين: "وهو يحب العرب كما يحب بلهرا" *ص ٤٢* م[٢].

ثم يحدثنا عن ملوك (الكجرات) أو الكوجر (جزر) بقوله: "وهم عدو العرب"[٣] *(ص ٤٢).*

وفى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، عندما كان بزركـ بن شهريار ناخدا يأتى بسفينة إلى هناك، كان العديد من السكان المسلمين والعرب فى هذه النواحي. والتقى بأحد البحارة الهنود، حديث العهد بالإسلام، وقد جنى ثروة طائلة من وراء سفنه، وأدى فريضة الحج أيضًا[٤].

---

(١) الرحلة – صـ٢٦ – ٢٧.
(٢) المصدر السابق – صـ٢٩.
(٣) المصدر السابق – صـ٢٨.
(٤) عجائب الهند _ صـ١٦.

والتقى أيضًا بالتاجر محمد بن سيراف، الذى كان مقيمًا بتهانه (بالقرب من بومباي) منذ أكثر من عشرين عامًا. وقد سافر إلى أكثر المدن، وكان عارفًا بأحوال هذه المدن جميعًا[١]. كما التقى فى جيمور (صيمور، التى تقع فى الكجرات)، وفسا (التى تقع فى فارس) بأحد المسلمين، ويدعى أبا بكر *الفسوي*[٢]. *(ص ١٩١)*. هذا وقد كان أحد أصحاب ملك (جوا) – التى سماها العرب القدامى صندابور – رجلاً مسلمًا يدعى موسى[٣].

هنرمند (القاضى الشرعي)

هذا لفظ فارسى يعني: أصحاب الفنون، إلا أن العرب استعملوه بمعنى جديد خاص بهم، ونطقوه (هنرمن) بحذف دال أخره، وجعلوا مصدره (هنرمند)، ومعناه الاصطلاحى هو (القاضى الشرعي) أو (مجلس الشورى)، الذى يعين من قبل الحكومات غير الإسلامية للبت فى قضايا المسلمين. وعندما كانت الحكومات العربية الإسلامية فى قمة عروجها وازدهارها، كان لها امتيازات خاصة، كالتى يحصل عليها الأوروبيون اليوم فى دول أفريقيا وآسيا، فلا تعرض لهم قضايا فى غير محاكم أوربا، فكان للعرب والمسلمين نفس الحقوق، فيما يتعلق بعلاقاتهم، وذهابهم وإيابهم، فى الدول غير الإسلامية، وقد مارس المسلمون هذه الحقوق فى تركستان، والروم، والصين، والهند[٤].

على أية حال، فقد أطلق لقب (هنرمند) أي: القاضى أو مجلس الشورى، على من يتولى هذه المهمة من قبل الحكومة غير الإسلامية.

---

(١) عجائب الهند – صـــ١٥٢.

(٢) عجائب الهند – صـــ١٥٧.

(٣) عجائب الهند – صـــ١٥٧.

(٤) ابن حوقل – صـــ٢٣٣.

وفى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، ازداد عدد السكان العرب فى صيمور (جيمور)، فقام ملكها بتعيين (هنرمند) اسمه العباس بن ماهان[1] *(ص ١٨١)*.

دولة ولبهـ راء

فى بداية القرن الرابع الهجرى، وافى المسعودى الهند، وكان فى (كهمبايت) عام ٣٠٣هـ. وجاب العديد من مدن (الكجرات). وفيما يلى شهادته عن ملوك ولبهـ راء (بلهرا)، التى رواها سليمان التاجر قبله بسبعين عامًا.

يقول: "وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه إلا البلهرا، فالإسلام فى ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة، فصاعدًا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم؛ لسنة العدل وإكرام المسلمين، وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله، كفعل المسلمين بجنودهم.... ثم يلى ملك الطافن *(ملك الكجرات)* مُوادع لمن حوله من الملوك، وهو مكرم للمسلمين" *(ج١ ص١٧٠)* [2].

فى صيمور عشرة آلاف من السكان

تزايد عدد السكان العرب والمسلمين المولودين فى صيمور (إحدى مدن دولة ولبهـ راء) يومًا بعد يوم؛ حتى بلغ تعدادهم عشرة آلاف نسمة فى هذه المدينة وحدها، إبان زيارة المسعودى لها، عام ٣٠٤هـ.

---

(١) عجائب الهند – صـ١٤٤.

(٢) المسعودى – مروج الذهب – الجزء الأول – صـ٣٨٢ – ٣٨٤.

بيسر

بيسر، والجمع بياسرة، ماذا يعنى هذا اللفظ؟ علمه عند ربي. بيد أن المسعودى ذكر أنه يعنى: المسلمون الذين ولدوا فى الهند. وهاكم إحدى فقرات المسعودى المهمة:

"وقد حضرت ببلاد (صيمور) من بلاد الهند، من أرض اللار، من مملكة البلهرا، وذلك فى سنة أربع وثلاثمائة، والملك يومئذ على (صيمور) المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين" بياسرة"، وسيرافيين وعمانيين، وبصريين، وبغداديين، وغيرهم من سائر الأمصار، ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد، ومنهم خلق من وجوه التجار، مثل: موسى بن إسحاق الصندالونى *(صندابوري)*، وعلى الهنرمة يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا، وتفسير الهنرمة؛ يراد بها رئاسة المسلمين، يتولاها رجل عظيم من رؤسائهم، تكون أحكامه مصروفة إليهم، ومعنى قولنا البياسرة؛ يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، يُدعون بهذا الاسم، وأحدهم (بيسر) وجمعهم (بياسرة)، فرأيت بعض فتيانهم، وقد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم" *(ج ١ ص٢١٠ /)* (١).

فى تهانه

فى نهاية القرن السادس الهجري، وفى عام ٥٨٥هـ، استقر ابن سعيد المغربى – المعاصر للسلطان شهاب الدين – فى المغرب ومصر، وعكف على تأليف كتاب فى الجغرافيا الفلكية، على غرار كتاب (قانون المسعودي) للبيروني، وجاء فيه ذكر بعض مدن الهند الجنوبية، فكتب عن تهانه يقول: "هى آخر مدن الكجرات (لار)، مشهورة على ألسنة التجار". "وأهل هذا الساحل الهندى جميعهم كفار، يعبدون الأنداد، ويسكنون معهم المسلمين" *ص ٣٩٥* (٢).

---

(١) المسعودى – مروج الذهب – الجزء الثانى – صـ٨٥ – ٨٦ – لندن.

(٢) نقلاً عن تقويم البلدان – أبو الفدا – صـ٣٥٩.

فى كهيمايت

فيما يتعلق بكهمبايت يقول: "وأهل هذا الساحل الهندى جميعهم كفار، يعبدون الأنداد، ويسكّنون معهم المسلمين"(١).

وفى عصر السلطان شمس الدين آلتمش، وفى عام ٦٢٥هـ، انتقل عوفي، مؤلف (جامع الحكايات) غالبًا، من السند إلى كهمبايت؛ فكتب يقول: "هناك (فى كهمبايت) عدد من المسلمين المتدينين، صحاح العقيدة. وكان لهم فيها مسجد جامع، وإمام وخطيب، وكان ملك (الكجرات) الذى كان يقيم فى (نهرواله)، يعاملهم بالعدل والإنصاف"(٢).

من كهمبايت إلى صيمور فى القرن الرابع الهجري

ابن حوقل البغدادي، الذى سافر من (الكجرات) إلى (السند) فى القرن الرابع الهجري، ذكر ما يلي:

"ومن كنباية إلى صيمور هو بلد بلهرا..... والغالب على هذه الناحية الكفر، ومنها مسلمون، ولا يلى عليهم من قبل بلهرا الذى فى زماننا هذا، إلا مسلم يستخلفه عليهم.... وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات، ويقام بسائرها الصلوات بالأذان فى المنار، والإعلان بالتكبير والتهليل، وهى مملكة عريضة"(٣) (صـ٣٢٠).

من كهمبايت إلى كارومندل فى القرن الثامن الهجري

إن كل الفتوحات التى تمت على يد ملك كافور من (الكجرات) إلى (كارومندل)، فى القرن الثامن الهجري، كانت أشبه بسحابة صيف. وإن استحال

---

(١) المصدر السابق – صـ٢٥٧.

(٢) جامع الحكايات – مخطوطة لعوفى موجودة بدار المصنفين، مدينة أعظم جره .

(٣) ابن حوقل – ص٢٣٣(لندن).

اقتلاع ما ثبت من روايات الفتوحات ونهايتها. وعلى الرغم من أنهما نالا استقلالهما، فجميع المناطق الفاصلة بين (الكجرات) و(كارومندل)، التى تمتد مئات الأميال، ظلت خاضعة لملكات الهنادكة وملوكهم.

وظل الإسلام قائمًا فى (الكجرات). أما كارومندل (معبر)، التى حكمها حسن كيتهلى وخلفاؤه حتى منتصف القرن الثامن، أى ما يقرب من أربعين عامًا، فقد استولى عليها ملوك (بيجانگر) بعد ذلك.

إن ابن بطوطة، الرحالة المغربى الشهير، قد قدم إلى الهند آنئذ. فى طريقه إلى الصين، حاملاً رسالة من قبل محمد تغلق، وافى من دهلى كهمبايت ثم كارومندل؛ حيث كانت تقلع السفن إلى الصين. فتحدث عن مسلمى المناطق التى مر بها فى طريقه، وعن حكامها. ومنه يتضح، كيف كانت إقامة المسلمين وأحوالهم، داخل الدويلات الهندوكية الخالصة.

كهمبايت

عبر ابن بطوطة (دولت آباد) و(ساگر) حتى وصل إلى (كهمبايت)، التى كانت كبرى موانىء (الكجرات). وكان هذا الميناء تابعًا لسلطنة (دهلى) اسميًا فقط، أما النفوذ والتجارة والأعمال والإدارة الفعلية فى يد ربابنة العرب وتجارهم، الذين استوطنوها منذ البداية. ومن ثم كانت مليئة بالعرب، خاصة العراقيين منهم، هذا إلى جانب الأعاجم من المسلمين، وفيها مساجدهم ومزاراتهم. يقول ابن بطوطة: "وهذه المدينة من أحسن المدن فى اتقان البناء، وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء؛ فهم أبدًا يبنون بها الديار الحسنة، والمساجد العجيبة، ويتنافسون فى ذلك.

ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرى... وإلى جانبها مسجده، وبها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز... وكان بهذه المدينة من الصالحين ناصر، من أهل ديار بكر... وكان بها أيضًا من الصالحين التاجر خواجه إسحاق، وله زاوية

يطعم فيها الوارد والصادر، وينفق على الفقراء والمساكين"[1] *الرحلة (ص ٥٥٠-٥٥٢)*.

گاوى وقندهار

كانت (گاوى) و(قندهار) فضلاً عن (بهروج) موانئ، وتبعًا (لآتين اكبرى): إن ابن بطوطة انتقل من (كهمبايت) إلى (گاوى)، ومنها إلى (قندهار). ويذكر أن هاتين المدينتين الساحليتين كانتا تحت سيطرة الملك (جالنسى)، الذى كان من ولاة الخليفة الإسلامي. وفيها يقيم المسلمون، ويعمل عدد كبير منهم حاشية للملك وقادة. ومنهم خواجة (بهره)، والناخدا إبراهيم، الذى فى حوزته ست سفن. وقد ركب ابن بطوطة سفينة لناخدا إبراهيم وأخيه فى (قندهار)، وكان اسم هذه السفن (جاگير) و(منورت)، وكان على متنها خمسون من رماة السهام، وخمسون جنديًا حبشيًا.

بيرم

جزيرة صغيرة، تبعد أربعة أميال عن الساحل الهندي، وهى (ليست بيرم المجاورة لعدن). فى البداية كان يحكمها الهنادكة، ثم استولى عليها المسلمون، ولقد بناها شهبندر التجار الكازرونى فى عهد ابن بطوطة، وعمرها المسلمون.

گوگه

أو گهوگه (بالقرب من بهاونگر الحالية)، كانت تحت حكم الملك (دنكول)، وهى مدينة واسعة، بها أسواق كبيرة، وقد رأى ابن بطوطة بها مسجدًا منسوبًا إلى سيدنا الخضر (والذى يعتبره العامة نصير الغرقى فى البحر)؛ ناهيك عن دراويش الشيعة.

جندابور

---

(١) رحلة ابن بطوطة – الجزء الثانى – مصر – ١٢٨ – ١٦٩.

ومن (گوگـه) وصل رحالتنا ابن بطوطة إلى (جندابور)، التى أطلق عليها (صندابور)، وبسبب هذا التشابه، كنت أعتقد فى وقت من الأوقات أنها (سنگابور) – والحق أنها كانت تقع بالقرب من (گوا) الحالية – وقد وجد فيها رحالتنا دولة السلطان المسلم جمال الدين الهنورى – وكان والد هذا السلطان بحارًا يدعى حسن– والسلطان جمال الدين من ولاة الملك هريب (والأصح هرير، وهو ملك مملكة بيجانگر). وكان فيها حارة للمسلمين، وأخرى للهنادكة، وكان فيها مسجد رائع، يضارع مساجد بغداد، فى رأى ابن بطوطة.

وبالقرب من جندابور، توجد معمورة ساحلية صغيرة فيها كنيسة، وفى أحد معابدها، التقى ابن بطوطة برجل توهمه ناسكًا. وفى الحقيقة إن هو إلا أحد المتصوفة المسلمين، كان لا يتحدث إلا بالإشارات فقط.

هنور

يطلق عليها (هونور) أيضًا، والتى تقع فى محيط (بمباي) شمال ولاية (كنرا)، وهى المركز الأصلى للسلطان جمال الدين. وقد التقى فيها ابن بطوطة بالشيخ محمد الناقوري، شيخ إحدى الزوايا، كما التقى بالفقيه إسماعيل، أحد معلمى القرآن، وبنور الدين على القاضي، وبإمام آخر.

والشيء العجيب الذى وجده ابن بطوطة فى هذه المدينة؛ انتشار التعليم بين الرجال والنساء على السواء، إذ كان بها ثلاثة عشر مكتبًا لتعليم البنات، وثلاثة وعشرون لتعليم الأولاد، ويرتدى النساء المسلمات (الساري)[(١)] مثل النساء الهنادكة تمامًا. ويعتمد أهلها على التجارة. وقد حصل ابن بطوطة من هذا الصوفى المسلم على رسالة وهدية، وكان سكانها من أتباع الإمام الشافعي؛ أى أنهم عرب، أو من أصل عربى.

---

(١) الساري: هو الزى الوطنى للمرأة الهندية، وهو عبارة عن قطعة من القماش، مختلفة الألوان، تلتف حول جسم المرأة.

مليبار

أقلعت مركب ابن بطوطة من (هنور) لترسو على سواحل (مليبار). ويصفها بأنها منطقة ممتدة، حدودها من (جندابور) إلى (كولم) على مسيرة شهرين، وهى بلاد الفلفل الأسود. وفيها اثنا عشر ملكًا بين كبير وصغير، وجيش الملوك الكبار قوامه خمسون ألفًا من الجند، أما الصغار فما بين ثلاثة أو أربعة آلاف جندي.

وتنتهى حدود كل ملك حيث تبدأ حدود الملك الآخر. وعلى حدود كل منطقة باب خشبي، مكتوب عليه اسم ملكها، وعلى الرغم من أن هذه المناطق كانت تحت حكم الهنادكة؛ فإن المسلمين كانوا يحظون بالرعاية والاحترام. وطوال المسافة ما بين (جندابور) حتى (كولم)، يوجد بيت خشبى على مسافة نصف ميل؛ فيه متاجر ومقاعد لراحة المسافرين، سواء أكان هذا المسافر مسلمًا أم هندوكيًا. وبجوار كل بيت بئر ماء، عليها هندوكى يسقى الناس. وكان المسلمون يشربون بأكفهم، أما الهنادكة فكانوا يشربون فى أوان. ولا يسمح الهنادكة بدخول المسلمين ديارهم، ولا يقدمون لهم طعامًا فى أوانيهم، وإن حدث وأكل أحد المسلمين فى إناء من أوانيهم؛ فإما أن يحطموا هذا الإناء، أو يعطوه لمن أكل فيه من المسلمين.

وفى الأماكن التى ليس بها مسلمون، كان الهنادكة يطهون الطعام للمسلمين، ويقدمونه على أوراق شجر الموز، وما تبقى من طعام يقدمونه طعامًا للحدآن والكلاب.

فى كل محطة من هذه المحطات، التى على طول هذا الطريق، ثم مسلمون يقيم عندهم المسافرون؛ فيشترون لهم كل شيء، ويطهون لهم الطعام. ولولا أن المسلمين فى كل محطة، لتعرض المسافرون من المسلمين لصعوبات شديدة؛ إذ لو رأى هندوكى مسلمًا ماشيًا فى الطريق لحاد عن هذا الطريق مباشرة.

أبو سرور

يقال إن أول من دخل مدينة (مليبار)، شخص يدعى (أبا سرور). وقد كتب أبو الفدا فى كتابه (الجغرافيا) أن اسم هذه المدينة (باسرور). ويقول ابن بطوطة: "وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة "أبى سرور"، وهى صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة، المعروف بأبى ستة؛ أحد الكرماء، الذى أنفق أمواله حتى نفذت" (ص ٥٦٠).

فاكنور(باكنور)

وصل ابن بطوطة من (أبى سرور) إلى (باكنور) و(هى الآن جنوب كنرى بمدراس، وتعرف باسم بركور، وكانت تخضع لسيادة مملكة بيجانگر)، ويصفها قائلاً : "وسلطان فاكنور كافر، واسمه باسدو(باس ديو)، وله نحو ثلاثين مركبًا حربية، قائدها مسلم يسمى لولا، وكان من المفسدين، يقطع بالبحر ويسلب التجار، ولما أرسينا على فاكنور، بعث إلينا سلطانها ولده، فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا إليه، فأضافنا ثلاثًا بأحسن ضيافة، تعظيمًا لسلطان الهند، وقيامًا بحقه، ورغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا... وبها جماعة من المسلمين، يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب، وعمّر بها حسين المذكور مسجدًا؛ لإقامة الجمعة" (ص ٥٦٠).

ومن هنا يصل ابن بطوطة إلى منجرور(منگلور)، ويصفها بأنها أكبر ميناء بحرى فى (مليبار)، ينزل بها أغلب تجار فارس واليمن، وملكها يدعى (رام ديو). وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين، يسكنون ربضًا بناحية المدينة، وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة، فيصلح السلطان بينهم؛ لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء، شافعى المذهب، يسمى بدر الدين المعبرى (كارومندل)... ورغب منا فى النزول إلى بلده، فقلنا: حتى يبعث السلطان ولده،

يقيم في المركب.... كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم، وأكرمونا إكرامًا عظيمًا، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام" (ص ٥٦١).

هيلى

لم تعد هيلى ميناء، بل حافة جبلية داخل البحر، تبعد ستة عشر ميلاً شمال (كنانور)، ويطلقون عليها جبل هيلى (ايلى). ويصفها ابن بطوطة: "وهي كبيرة، حسنة العمارة، على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين.... ومدينة (هيلي) معظمة عند المسلمين والكفار؛ بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة، مشرق النور، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين، وحسن الوزان كبير المسلمين، وبهذا المسجد جماعة من الطلبة، يتعلمون العلم، ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخة يوضع فيها الطعام للوارد والصادر، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها، ولقيت بهذا المسجد فقيهًا صالحًا من أهل (مقديشيو) يسمى سعيدًا، حسن اللقاء والخلق.... وسافر في بلاد الهند والصين(ص ٥٦١).

جرفتن(جربتن)

قد تكون هذه البقعة في منطقة (مليبار)، التي يطلقون عليها الآن اسم "سرى كندا بورم"؛ فيها مسجد من المساجد العديدة, التي شيدت في مختلف مدن (مليبار)؛ عقب إسلام ملكها في القرن الأول الهجري، ويصفها ابن بطوطة بأن: "ملكها يسمى "كويل"، وهو من أكبر سلاطين المليبار، وله مراكب كبيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن".

والتقى ابن بطوطة بعالم من علماء بغداد، كان أخوه من أكبر تجارها، وكان قد توفي، وخلف وراءه ثروة طائلة، "وعادة أهل الهند، كعادة السودان، لا يتعرضون لمال الميت.... إنما يبقى ماله في يد كبير المسلمين". ويشير ابن

بطوطة إلى ذلك، فيقول: "وكان له أخ كثير المال، له أولاد صغار، أوصى إليهم بهم، وتركته آخذًا فى حملهم إلى بغداد".

ده فتن (ده بتن)

كانت تحت سيادة الملك (كويل)، "وهى مدينة كبيرة، على خور كثير البساتين، وبها النارجيل، والفلفل، والفوفل، والتنبول، وبها القلقاص الكثير، ويطبخون به اللحم.... وفيها الباين الأعظم، طوله خمسمائة خطوة، وعرضه ثلاثمائة خطوة، وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر، فى كل قبة أربعة مجالس من الحجر.... وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات، فى كل طبقة أربعة مجالس.

وذكر لى أن والد هذا السلطان "كويل"، هو الذى عمر هذا الباين، وبإزائه مسجد جامع للمسلمين، وله أدراج ينزل منها إليه، فيتوضأ منه الناس ويغتسلون، وحدثنى الفقيه حسين: إن الذى عمر المسجد والباين أيضًا؛ هو أحد أجداد"كويل"، وأنه كان مسلمًا، ولإسلامه خبر عجيب نذكره... " *(ص ٥٦٢)*.

ويقال إن هذا الملك كان مسلمًا، وقد سمع ابن بطوطة قصة إسلامه من المسلمين هناك؛ تقول: "رأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة... وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب، صليت فيها ركعتين... وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة... ويكون فيها مكتوبًا بقلم القدرة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... وأخبرنى أنه إذا كانت أيام سقوطها، قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها فى خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى.

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد "كويل"... فإنه كان يقرأ الخط العربي، فلما قرأها، وفهم ما فيها، أسلم وحسن إسلامه... وحدثنى الفقيه حسين: إن أحد

أولاده كفر بعد أبيه، وطغى، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها، فاقتلعت... ثم أنها نبتت بعد ذلك، وعادت كأحسن ما كانت عليه" (ص ٥٦٢ - ٥٦٣).

بدهــ فتن(بدهـــ بتن)

ومن (بتن) وصلت السفينة إلى (بدهـــ بتن)، وفيها مسجد لأحد ملوك القرن الأول الهجرى، حديث العهد بالإسلام. ويصفها ابن بطوطة بقوله: "وهى مدينة كبيرة، على خور كبير، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر، يأوى إليه غرباء المسلمين؛ لأنه لا مسلم بهذه المدينة.... وأكثر أهلها براهمة، وهم معظمون عند الكفار، مبغضون فى المسلمين؛ ولذلك ليس بينهم مسلم... وأخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم؛ أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفًا لبيته، فاشتعلت النار فى بيته، فاحترق هو وأولاده ومتاعه، فاحترموا هذا المسجد، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها، وخدموه، وجعلوا بخارجه الماء، يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة؛ لئلا يدخله الطير" (ص ٥٦٣).

ومنذ ذلك الوقت، لا يجرؤ أى برهمى أن يمسه؛ بل إنهم يعنون به، ويحافظون عليه، ويوفرون مياه الشرب للمترددين عليه، ويضعون على بابه سلكًا، حتى لا تدخله الطيور.

بندا رانى

بعد ذلك، اتجه ابن بطوطة إلى (بندا رانى)، التى سماها (فندرينا)، وتقع على بعد ستة عشر ميلاً شمالى (كالى كت)؛ ويصفها بأنها: "مدينة كبيرة، حسنة، ذات بساتين وأسواق، وبها للمسلمين ثلاث محلات، فى كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل، وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر، وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان... وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين" (ص ٥٦٤).

كالى كت

يصل ابن بطوطة إلى ميناء (مليبار) الشهير (كالى كت)، فيقول: "وهو أحد البنادر العظام ببلاد المليبار، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل، وأهل اليمن وفارس، ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا، وسلطانه كافر يعرف بالسامري، شيخ مسن، يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيتهم بها.... وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين؛ فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون فى سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور، التى ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ الكازروني، نفع الله به، وبهذه المدينة الناخوده "مثقال"، الشهير الاسم؛ صاحب الأموال الطائلة، والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس.

ولما وصلنا إلى هذه المدينة، خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي، والشيخ شهاب الدين، وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر المسمى بـ"قلاج"، ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز عظيم ما رأيت قبله بتلك البلاد " *(ص ٥٦٤)*.

وقد استقبل ابن بطوطة بالطبول والأعلام من قبل نائب الملك، والشيخ شهاب الدين، وإبراهيم شاه بندر؛ باعتباره مبعوث السلطان محمد تغلق. ويصف ابن بطوطة ملكها بأنه أعدل أهل زمانه: "ومما اتفق نحو ذلك بقلقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها، غصب سيفًا لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى عمه، فوعده بالنظر فى أمره، وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلدًا ذلك السيف، فدعاه وقال له: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم! قال: اشتريته منه؟ قال: لا! فقال لأعوانه: أمسكوه، ثم أمر به، فضربت عنقه بذلك السيف".

هذا وكانت سفن الصين تبحر من (كالى كت). وقد اضطر ابن بطوطة للإقامة بها عدة شهور؛ ترقبًا لتحسن الأحوال الجوية. وكان قبطان السفينة التى ستقله إلى (كولم) رجل شامى يدعى سليمان الصفدي, وتصادف أن وضعت أمتعة ابن بطوطة على هذه السفينة خطأ؛ فأبحرت السفينة وهو لا يزال على الشاطئ، فرحل ابن بطوطة إلى (كولم) برًا، ليلحق بهذه السفينة.

كولم

تدخل هذه المدينة ضمن حدود (تراونكور) الحالية، ويصفها ابن بطوطة: "وهى من أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصوليين، لهم أموال عريضة، يشترى أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع، وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي، من أهل "آوه"، من بلاد العراق، وهو رافضي، ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك، وقاضيها فاضل من أهل (قزوين)، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم، اسمه تقى الدين، والمسجد الجامع بها عجيب... وسلطانها كافر يعرف بالتيرورى (أى صانع الزبد)، وهو معظم للمسلمين، وله أحكام شديدة على السراق والدعار... وأقمت بـــ"كولم" مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني؛ شيخ زاوية قالقوط" *(ص ٥٧٠)*.

شاليات

اضطر ابن بطوطة إلى العودة إلى (كالى كت) من هذا الطريق مرة أخرى، لما أصاب السفن من دمار. وفى الطريق نزل بمدينة (شاليات)، التى كان العرب يطلقون عليها (شاليات)، وتسمى حاليًا (شاليا)، وهى بالقرب من (كالى كت).

وقد امتدح ابن بطوطة صناعة الملابس فيها: "مدينة من حسان المدن، تصنع بها الثياب المنسوبة لها"، ومنها وصل ابن بطوطة إلى (هنوز) حتى وصل إلى

سندايور(جندابور) (وهى مدينة جوا بالهند). ويبدو أن الملك (ربما يراد به ملك بيجانگر)، قد انتزع هذه السلطنة من السلطان جمال الدين هنورى بعد عراك شديد. ومن هنا ركب ابن بطوطة، واتجه إلى المالديف (ص ٥٧٢).

مالديب

بها عدد كبير من المسلمين العرب، وكانت تحكمها السلطانة خديجة، وقد سبق الحديث عنها بالتفصيل.

سيلون

ومن مالديب، جاء ابن بطوطة إلى (سيلون)، وفى ذلك الوقت كانت فى حوزة "آريرى شكروتى" (اريا شكرورتى)، الذى كانت له مراكب تقطع فى البحر، حتى تصل إلى اليمن. وكان الملك يفهم اللسان الفارسى. وبسبب آثار قدم سيدنا آدم - عليه السلام - كانت قوافل المتصوفة والدراويش المسلمين، من العرب والعجم، تفد إلى هناك (ص ٥٩٣).

كالي

وبعد جولة، يصل رحالتنا إلى ميناء سيلون گالى (قالى)، التى تبحر منها اليوم السفن إلى أوروبا وأستراليا، وكان صاحب هذه السفن شخص يدعى الناخوده إبراهيم. وبعد أن ركب ابن بطوطة السفينة من "كلنبو" (كلمبور) و(بطاله)، عاد مرة أخرى على متن سفينة إبراهيم ناخوده إلى سواحل الهند، ومعبر (كاروماندل). (ص ٦٠٠).

معبر(كاروماندل)

حين وصل ابن بطوطة إلى (كاروماندل)، كان حاكمها هو غياث الدين الدامغاني، وهذه هى الحكومة التى قامت بعد فتح ملك كافور، قائد علاء الدين

الخلجي، لها، وكان ذلك حوالى عام ٧٤١هـ/ ١٣١٤م. وفى أواخر هذا القرن قضى ملك (بيجانگر) على الحكومة الإسلامية، حتى كانت مدينة (مدورا) عاصمة لها.

دوار سمندر

إن ولاية (ميسور) الآن، كانت نفسها مقرًا لحكم أسرة (هوسيالا) فى ذلك الوقت؛ وكانت عاصمتها (دوار سمندر)، وكان الحاكم آنذاك هو الملك (بلال ديو). وقد ذكر ابن بطوطة: "أن قوام عسكره يزيد على مائة ألف، ومعه نحو عشرين ألفًا من المسلمين؛ أهل العارة، وذوى الجنايات، والعبيد الفارين" -على حد قول ابن بطوطة. ولكن من أين أتى هذا الكم الغفير من اللصوص، وقطاع الطرق؟ فلربما كتب ابن بطوطة هذا وهو حانق عليهم، خاصة أنهم كانوا مناوئين لغياث الدين، ملك (كارومندل) آنذاك، والذى كان عديل ابن بطوطة.

بيجانگر

كانت سلطنة (بيجانگر) الهندوكية عظيمة الشأن، تمتد حدودها من نهر (كرشنا) وحتى ساحل البحر. والعجيب أن هذه السلطنة كانت فى صراع دائم مع الدولة البهمنية الإسلامية من ناحية البر، وكان لها فى الوقت نفسه، علاقات بملوك العرب، والفرس المسلمين، على امتداد البحر، وقد أرسل إليها مرزا شاه رخ، ابن أمير تيمور، مبعوثين برئاسة مولانا كمال الدين عبد الرازق.

وحين رجع، كتب عما شاهده من عظمة وازدهار فى دولة (بيجانگر)؛ فنقله خاوند شاه فى (روضة الصفا)، ثم (حبيب السير)، فى الجزء الخاص بالجغرافيا؛ تحت مسمى (منگلور)، و(كالى كت) و(بيجانگر).

هذا وقد كان جيش (بيجانگر) يضم عشرة آلاف جندى من المسلمين، وكان الملك يجل القرآن الكريم، ويقدر المسلمين بسبب قدراتهم العسكرية المتميزة، وقد بنى مسجدًا[(١)].

أعزائي: لعلكم سئمتم من التجوال فى هذه المناطق البعيدة؛ لكنكم أدركتم مدى انتشار المسلمين، وفى أى الأماكن والأحوال يعيشون؛ وكيف كانت علاقاتهم مع جيرانهم من الهنادكة والملوك؟ وكيف كانت العلاقات بين المسلمين والهنادكة تختلف عنها قبل الغزو الإسلامى فى شمال الهند؟ والآن دعونا نستمتع قليلاً بصحراء (السند).

السند: والمقر السادس

سبق أن أشرنا كيف تم الفتح العربى من ديبل (تهته) إلى الملتان، فى نهاية القرن الأول الهجرى، مع العلم أن المسلمين قد استوطنوا السند قبل ذلك الفتح؛ حيث فر أكثر من خمسمائة مسلم عربى من (مكران) إلى داهر، ملك السند[(٢)].

وقد كان محمد بن القاسم هو أول من فتح السند والملتان، فى نهاية القرن الأول الهجري، ثم ظلت السند من بعده تابعة للخلافة فى (دمشق) أولاً، ثم (بغداد)، مدة مائة وخمسة وعشرين عامًا.

وفى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادي)، استقل الولاة العرب هنا؛ نظرًا لضعف الخلافة المركزية بعد المعتصم بالله، وما فتئ الملوك الهنادكة أن استولوا على بعض أجزاء من هنا وهناك. وفى أماكن أخرى، أقام المسلمون دويلاتهم، التى ظل بعضها قائمًا فى السند، حتى هجوم السلطان محمود الغزنوى.

---

(١) فرشته ـ المجلد الأول – صـ٣٣٣ – نولكشور.

(٢) البلاذرى – فتح السند .

وكان منها دولتان كبيرتان نسبيًا: واحدة على مشارف السند فى المنصورة، والثانية على نهاية السند فى الملتان.

وقد ذكر جميع الرحالة العرب الذين زاروا هذه المنطقة، حتى أواخر القرن الرابع الهجرى، ذكروا أحوال هاتين الدولتين الإسلاميتين.

لقد ظهر العديد من العلماء والمحدثين المسلمين، فى كل من الملتان، والمنصورة، وديبل، وغيرها من المدن الأخرى، قبل قدوم السلطان، منهم أبو معشر نجيح السندهي، الذى كان فى القرن الثانى الهجري، وكان يعد إمامًا للسيرة، وكان يحظى باحترام الجميع وتوقيرهم، حتى أن الخليفة (المهدي) قد صلى على جنازته حين وفاته. وكان شاعر العربية السندهي، الشهير بأبى العطاء السندهي، من المعاصرين له. وعلى الرغم من أن نطقه لم يكن صحيحًا؛ فقد أشاد أهل العربية أنفسهم بأشعاره العربية، وأقروها. ولو أردنا أن نحصى العلماء البارزين، لبدأنا فى حكاية طويلة أخرى؛ لهذا سأكتفى بهذا القدر.

وبعد أن فتح العرب السند، أخذوا يقيمون مدنًا لهم. وتوافدت قبائل قريش، وكلب، وتميم، وأسد، واليمن، والحجاز على مدن السند المختلفة، وأقاموا بها. وقد ظلت دولتهم قائمة، على نحو ما، حتى منتصف القرن الثالث الهجري، وكانت تمتد من الملتان وحتى البحر؛ بيد أن الحرب الأهلية بين اليمنيين، والحجازيين العرب؛ بددت هذه السيادة، وسلبت منهم العديد من المناطق. ورغم هذا كله ظلت دولتا الملتان والمنصورة (السند) قائمتين حتى قدوم السلطان محمود الغزنوي؛ ومن ثم يتعين علينا أن نستوضح أحوالهما بشيء من التفصيل.

الملتان

لقد مر بنا أن العرب استولوا على هذه المدينة فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادي)، وظلت هذه السيادة قائمة حتى عهد السلطان محمود الغزنوي.

وقد ذكر ذلك جميع رحالة القرن الثالث والرابع الهجري، وظلت المدن الإسلامية قائمة هناك حتى غزو السلطان محمود الغزنوي، وما بعده.

كانت الملتان، وبعض المدن السندية الأخرى، خاضعة لحكم الأمويين فى (دمشق) أولاً، ثم تبدلت الأحوال بعد ثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا، وبالتحديد فى عام ١٣٢هـ؛ حيث اعتلى العباسيون عرش الخلافة، وانتقل مركز الخلافة من (دمشق) إلى (بغداد)، وظلت (الملتان) تابعة للدولة العباسية حتى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريبًا؛ أى حتى خلافة المعتصم.

ثم أصبحت هذه المدينة البعيدة رهينة قوة الخليفة أو ضعفه، إذ كان عماله يعلنون الاستقلال بها؛ إذا ضعف سلطان الخلافة. وفى تلك الفترة كانت الملتان، والسند، والمنصورة تحت سيادة ولاتها، ثم استقلت الملتان عن السند فيما بعد، وكان هذا الاستقلال فى منتصف القرن الثالث الهجرى غالبًا.

وليس المقصود بالملتان هنا المدينة وحدها، بل كل الإقليم الذى لم يكن ولاية، بل سلطنة كاملة. وقد كتب المهلبي، وزير مصر فى القرن الرابع الهجري: "أعمال الملتان واسعة، من المغرب إلى حد مكران، ومن الجنوب إلى حد المنصورة، ومن الملتان إلى غزنة مائة وستون فرسخًا "[1].

وفى عام ٣٠٠هـ، كانت (قنوج)، القريبة من نهر السند، ضمن حدود الملتان، التى كانت دولتها تضم مائة وعشرين ألف قرية فى ذلك الوقت[2] *(ج١ ص١٦٧)*.

وكان النظام السائد فى الدولة القديمة – ويجب أن يكون – أن الفرق الدينية غير الرسمية تلجأ إلى أطراف الدولة، والبلاد المجاورة. وقد ساد هذا النظام بين المجوس فى إيران، والمسيحيين فى الروم، والمسلمين فى البلاد العربية.

---

(١) أبو الفدا – تقويم البلدان – صـ٣٥٠ – باريس.

(٢) المسعودى – المجلد الأول – صـ٣٧٢ – باريس.

وقد ذكرنا سابقًا أن (قزدار) كانت مقرّا للخوارج من المسلمين، وأقاموا فيها دولتهم. وعليه، كانت الملتان ملجأ للفرقة الإسماعيلية، إحدى فرق الشيعة، ثم قامت دولتهم فيما بعد ذلك، وهم من العرب الخلص وكانوا ينتسبون إلى سامه بن لؤي.

من هم بنو سامه

إن لؤى بن غالب من أجداد قريش، وكان سامه ذلك من أولاد لؤى هذا، وقد أطلق على هذه الأسرة بنو سامه[1]، تلك الأسرة التى بلغت قمة مجدها فى عهد المعتضد (٢٧٩هـ- ٢٨٦هـ). وقصتها أنه كان عدد لا بأس به من الخوارج يقيم فى إقليم عمان العربي، فأسند إلى محمد بن القاسم مهمة ردعهم والقضاء عليهم؛ فتمت له الغلبة، وأقام دولته فى عمان، وعمل على نشر المذهب السنى، وهو أول أمراء هذه الأسرة. وقد ظل أولاده يتوارثون الحكم على هذه الولاية من بعده.

وفى عام ٣٥٠هـ، نشبت بينهم الحرب الأهلية، وهو الوقت الذى كان فيه القرامطة يحكمون قبضتهم على البحرين؛ فاستغلوا هذا الموقف، وتمكن أبو طاهر القرمطي، فى عام ٣١٧هـ، من إحكام السيطرة على عمان، وضمها إلى دولة القرامطة[2].

وكان ثمة اتصالات بحرية وتجارية بين عمان والسند، كما كانت علاقة بنى سامه بالسند (غالبًا) قديمة جدًا, وعليه فقد تولى أحد مماليك بنى سامه، وكان يدعى فضل بن هامان، وبعض أفراد أسرته أمر (سندان)، إحدى المقاطعات السندية، فى خلافة المأمون، وحتى عهد المعتصم عام٢٢٧هـ؛ بيد أن الحرب الأهلية قد قوضت حكمهم[3].

---

(١) لقد صرح ابن خلدون أكثر من مرة بأن أكثر العارفين بقريش لم يعترفوا بأن يكون بنو سامه من نسل سامه بن لؤى هذا. انظر: ابن خلدون – الجزء الأول – صـ٣٢٤، الجزء الرابع – صـ٩٣ – مصر.

(٢) ابن خلدون – المجلد الرابع – صـ٩٣ – مصر.

(٣) البلاذرى – صـ ٤٤٦ – لندن.

فلا غرو، أن يفر بنو سامه إلى الهند، ومنها إلى الملتان، بعد انهيار دولتهم فى عمان على يد القرامطة. وهكذا من الله عليهم بدولة جديدة؛ فقد كان بنو سامه هم أمراء الملتان، ثم أطلق عليهم (بنو منبه)، وكانت دولتهم أول ولاية مستقلة نصل إليها فى أواخر القرن الثالث الهجري.

بنو منبه

يعد ابن رسته (عام ٢٩٠هـ) أول من ذكرهم فى الجزء الخاص بالجغرافيا من كتابه (الأعلاق النفيسة), فيقول: "هناك قوم فى الملتان يزعمون أنهم من أسرة سامه بن لؤي[١]، ويطلق الناس عليهم اسم بنى منبه، وهم الحكام هناك، ويخطبون باسم أمير المؤمنين. وحين يأتى ملوك الهند لمحاربتهم، يخرجون بجيوشهم الجرارة من الملتان للقائهم ومحاربتهم، وتكون لهم الغلبة بسبب قوتهم، وثرواتهم، وشدة بأسهم "[٢].

وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام، يصل المسعودى (بعد عام ٣٠٠هـ) إلى الملتان، فيقول: "وأما صاحب المولتان، فقد قلنا: إن الملك فى ولد سامه بن لؤى بن غالب، وهو ذو جيش ومنعة، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار، وحول ثغر المولتان من صناعة وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليها الإحصاء والعد، وفيه، على ما ذكرنا، الصنم المعروف بالمولتان، يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور، والأموال، والجواهر، والعود، وأنواع الطيب، ويحج إليه الآلاف من الناس، وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم من العود القمارى الخالص، الذى يبلغ ثمن الأوقية منه مائة دينار، وإذا ختم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر الشمع، وغير ذلك من العجائب التى تحمل إليه. وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان، وعجز المسلمون عن حربهم، هددوهم بكسر هذا الصنم

---

(١) كتب بعض المؤرخين والرحالة (أسامه) بدلاً من (سامه)، على خلاف الأصح.

(٢) ابن رسته – الأعلاق النفيسة – صـ١٣٥ – لندن – ١٨٩٢م.

وتعويره، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك. وكان دخولى إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة، والملك به أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي" *(ج١ ص١٦٧)*[١].

وبعد المسعودى بأربعين عامًا، زار الإصطخرى الهند، عام ٣٤٠هـ، فكتب يقول: "وأما الملتان فهى مدينة نحو نصف المنصورة، وتسمى فرج بيت الذهب، وبها صنم تعظمه الهند، وتحج إليه من أقاصى بلدانها، وتتقرب إلى هذا الصنم فى كل سنة بمال عظيم، لينفق على بيت الصنم، والعاكفين عليه منهم، وسميت الملتان بهذا الصنم، وبيت هذا الصنم قصر مبنى فى أعمر موضع، بسوق الملتان... وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال، فإنما يأخذه أمير الملتان، وينفق على السدنة منه، فإذا قصدهم الهند للحرب، وانتزاع هذا الصنم، أظهروا كسره وإحراقه، فيرجعون، ولولا ذلك لخربوا الملتان، وعلى الملتان حصون، ولها منعة..... وخارج الملتان، على مقدار نصف فرسخ، أبنية كثيرة تسمى "جندر اور"، وهى معسكر للأمير، لا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلا فى الجمعة، فيركب الفيل، ويدخل إلى صلاة الجمعة، وأميرهم قرشى من ولد سامة بن لؤي، قد تغلب عليها، ولا يطيع صاحب المنصورة، إلا أنه يخطب للخليفة"[٢] *(الاصطخرى ص١٠٣ - ١٠٤)*.

وبعد الإصطخرى بسبعة وعشرين عامًا، أى فى عام ٣٦٧هـ، زار ابن حوقل البغدادى الملتان، فكتب عن كل ما يتعلق بها، إلا أنه لم يذكر شيئًا عما كان بها من الباطنية والإسماعيلية. على الرغم من أن هذا أمر جدير بالذكر.

وبعد ابن حوقل بثمانية أعوام، قدم البشارى المقدسى إلى الملتان، فكتب يقول: " وأهل الملتان شيعة، يهوعلون فى الأذان، ويثنون فى الإقامة "[٣].

---

(١) المسعودى – مروج الذهب – المجلد الأول – صـ٣٧٥-٣٧٦ – باريس.

(٢) الإصطخرى – نقلاً عن معجم البلدان – ياقوت – تحت كلمة (المولتان).

(٣) البشارى المقدسى ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم – الجزء الثانى – ليدن – ١٩٠٦م– صـ٤٨١.

"وأما بالملتان، فيخطبون للفاطمي، ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره، وأبدًا رسلهم وهداياهم تذهب إلى مصر"(١).

يتأكد لنا من خلال هذا كله أنه فى عصر ابن رسته، أى عام ٢٩٠هـ، وفى عهد المسعودى أيضًا؛ رغم التزامه الصمت، وفى عهد الإصطخرى، أى عام ٣٤٠هـ، كانت الحكومة فى هذه الدولة فى يد السنيين؛ وكان يخطب فيها باسم خليفة بغداد. وحتى عام ٣٦٧هـ، لم يحدث ما يستحق الذكر؛ ولكن فى عام ٣٧٥هـ، يبدو أن الإسماعيليين قد تولوا زمام السلطة، كما يبدو واضحًا تأثير الخليفة الفاطمى الإسماعيلى فى مصر. وكأن التحول الدينى للأسرة الحاكمة فى الملتان؛ لم يحدث عام ٣٤٠هـ، وإنما قد تم فى الفترة ما بين ٣٦٧هـ و٣٧٥هـ.

ومما يؤكد هذا القياس، أن الدولة الفاطمية فى مصر قد أسست عام ٣٥٨هـ، وانتقلت حاضرتها من مصر إلى أفريقيا عام ٣٦١هـ. وكان العالم الإسلامى آنذاك تتنافسه دولتان، هما: الدولة العباسية السنية فى (بغداد)، والدولة الفاطمية الشيعية فى (مصر). وكانتا كلتاهما مشغولتين بتوسيع رقعة ملكها فى العالم الإسلامي، على حساب الأخرى، لدرجة جعلت هذا التربص والترصد ينتقل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة. وكلما قامت دويلة إسلامية جديدة، أخذ دعاة كل منهما يؤدون واجبهم، فى ضوء هذا التربص والترصد. على الرغم من أنه كان عصر انحطاط للخلافة العباسية، وازدهار للدولة الفاطمية فى مصر، وكأن الدولة العباسية قد شاخت وهرمت، والدولة الفاطمية فى عنفوان شبابها.

وكان فى قيام الدويلات التركية الجديدة عوض؛ حيث كانت تسلم بسيادة العباسيين، كما كانت الدولة السامانية ببخارى خاضعة لهم، وظهر الغزنويون فى منتصف القرن الرابع الهجري، ومن بعدهم بأربعين أو خمسين عامًا، علت راية السلاجقة؛ وكان ولاء هؤلاء جميعًا – رغم قوتهم العسكرية – للدولة العباسية.

---

(١) أحسن التقاسيم – صـ٤٨٥.

ولما ذاع صيت السلطان محمود الغزنوي، بادر خليفة بغداد بإرسال ما خلعه عليه من خلعة، في الفترة ما بين ٣٨٧هـ - ٣٩٠هـ، وأنعم عليه بلقب (أمين الملة، ويمين الدولة). بعدها هاجم السلطان إسماعيلية الملتان، عام ٣٩٦هـ، وأسر أمير القرامطة فيها، عام ٤٠١هـ. وأغلب الظن أن الفاطميين المصريين، عندما أدركوا هذا الأمر، أرسلوا بسفيرهم إلى محمود الغزنوى، إلا أن السلطان اعتقده من الباطنية، وأمر بالقبض عليه، وهو فى الطريق، وأمر بتسليمه إلى مشهور سيد حسين بن طاهر بن مسلم العلوى(١) الذى أمر بقتله.

قرامطة الملتان

والسؤال الآن، أكان بنو منبه، الذين كانوا ملوكًا للملتان حتى عام ٣٤٠هـ، كما ذكر الجغرافيون العرب - من أسرة عربية سُنية؟ أهم أنفسهم الإسماعيليون العرب، الذين تحولوا من المذهب السنى إلى المذهب الإسماعيلى فيما بعد، أم أنهم أسرة أخرى؟ كل هذا لا نجد له إجابة فى دفائن الكتب التى تحت أيدينا، ولكن أبا الريحان البيروني، فى (كتاب الهند)، الذى ألفه عام ٤٢٤هـ، يقول فى وصف تاريخ معبد الملتان:

"عندما استولى القرامطة (الإسماعيلية) على الملتان، قام جلم بن شيبان - الذى كان يملك زمام الأمور هناك - بإغلاق مسجد محمد بن القاسم، كرهًا فى الأمويين، كما هدم المعبد، وشيد مسجدًا"(٢).

يتضح من هذا، أن القرامطة، التى كانت لها السيادة، أواخر القرن الرابع الهجري، أسرة أخرى، وأن مؤسسها جلم بن شيبان، الذى يشير اسمه أيضًا إلى

---

(١) جاء ذكر هذا المبعوث الفاطمى فى كتاب "زين الأخبار" - صـ٧١ - برلين.

(٢) كتاب الهند - صـ -٥١ لندن.

كونه عربيًا. وبعد ذلك، يذكر البيروني: "كان عصر القرامطة قبل عصرنا بمائة عام تقريبًا"(١).

وقد ألف (كتاب الهند) عام ٤٢٤هـ، فإذا رجعنا مائة عام، يكون المقصود هو ٣٢٤هـ. وكما علمنا بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن بنى منبه كانت حكومتهم عربية سنية، استمر حكمها حتى عام ٣٤٠هـ. لذا فإن عام ٣٢٤هـ لم يكن عام استيلاء القرامطة على الملتان، بل إن هذا العام هو عام ظهورهم على سواحل العراق، وخليج فارس.

والحقيقة أنه قد حدث خلط فى أسماء الفرق الإسلامية الثلاثة: القرامطة، والإسماعيلية، والملاحدة؛ وبما أنهم من الشيعة الإسماعيلية، ولا يتباينون إلا قليلاً، وأن تاريخ نشأتهم مختلف؛ فأولاهم كانت القرامطة، وقد ظهروا فى البحرين، وخليج فارس، والعراق، أواخر القرن الثالث الهجري.

بينما ظهر الإسماعيلية فى أفريقيا، عام ٢٩٦هـ، وقدموا إلى مصر، عام ٣٥٦هـ. أما الملاحدة، المعروفون بالباطنية، وهم أتباع الحسن بن الصباح؛ فقد ظهروا فى خراسان، بعد عام ٤٨٣هـ/١٠٩١م.

وقد ظهرت فى عهد الحاكم بأمر الله، خليفة مصر الإسماعيلى الفاطمي، فرقة أخرى فى الشام، اشتهرت بالدروز(٢). والسؤال الآن: إن الفرقة التى تولت الحكم فى الملتان، هى على وجه اليقين من الشيعة الإسماعيلية، ولكن أى فرقة من فرق الشيعة؟ أعتقد أنها من الفاطميين الإسماعيليين، والتى كان مقرها مصر.

أما ما ذكره بقية المؤرخين من أنها من القرامطة أو الملاحدة؛ فقد قالوه بناء على التشابه بين هذه الفرق. والدليل على ذلك أن الفترة التى تولى فيها الشيعة حكم

---

(١) كتاب الهند – صـ٥٦.

(٢) *مؤسسا هذه الفرقة هما: أبو عبد الله الدرزي، وحمزة بن علي، وقد قاما بالدعوة للخليفة الفاطمى، الحاكم بأمر الله. المنجد فى الأعلام – صـ٣٤٢ –٣٤٣ .*

الملتان، أى بعد عام ٣٤٠هـ، كانت فترة انهيار القرامطة فى كل مكان، ثانيًا: أن القرامطة كانوا يعترفون اسميا بسيادة خلفاء مصر الفاطميين، أما أهل الملتان فكان ولاؤهم للخلفاء الفاطميين، ثالثًا: أن البشارى المقدسي، أحد رجال الدين، قد سماهم الشيعة، وليس القرامطة، وذكر أنهم يخضعون للفاطميين. ثم إن شعائر القرامطة ليس فيها (حى على خير العمل) فى الأذان، أو الخطبة، أو غير ذلك من الطقوس، وهو ما ثبت وجوده عند إسماعيلية الملتان، من خلال وصف المقدسى لهم.

أما الدروز، فهم نتاج الفترة ما بين ٣٨٦هـ و٤١١هـ، وهو عصر متأخر جدًا، ثم بعدهم بمائة عام، ظهرت فرقة الباطنية أو الملاحدة؛ أى أتباع حسن بن الصباح؛ ومن ثم، فإن إطلاق بعض المؤرخين عليهم ملاحدة، يعد خطأ تامًا.

ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الناس قد ظهروا، أول ما ظهروا، باعتبارهم قرامطة، بسبب قرامطة عمان، والبحرين، وخليج فارس. وبعد زوال القرامطة، وانتهاء أمرهم، اختاروا المذهب الفاطمى الإسماعيلي، وقد كان القرامطة أيضًا أنصاف إسماعيليين.

إن مؤسس أسرة الإسماعيلية، التى كانت تحكم الملتان أثناء هجوم السلطان محمود، كان الشيخ حميد؛ طبقًا لكتب التاريخ الفارسية. وكان أتباعها من المسلمين الأوائل الذين قدموا إلى هذه البلاد، فى أثناء الهجوم على أفغانستان، ولم يتمكنوا من العودة بعد ذلك، ثم أخذوا يتصاهرون مع قبائل (البتهان)، التى تسكن جبال خيبر؛ ونتج عن هذا التناسل العربى الأفغانى قبيلتي: (اللودهي)، و(السوري)، وكان الشيخ حميد من قبيلة اللودهيين. وهذه القصة جميعها لا أساس لها؛ فيما يتعلق بأصل القبائل، شأنها شأن الأمور الأخرى؛ إذ لم يقرن اللودهيون أسماءهم بكلمة (شيخ) قط، ولم يكن لديهم أى نوع من هذه الأسماء.

والحقيقة، إن مؤرخى الفرس لم يكونوا على دراية تامة بتاريخ العرب فى الملتان؛ لذا فإنهم اضطروا أن يعتبروا رؤساء الملتان المسلمين من الأفغان.

والحقيقة أنه لا علاقة إطلاقًا بين الشيخ حميد والأفغان، والغالب أنه من نسل جلم بن شيبان، الذى سبق ذكره؛ نقلاً عن البيروني.

وإليك مزيدًا من التفاصيل

ذكر فرشته أنه حين شرع (البتكين، وسبكتكين) فى غزو حدود الأفغان، طلبا العون من ملك لاهور (جےبال)، فتشاور الملك (جےبال) مع ملك (بهاتيه)؛ وقررا جلب قبائل (البتهان)، حيث إن جيش الهند لا يستطيع تحمل صقيع الحدود فى الشتاء.

وهكذا فتح الشيخ حميد اللودهى مقاطعتى (لمغان) و(الملتان)، ثم عين الشيخ حميد واليًا له. وبهذا أنقذ الهند من هجمات البتكين عام ٣٥١هـ/٣٦٥هـ[١]. وما فى هذه الواقعة من جلب قبائل البتهان وتسكينهم؛ ونسبة الشيخ حميد إلى اللودهيين، إن هو إلا وحى خيال المؤلف.

وعندما توج سبكتكين ملكًا بعد البتكين عام ٣٦٥هـ، رأى الشيخ حميد قوة الغزنويين المتنامية، فقبل الصلح مع سبكتكين، وصار من رعاياه. وحين اعتلى السلطان محمود عرش غزنه ٣٩٠هـ، وأخذ يهاجم (بجراو) مَلك بهاتيه، عام ٣٩٥هـ؛ كانت دولة الملتان تحت إمرة حفيد الشيخ حميد، أبى الفتح داوود بن نصير بن الشيخ حميد، الذى وصفته كتب التاريخ الفارسية بالملحد والقرمطى (الإسماعيلي).

ويبدو أن أبا الفتح داوود، حين رأى شجاعة السلطان محمود الفائقة، سعى للانضواء تحت لواء الملوك الهنادكة، والاتحاد معهم، تجنبًا لأى مخاطر قد تلحق به؛ خاصةً أنه قد استعان بالملك (بجراو) ضد محمود الغزنوي، إبان هجومه على (بهاتيه)[٢].

---

(١) وردت هذه الواقعة كاملة فى كتاب (فرشته) – المجلد الأول – صـ١٧-١٨ – نولكشور.

(٢) وردت هذه الواقعة بأكملها فى "فرشته" – المجلد الأول – صـ٢٤ – ٢٥ – نولكشور.

آثر السلطان السلامة هذه المرة، إلا أنه فى العام التالى ٣٩٦هـ، عزم على معاقبة أبى الفتح، فأراد أن يتجه إلى الملتان، من بشاور مرورًا بالبنجاب؛ بدلاً من أن يذهب من أعلى الملتان مباشرة (أى من ديره غازى خان غالبًا)؛ حتى لا يشعر أبو الفتح بقدومه. وتمهيدًا لهذه الخطة، طلب من (آنندپال)، ملك البنجاب، أن يسمح لجيش السلطان بالمرور من بلاده إلى الملتان.

ويروى مؤرخون آخرون، أن أبا الفتح نفسه، هو الذى طلب يد العون من الملك (آنندبال)، حين علم بنية السلطان، فذهب الملك من لاهور إلى بشاور، ليوقف السلطان؛ غير أن جيش السلطان ألحق الهزيمة بآنندبال، ومر من بلاده حتى وصل الملتان؛ ليجد قلعة أبى الفتح قد أحكم غلقها.

وفى النهاية، تدخل أهالى المدينة وعقدوا الصلح؛ على أن تؤدى الملتان الخراج لغزنة باستمرار، وتاب أبو الفتح عن معتقداته وأناب، ووعد بتطبيق مذهب السنة فى دولته، بدلاً من المذهب الإسماعيلي. وبعد عدة سنوات (أى قبل عام ٤٠٢هـ) هاجم السلطان الملتان مرة أخرى، واقتلع جذور الإسماعيلية، وقبض على داوود بن نصير، وأخذه إلى غزنة، وزج به فى سجن قلعة الغور حتى لقى حتفه(١).

كان هذا مفاد ما أورده فرشته. وقد ورد فى كتاب (زين الأخبار) للكرديزي، والذى ألف حوالى ٤٤١هـ، فى عهد الغزنويين وحاضرتهم، ما يلي:

"خرج السلطان من غزنة متوجهًا إلى الملتان، لكنه خشى أنه لو قصد الملتان مباشرة، سيرًا فى الطريق المباشر؛ فلعل داود بن نصر (وليس نصير)، الذى كان واليًا على الملتان، يعلم بقدوم السلطان، فيجزم أمره؛ فسلك الطريق المخالف، وكان آنندبال فى طريقه، فطلب منه المرور، فرفض ولم يسمح له، فتعاركا؛ فلاذ (آنندبال) بالفرار إلى كشمير. وصل السلطان إلى الملتان، وحاصرها

(١) تاريخ فرشته – صـ٢٥ – ٢٧ – نولكشور.

سبعة أيام، وتوسط أهل المدينة، وتم الصلح على أن يدفع عشرين ألف درهم، فرجع السلطان محمود، وكان هذا عام ٣٩٦هـ... وعندما عاد السلطان، عام ٤٠١هـ، من غزنة إلى الملتان، واستولى عليها؛ قبض على أكثر القرامطة الذين كانوا فيها؛ فقتل بعضهم، وقطع أيدى البعض الآخر، ونكل بهم نكالاً شديدًا... وفى هذا العام، قبض على داوود بن نصر، وزج به فى قلعة الغور"(١).

وقد اختصرت كتب التاريخ العربية الثقات كل ما يتعلق بهذا الأمر؛ وتباينت فى بعض الأمور؛ إلا أنها تتحد فى بعض الأجزاء المهمة لهذه الواقعة. فعند ابن الأثير (٥٥٥هـ/٦٣٠هـ): "فى عام ٣٩٦هـ، هجم السلطان محمود على الملتان؛ لعلمه بما صار عليه والى الملتان، أبو الفتح، من تهمة الإلحاد (واتباع المذهب الإسماعيلي)، فدعا رعاياه إلى اتباع مذهبه الديني، فاستجابوا له؛ فلما علم السلطان بهذا؛ رأى من واجبه إعلان الجهاد ضده، حتى يرجع عن هذا الأمر، فخرج السلطان من غزنة متوجهًا إليه، فإذا به يجد الطريق مليئًا بالأنهار، التى تعلو مياهها الحدود، وكان عبور نهر (سيحون)، بصفة خاصة، غاية فى الصعوبة؛ لهذا أرسل السلطان برسالة إلى (آنندبال)، أن يسمح له بالمرور من بلاده إلى الملتان، فرفض؛ فهاجمه السلطان أولاً ...... وفر (آنندبال) إلى كشمير، وحين علم أبو الفتوح بقدوم السلطان، ولم يجد من العتاد والقوة ما يؤهله لمواجهته، هرَّب ثروته إلى سرنديب، وأخلى الملتان".

"فوصل يمين الدولة إليها ونازلها، فإذا أهلها فى ضلال يعمهون، فحصرهم، وضيق عليهم، وتابع القتال حتى افتتحها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم؛ عقوبة لعصيانهم" *ابن الأثير ج٩ ص ١٨٦* (٢). وقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه هذه الأحداث ذاتها(٣).

---

(١) الكرديزى – زين الأخبار – صـ٦٧ – ٦٨ – برلين.

(٢) ابن الأثير – الكامل – الجزء ٩ – صـ١٣٢– لندن.

(٣) ابن خلدون – الجزء ٤ – صـ٣٦٦.

نستنتج من هذا الاقتباس صحة اسم أبى الفتح إذ هو أبو الفتوح، ثانيًا: نستنتج علة عدم الذهاب إلى الملتان مباشرة، والتوجه إليها عن طريق البنجاب. أما مسألة تهريب أبى الفتوح ثروته إلى سرنديب، فلا أساس لها؛ إذ ربما لم يكن مؤرخو ذلك العصر يعلمون المسافة البعيدة بين الملتان وسرنديب، وربما ذكر اسم مدينة أخرى فى النسخة الأصلية، وظهرت سرنديب، فى الطباعة سهوًا.

ثم فى عام ٤٠٣هـ، أراد خليفة مصر الفاطمى أن يقيم علاقة مع السلطان محمود، إلا أن السلطان لم يقبل ذلك، وقتل سفيرهم، كما تقدم ذكره.

ثم هناك أمر بالغ الأهمية فى هذا الصدد، وهو جزء يتعلق بفقرة من كتاب الدروز المقدس؛ إذ إن خليفة مصر الإسماعيلى، الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ /٤١١هـ)، قد أنشأ فرقة خاصة فى مصر والشام، تُعرف بالدروز، ومازالوا يسكنون الشام ولبنان إلى الآن. على أية حال، تضمن كتاب الدروز (المؤلف عام ٤٢٣هـ) هذه الفقرة[١]:

"باسم أهل التوحيد فى الملتان والهند عامة، والشيخ بن سومر الملك (پال) خاصة". وكان عام ٤٢٣هـ هذا، يتزامن مع عهد السلطان مسعود، ولى عهد السلطان محمود، المتوفى عام ٤٢١هـ، ومن ثم نستنتج أن الملتان، صارت مقرًا لتلك الفرقة، بعد فتح الغزنويين لها.

فبعد ضعف الغزنويين، سيطر الإسماعيليون على الملتان من جديد، وفى عهد السلطان شهاب الدين الغوري، كان الإسماعيليون حكامًا على الملتان، وقد أكره عام ٥٧٢هـ على الخروج إلى الملتان؛ لاستخلاصها من أيدى القرامطة (الإسماعيلية)[٢]، ثم صارت جزءًا من سلطنة دهلى أخيرًا.

---

(١) ملحق اليت – الجزء الأول – صـ٤٩١.

(٢) فرشته – الجزء الأول – صـ٥٦، والمجلد الثانى – صـ٣٤٢ – نولكشور.

أصول حكام الملتان

مما سبق ذكره، يتبين لنا أن ثمة ثلاثة أصول متباينة لحكام الملتان:

١. منبه بن أسد، الذى كان من قبيلة بنى سامه بن لؤى فى قريش، والتى أطلق عليها أسرة بنى منبه، والتى عرفت لنا بشكل قاطع من عام ٢٩٠هـ إلى ٣٤٠هـ (أى من ابن رسته إلى الإصطخرى).

٢. جلم بن شيبان، وهو طبقًا لما ذكره البيروني، أول القرامطة أو الإسماعيليين الذين استولوا على الملتان، وما كان عهده عام ٣٤٠هـ، بل ما بين عامى ٣٦٧هـ و ٣٧٥هـ؛ أى فيما بين الإصطخرى، بل ابن حوقل والبشارى؛ لأن البشارى هو أول رحالة عربى تحدث عن العلاقات بين الملتان والفاطميين فى مصر.

٣. الشيخ حميد، وابنه نصير أو نصر، وابنه أبو الفتح أو أبو الفتوح داوود قرمط، وكان معاصرًا لألبتكين أو سبكتكين؛ أى يمكننا أن نعين زمن الشيخ حميد وابنه نصر (هذا لو كان قد تولى الحكم) فى الفترة ما بين ٣٥١هـ وحتى ٣٩٠هـ. أما أبو الفتح داوود فكان معاصرًا للسلطان محمود؛ لذا فإن فترة حكمه تمتد من عام ٣٩٠هـ وحتى ٣٩٦هـ (وهو عام الفتح الأول للملتان)، بل ربما إلى عام ٤٠١هـ (وهو عام الفتح الثانى للملتان، والقبض على داوود).

ولم يكن مؤرخو الفرس على علم بالأسرة الأولى والثانية، وقد كانوا من العرب الخلص، طبقًا لما ذكره الرحالة العرب. أما الأسرة الثالثة فإن مؤرخى الفرس يعرفون علاقات السلطان محمود بهم.

والصحيح أن من أطلق عليه (أبو الفتح)، كانت كنيته العربية (أبو الفتوح)، ومن أطلق عليه (نصير) فهو فى الأصل (نصر)، وفق أقدم وثائق الكرديزي؛ وتعود أهمية هذا التصحيح اللغوي؛ إلى أن فرشته وغيره نسبوا هذه الأسرة إلى

قبائل اللودهيين والبتهان؛ بيد أن هذه الأسماء: (شيخ حميد)، (نصر)، (داوود)، أسماء عربية خالصة، و(نصر) أكثر قربًا للأسماء العربية من (نصير)؛ وهكذا فإن كنية (أبى الفتح)، وهى (أبو الفتوح)، دليل كافٍ على عروبته، خاصة (أبا الفتوح) بصيغة الجمع، وإن لفظ شيخ لهو لقب تكريم فى العربية، وكان الإسماعيلية الباطنية يلقبون به الأمير؛ إذ إن ألقابهم كانت دينية أكثر منها سياسية[١].

ولهذا أطلقوا على حسن بن الصباح نفسه لقب (شيخ الجبال). ومن أجل هذه الأسباب كلها، فإن نسبتهم إلى قبائل اللودهيين والبتهان تبدو قصة مختلقة؛ فضلاً عن أن التسليم بإمكان ذيوع الإسلام بين قبائل البتهان فى هذه الفترة يعد أمرًا صعبًا. وعليه، فالصواب أن الشيخ حميد، والشيخ نصر، وأبا الفتوح داوود، وغيرهم، من العرب نسبًا، ومن جلم بن شيبان نسلاً .

وقد كتب أحد كتاب الهند الكبار – دون دليل – أن (أبا الفتوح) داود هو نفسه المعروف فى تاريخ السند باسم (سومره)، وأن (سومره) هو لقبه الهندوكي، و(أبا الفتح) هو اسمه الإسلامي[٢].

وقد وقع فى هذا الخطأ؛ نتيجة تصوره أن الملتان والمنصورة، كانتا تحت حكم أسرة واحدة؛ لهذا فعندما كان اسمه (أبو الفتح) فى سلسلة حكام الملتان؛ ينبغى أن يكون اسمه (سومره)، نسب السند؛ لأنهما فى الحقيقة اسمان لشخص واحد؛ علمًا بأن هذا خطأ مؤكد.

---

(١) *الحقيقة لا فرق بين أبى الفتح وأبى الفتوح، فكلاهما كنية؛ حيث إن الكنية فى العربية، ما صدر بأب أو أم، كما أن نصيرًا تصغير نصر، فلم كان الأخير أقرب إلى العربية؟ وأين موسى بن نصير، فاتح إفريقية والأندلس؟*

(٢) ذكره مولانا عبد الحليم شرر، فى الجزء الثانى من كتابه "تاريخ السند" – صـ٩، ثم صـ١٢، ويبدو أن مولانا قد أخطأ فى فهم ألفاظ البيت (المجلد الأول – صـ٤٩١).

ولا يمكن الاستدلال من الرسالة التى وردت فى كتاب الدروز، والتى أولها: "للموحدين فى الملتان والهند عامة، والشيخ بن سومر (راجا بل) خاصة" على أن ابن سومرى كان ملكًا على الملتان.

وما ذكر أحد من المؤرخين اسم (سومره)، عند الحديث عن سلسلة نسب أمراء الملتان، ولا يوجد أى سند يدعم ذلك. وكان السومريون بالسند فقط، وكانت بدورها مستقلة تمامًا عن الملتان؛ كما ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، من أقوال الرحالة العرب. وكل ما تشير إليه هذه الرسالة أن (أبا الفتح داوود)، أمير الملتان، وسومر، كانا من أتباع طريقة واحدة. والغالب أنه بعد انهيار حكومة أبى الفتح وأسره؛ عين سومر هذا شيخًا وإمامًا لقرامطة السند.

أما القول بنسب (الشيخ حميد)، وغيره إلى قبائل البتهان، فيمكن تخريجه على أن الشائع لدى الإسماعيليين؛ أنهم كانوا يلجأون إلى التقريب بين سائر الطوائف والعشائر بالقرابة الدينية والعصبية؛ من أجل نشر عقيدتهم.

وهكذا أشاع (الشيخ حميد)، وغيره، أنه فى الأصل بتهانى؛ بغية استمالة قبائل البتهان إليه. ولكن ليس له، ولغيره، أى علاقة بالأصل الهندوكي، ونسبه. كما أن أسماءهم غير هندية.

الحضارة الهندية الإسلامية فى الملتان

لقد حدث نوع من التزاوج المثمر بين الحضارتين العربية والهندية؛ حيث إن المدينة صغيرة وجميلة، فيها أسواق متخصصة لأصحاب الحرف والمهن، ويحيط سور أطرافها الأربعة. وكان المعسكر الحربى الخاص بالأمير، خارج المدينة، به عمائر مرتفعة.

وكما ذكر البيروني: "إن فى المدينة مسجدًا، بناه محمد بن القاسم (ما بين ٣٤٠هـ/٣٧٥هـ غالبًا). وقد أغلقه جلم بن شيبان، الإسماعيلى القرمطي؛ باعتباره أثرًا أمويًا، وهدم معبد إله الشمس المشهور، وأقام عليه مسجدًا".

وعندما فتح السلطان محمود الملتان، عام ٣٩٦هـ أو ٤٠٣هـ، فتح المسجد الأول، وترك الثانى دون ترميم، وقد تداعى بنيانه زمن تأليف البيرونى كتابه (عام ٤٢٤هـ)، وصار ميدانًا تنبت فيه أشجار الحناء.

وقد ذكر الإصطخرى، عام ٣٤٠هـ: "إن أمير الملتان يذهب لصلاة الجمعة فى المسجد الجامع، راكبًا فيلاً ، وكان هذا تقليدًا خاصًا بالهنادكة؛ فاتبعه الأمراء العرب. وقال: إن أهل الملتان يرتدون الكرته(١)، وإن جلهم يتحدثون الفارسية والسندية".

والخلاصة أنه حدث نوع من التمازج، والتشابه بين الهنادكة، والمسلمين، فى الأزياء واللغة. وفيما يتعلق بالأزياء واللغة، ذكر ابن حوقل (٣٦٧هـ) ما يلي:

"وزى المسلمين والكفار بها واحد، فى اللباس، وإرسال الشعر، ولباسهم الأزر والميازر؛ لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زى أهل الملتان... ولسان أهل المنصورة، والملتان، ونواحيها، العربية والسندية، ولسان أهل مكران، الفارسية والمكرية، ولباس القراطق فيهم ظاهر، إلا التجار فإن لباسهم القُمص والأردية، كسائر أهل العراق وفارس"(٢). صـ ٣٢٥.

وحين أتى البشارى المقدسي، عام ٣٧٥هـ، رسم صورة واضحة عن حضارة وأخلاق هذه البلاد، فيقول:

---

(١) *زى خاص بالرجال؛ هو عبارة عن قميص، وسروال طويل، يشبه الباجامه.*

(٢) ابن حوقل – سفر نامه – صـ٢٣٢ – لندن.

"والملتان تكون مثل المنصورة، غير أنها أعمر، ليست بكثيرة الثمار، غير أنها رخيصة الأسعار... والتجارة حسنة نشأ كل دور سيراف من خشب الساج طبقات، ليس عندهم زنا، ولا شرب خمر، ومن ظفروا به يفعل ذلك، قتلوه، أو حدوه، ولا يكذبون فى بيع، ولا يبخسون فى كيل، ولا يخسرون فى وزن، يحبون الغرباء، وأكثرهم عرب، شربهم من نهر غزير، والخير بها كثير، والتجارات حسنة، والنعم ظاهرة، والسلاطين عادلة، لا ترى فى الأسواق امرأة متجملة، ولا أحدًا يحدثها علانية، ماء مريء، وعيش هنيء، وظرف ومروة، وفارسية مفهومة، وتجارات مفيدة، وأجسام صحيحة، إلا أنها سبخة بليدة، ودور ضيقة، وهواء حار يابس، وهم سمر وسود"(١) *(ص ٤٨٣)*.

"ودراهم الملتان على عمل دراهم الفاطمي، وينفق فيها القنهري"(٢).

المنصورة

(برهمن آباد)، هى أكبر المدن المشهورة لدى العرب، واسمها الهندي، كما ذكره البيروني، هو (بهمنوا)، وقد عرفها أهل إيران باسم (برهمن آباد)، وهو الاسم الذى شاع بين المسلمين. وتبعًا لبعض المتطلبات السياسية والأمنية، اضطر العرب أن يقيموا لأنفسهم مدناً خاصة بهم، أشهرها: المحفوظة، والبيضاء، والمنصورة.

وحين ضعفت شوكة العرب، أواخر عصر بنى أمية، أخذ السندهيون يدفعون بالعرب تجاه السواحل، فقام الحكم بن عوانة، والى العرب وقتئذ، بجمع العرب فى مكان واحد، على الشاطئ الآخر من النهر، وأسماه المحفوظة.

---

(١) البشارى المقدسى – أحسن التقاسيم – صـ٤٨٠ – ٤٨١ – ليدن.

(٢) المصدر السابق – صـ٤٨٢. يبدو أن القنهرى عملة عادية، ولا نعلم كيف ذكرها اليت باسم (قندهاريات)؛ باعتبار أنها تسك فى (قندهار)، ولا أساس لذلك من الصحة، ويعد تحريفاً للكلمة.

وكان عمرو بن محمد بن القاسم مع الحكم، وكان يفوض إليه ويقلده حسيم أموره وأعماله فاغزاها من المحفوظة، فلما قدم عليه وقد ظفر أمره، فبنى دون البحيرة مدينة وسماها المنصورة(١).

وعندما عين أحد أفراد البرامكة، عمران بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، واليًا على السند، إبان العصر العباسي، وفى خلافة المعتصم بالله (منتصف القرن الثالث الهجرى)، أسس مدينة البيضاء، ولكن المنصورة هى المدينة الوحيدة من بين المدن، قدر لها الشهرة والخلود.

مؤسس المنصورة

لماذا سميت مدينة المنصورة بهذا الاسم؟ اعتقد البعض خطأً أنها قد نشأت فى عهد الخليفة العباسى المنصور، فسميت المنصورة باسمه؛ وهذا يفتقر تمامًا إلى الصحة؛ إذ إن هذه المدينة شيدت فى عصر الأمويين، وهكذا نسبها المسعودى إلى منصور بن جمهور(٢) *(ج١ ص ١٦٨)*، الذى كان واليًا على السند، إبان تداعى الدولة الأموية، وبداية قيام الدولة العباسية.

وهذا أيضًا غير صحيح. والحق أنه يتعين علينا ألا نخدع بالاسم؛ إذ إن مؤسسها، كما يتضح من أقدم المراجع لدينا عند البلاذري، المتوفى ٢٧٩هـ، هو عمرو بن محمد بن القاسم. ومن ثم، فإن تسميتها بالمنصورة إن هى إلا نوع من التفاؤل، على غرار تسميته المدينة الأخرى بالمحفوظة.

تاريخ بنائها

كان الحكم، الذى أنشأ عمرو هذه المدينة فى عهده، واليًا من قبل خالد بن عبد الله القسرى، أمير العراق، الذى تولى الإمارة عام ١٠٥هـ، وعزل منها عام

---

(١) البلاذرى ــ فتوح البلدان – صـ٤٣١ – لندن.

(٢) مروج الذهب – الجزء الأول – صـ٣٧٩.

١٢٠هـ. وكان الحكم ثانى الولاة الذين بعثهم خالد على السند. ومن ثم، فإن فترة ولايته قد بدأت غالبًا ١١٠هـ. وعليه، فإن تاريخ بناء المنصورة ينبغى أن يكون بين عامى ١١٠هـ و١٢٠هـ.

موقعها

كان ابن خرداذبة (عام ٢٥٠هـ)، أول من ذكر أن المنصورة تقع على نهر السند: " ونهر السند هو شعب نهر جيحون، وإليه ينسب بعض مملكة الهند، يمر بالمنصورة، ويصب فى البحر الشرقى الكبير، بعد أن تحمل منه أنهار بلاد الهند"[١]، ثم تلاه البلاذرى (٢٧٩هـ)؛ حيث قال: "فبنى دون البحيرة مدينة، وسماها المنصورة"[٢]. كما كتب الإصطخري، وابن حوقل: "لقد أقيمت على مثل هذه البقعة من ضفاف نهر مهران (السند)؛ ليخرج منها فرع من نهر، يجعلها وكأنها جزيرة".

وقد حدد بعض الجغرافيين العرب موقعها، بالنسبة لطولها؛ فقالوا: "وهى من الإقليم الثالث، طولها ثلاث وتسعون درجة، وعرضها من جهة الجنوب اثنان وعشرون درجة" *(ج٥ ص ٢١١)* [٣]. ومن حسن الحظ أن توافرت لدينا خريطة ابن حوقل، التى رسمها للسند فى عصره؛ وبالنظر إليها، يتضح أن نهر السند يأتى من ناحية البنجاب، ويصب فى بحر الهند؛ وخلف هذه المنطقة، يوجد موضع فى اتجاه البر، على مسافة صغيرة، يخرج منه فرع جديد للنهر؛ ثم ينعطف، ويلتحم بهذا النهر مرة أخرى.

وهكذا، كانت تقع هذه المدينة فى منتصف النهر، يحوط بها هذا الفرع من كل جانب؛ فتبدو وكأنها جزيرة صغيرة، تقام عليها هذه المدينة، تحيطها المياه من

---

(١) ابن خرداذبه ــ المسالك والممالك – صــ١٧٤.

(٢) *البلاذرى – صــ٤٣١ .*

(٣) ياقوت ــ معجم البلدان – تحت كلمة (منصورة).

كل جانب؛ فتحميها من محاصرة الغزاة، وكان موقعها يشبه تمامًا موقع (سرنكابتم)، التى تكونت هى الأخرى من انعطاف نهر (كاويري) فى ميسور، وتماثلها كذلك (ترجنابلي) (فى أطراف مدراس)؛ إذ كانوا يعتقدون أن مثل هذه المناطق تكون حصينة محفوظة؛ نظرًا إلى فنون القتال القديمة.

وقد فسر أبو الفضل كل هذا فى (آئين اكبري)؛ فذكر أن المنصورة هى الاسم القديم للمدينة السندية الشهيرة (بهكر)[1]. والحقيقة أن كل الأوصاف الجغرافية التى ذكرها تنطبق على المنصورة؛ حيث يقول: " تتلاقى هنا جداوله، فتصير نهرًا واحدًا، ثم يتفرع إلى فرعين يمران فى منخفض؛ أحدهما يتجه جنوبًا، والآخر شمالاً ". وقد كان اسم (بهكر)، ومازال مألوفًا فى التواريخ الهندية.

المنصورة عاصمة

كانت المنصورة مدينة حصينة؛ نظرًا لموقعها على ضفاف النهر، وبالقرب من البحر، ومن ثم، كانت حركة المرور إلى العراق والبلاد العربية سهلة، وقت الضرورة؛ لذا سرعان ما صارت حاضرة العرب فى السند. ففى القرن الثالث، أصبح اسمها (بايه تخت) (العاصمة).

وقد ورد اسمها هذا فى القرن الثالث، عندما ذكرها البلاذري، المتوفى ٢٧٩هـ، فى حديثه عن هذه المدينة: " فهى التى ينزلها العمال اليوم "[٢].

وهكذا، ذكرها كل من جاء بعده من الرحالة العرب. وأخيرًا، صارت عاصمة لإمارة عربية قرشية.

---

(١) آئين اكبرى – المجلد الثانى – صـــ١٦٠ – نولكشور.

(٢) *البلاذرى – صــ٤٣١.*

السند فى العصر العباسي

ظلت السند خاضعة للسلطة المركزية فى بغداد حتى عهد الخليفة المأمون (عام ٢١٨هـ)؛ وفى أواخر عصره، أخذت أحلام الاستقلال تراود الأمراء العرب. وذلك أن الفضل بن ماهان، مولى بنى سامه، فتح سندان، وغلب عليها، وبعث إلى المأمون، رحمه الله، بفيل، وكاتبه، ودعا له فى مسجد جامع اتخذه بها، فلما مات، قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامه، فسار فى سبعين بارجة إلى (ميد) الهند، فقتل منهم خلقًا... وكان هذا فى عهد أمير المؤمنين، المعتصم بالله (٢٢٧هـ)، وأهدى إليه ساجًا لم ير مثله، عظمًا وطولاً ، وكانت الهند فى أمر أخيه، فمالوا عليه، فقتلوه وصلبوه"[١].

والغالب أن هذه هى الحرب الأهلية التى فقد فيها المسلمون هذه الولاية. وفى خلافة المعتصم بالله؛ أعلن محمد بن الخليل الاستقلال فى (قندابيل)، لكن ما لبث عمران البرمكى – والى المعتصم على السند – أن قاتله، وفتحها، وحمل رؤوسها إلى قصدار[٢].

ثم وقعت العصبية بين النزارية واليمانية، فمال عمران البرمكى إلى اليمانية، فسار إليه عمر بن عبد العزيز الهباري، فقتله وهو عار، وكان عمر هذا ممن قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبى[٣].

أسرة الهبارى القرشى فى السند

كان هبار بن أسد من أشد أعداء الإسلام ورسوله فى بنى أسد القرشية، أيام دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم، ثم أسلم فى فتح مكة، عام ٨هـ. وقد قدم واحد من نسله إلى السند فى معية الحكم بن عوانة الكلبى، والى السند، ألا وهو

(١) البلاذرى – فتوح البلدان – صـ٤٣٢ – ٤٣٣.

(٢) المصدر السابق – صـ٤٣٢.

(٣) المصدر السابق – صـ٤٣٢.

حفيده عمر بن عبد العزيز الهباري[1]، وشجرة نسبه هكذا: هو عمر بن العزيز بن المنذر بن زبير بن عبد الرحمن بن هبار بن أسد. وكانت هذه الأسرة مضطلعة بأمور الحكم فى عهد الأمويين، والعباسيين[2].

كان هذا الرجل قد تزعم قبيلة النزارية، وقتل عمران، وكانت النتيجة أن نال عمر بن عبد العزيز الهبارى إمارة العرب فى السند. وحين توفى هارون بن خالد، والى السند، عام ٢٤٠هـ، فى عهد الخليفة المتوكل، طلب عمر بن عبد العزيز من ديوان الخلافة أن تسند إليه ولاية السند، فوافق الخليفة، وكتب اليعقوبي، المتوفى عام ٢٧٨هـ، فى تاريخه المؤلّف عام ٢٥٩هـ، يقول: "إن والى السند، هارون بن خالد، توفى عام ٢٤٠هـ، ولما كتب عمر بن العزيز سامى - الذى يعود أصله إلى سامه بن لؤى - والذى كان واليًا على السند، وحيث كان يحسن إدارة شئون البلاد، لم يتوان الخليفة، المتوكل، عن قبول طلبه، وظل مستقلاً بها، إبان خلافته"[3].

إن قول اليعقوبى بنسبة عمر بن عبد العزيز إلى ذرية سامه بن لؤي، غير صحيح، فقد كان عمر بن عبد العزيز من أحفاد هبار بن أسد، الذى ينتسب بدوره إلى كعب بن لؤى (ابن خلدون المجلد الثانى صـ٣٢٧ مصر). والأغلب الأعم أن اليعقوبى قد خلط بينه، وبين أمراء الملتان، الذين كانوا من ذرية سامه.

على أية حال، فقد ظلت الإمارة تابعة للعباسيين حتى بعد نهاية ولاية عمر بن عبد العزيز الهبارى عليها. وهكذا كان اسم السند فى خطط الخلافة، ببغداد، على مدى حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ)؛ حيث إنه فى ذلك العصر، وفى

---

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - صـ٤٣٢.

(٢) ابن خلدون - المجلد الثانى - صـ٣٢٧.

(٣) تاريخ يعقوبى - المجلد الثانى - صـ٥٩٩ لندن.

عام ٢٥٧هـ تحديدًا، أسندت إمارة السند إلى يعقوب بن الليث، مؤسس الدولة الصفارية، إضافة إلى تركستان، وسجستان، وكرمان(١).

وفى عام ٢٦١هـ، أنعم المعتمد على أخيه الموفق بولاية السند، مع الولايات الشرقية، وقد شهدت تلك الفترة تمرد القرامطة، على السواحل العربية والعراقية، على خليج فارس شرقًا، وقيام التمرد الإسماعيلى الفاطمي، الذى آل به الحال، فى النهاية، إلى مصر غربًا.

ويبدو أن هذه الفترة كانت مواتية لقطع العلاقات الاسمية مع بغداد، والبلاذري، الذى توفى عام ٢٧٩هـ، كتب يقول: "ثم ولى ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان، وكان ضمن ألف رجل، ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمة، المتغلب اليوم، وهو مولى لكنده"(٢).

ويبدو أن أولاد عمر بن عبد العزيز الهبارى لم يهدأ لهم بال، وقد كان أبوهم يقطن فى (بانيه اوبنيا) بالسند(٣). أما هم فقد استولوا على المناطق السفلية من السند، متخذين المنصورة عاصمة لهم. وفى عام ٢٧٠هـ، كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى حاكم المنصورة. وفى هذه الفترة، كتب إليه الملك الهندوكى لمنطقة (الرا) (الور بالسند)، يطلب منه إرسال أحد العلماء المسلمين؛ ليفسر له شريعة الإسلام بالهندية(٤).

وحين أتى المسعودي، عام ٣٠٣هـ، وجد عمر بن عبد الله حاكمًا على المنصورة، وقد التقى بالعديد من الزعماء العرب هناك، ورأى أناسًا من الأسرة

---

(١) تاريخ ابن خلدون – الجزء الثالث – صـ٣٤٣ – مصر.

(٢) البلاذرى – فتوح البلدان – صـ٤٣١ – ٤٣٢.

(٣) ابن حوقل – ذكر السند. ونص عبارة ابن حوقل: "وبانية مدينة صغيرة، ومنها عمر بن عبد العزيز الهبارى القرشي.... وهو جد المتغلبين على المنصورة، ونواحيها" – صـ ٣٢٣.

(٤) بزرك بن شهريار – عجائب الهند – صـ٣ – لندن.

العلوية والساداتية، وكان الملك عمر بن عبد الله، والوزير رياحًا، والقاضي من آل أبي الشوارب.

وأصل عبارة المسعودي[1]: "وكذلك كان دخولي إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله، ورأيت بها وزيره رياحًا(زيادا) وابنيه محمدًا وعليًا، ورأيت بها رجلاً، سيدًا من العرب، وملكًا من ملوكهم، وهو المعروف بحمزة، وبها خلق من ولد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم من ولد عمر بن علي، وولد محمد بن علي، وبين ملوك المنصورة، وآل أبي الشوارب، القاضي، قرابة وصلة نسب، وذلك أن ملوك المنصورة، الذين منهم الملك في وقتنا هذا، من ولد هبار بن الأسود، ويعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي، وليس هو عمر بن عبد العزيز(بن مروان)، الأموي" (ج١ ص ١٦٧-١٦٨)[2].

وبعد المسعودي، جاء ابن حوقل، عام ٣٦٧هـ، وكانت الأسرة الحاكمة هناك الأسرة الهبارية، ولم يكن بينها وبين الخلافة العباسية أي ارتباط سياسي أو إداري، وإن ظلت العلاقة الدينية قائمة، والخطبة باسم الخلفاء العباسيين في المساجد. ونص عبارته: "ملكها من قريش، من ولد هبار بن الأسود، وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم، وإيثارهم على من سواهم، غير أن الخطبة لبني العباس" صـ ٣٢٠.

---

(١) المسعودي – مروج الذهب – الجزء الأول – صـ٣٧٧.

(٢) إن الدكتور Bird، الذي أشار إليه اليت، في الجزء الأول – صـ٤٨٨، قد أساء فهم هذه الفقرة، حيث اعتقد أنها "إن أولاد سيدنا حمزة (سيد الشهداء)، قد نزحوا إلى هذه البلاد، واستوطنوها"، ويبدو أنه قد تشابه عليه اسم حمزة، فليس حمزة هذا هو سيدنا حمزة، عم الرسول _ صلى الله عليه وسلم – وإنما زعيم عربي آخر، يحمل نفس الاسم، ولم يذكر أولاده، كما أن سيدنا حمزة لم يكن لديه أولاد ذكور، وبالتالي لم تنتشر ذريته.

وحين أتى المقدسي، عام ٣٧٥هـ، كانت هذه الأسرة ما زالت حاكمة، وإن امتد أثر الديالمة الشيعة – التى كانت تحكم فارس – إلى السند أيضًا، عن طريق بلوجستان. ومع ذلك، ظل اسم خليفة بغداد باقيًا أيضًا، ويدعى له فى المساجد.

ويقول البشاري: "وأما المنصورة، فعليها سلطان من قريش، ويخطبون للعباسي، وكانوا قد خطبوا على عضد الدولة، ورأيت رسولهم قد وافى إلى ابنه، ونحن بشيراز".

تعداد المنصورة ومساحتها

ذكر ابن حوقل أن طول المنصورة وعرضها يبلغ ميلاً واحدًا، وهى محاطة بالماء من جميع الجهات، وسكانها من المسلمين. ويقول البشارى المقدسي: "المنصورة هى قصبة السند، ومصر الإقليم، تكون مثل دمشق، بناؤهم خشب وطين، والجامع من حجر وآجر، كبير مثل جامع عمان، على سوارى ساج، لها أربعة أبواب: باب البحر، وباب طوران، وباب سندان، وباب الملتان، ولهم نهر يحوط البلد، والجامع وسط الأسواق"[١].

المنصورة ومساحتها الخضراء

كانت مساحة هذه الإمارة العربية تشمل العديد من مدن السند، يقول البشاري: "المنصورة هى قصبة السند، ومن مدنها: (الديبل)، و(الزندريج)، و(كدار)، و(مايا بتلى). كما عد الإصطخرى بعض المدن الأخرى، مثل: (بايبه)، و(سدوسان)، و(الور)، و(سوباره)، و(صيمور).

ويذكر المسعودى أن عدد القرى والمدن، التى تضمها ولاية المنصورة، يبلغ ثلاثمائة ألف، ومن ثم، يمكن القول إن المنصورة كانت ولاية كبيرة نسبيًا. ثم

(١) البشارى ــ أحسن التقاسيم – صـ٤٧٩.

يضيف: "تنتشر فى أرجائها الحقول والأشجار والمدن"[١]. ومن ذلك كله، يمكن تقدير مدى مساحتها الخضراء، وعدد سكانها.

قوة الملك الحربية

كانت هناك حروب متعاقبة بين أهل المنصورة، وقبائل (الميد)، (إحدى القبائل السندية)، يقول المسعودي: "ولملك المنصورة فيلة حربية، وهى ثمانون فيلاً، رسم كل فيل أن يكون حوله ما ذكرنا، خمسمائة راجل، وأنه يحارب ألوفًا من الخيل، على ما ذكرنا، ورأيت له فيلين عظيمين، كانا موصوفين عند ملوك السند والهند؛ لما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على كل الجيوش، وكان اسم أحدهما "منقرقلس"، والآخر "حيدره" *(ج١ ص١٦٨)* [٢].

وبما أن المسعودى قد أخبرنا عن قوة المنصورة العسكرية كاملة. وإذا كان كل فيل يلازمه خمسمائة مقاتل، فإن عدد الجيش الذى يلازم الفيلة، يصل إلى أربعين ألف جندي.

الحالة العلمية والدينية فى المنصورة

خير من وصف هذا الأمر هو البشاري، فى رحلته؛ حيث كتب يقول: "أهل لباقة، ولهم مروة، وللإسلام عندهم طراوة، والعلم وأهله كثير... ولهم ذكاء، وفطنة، ومعروف، وصدقة"[٣].

"أما أهل الذمة (وهم غير المسلمين)، فيعبدون الأصنام، وليس بين المسلمين مبشرون، فأكثرهم من أهل الحديث، وقد رأيت القاضى أبا محمد المنصوري، الذى كان داوديًا، وإمامًا فى مذهبه، له حلقة للدرس، وله مؤلفـات يمتاز أكثرها بالجودة

---

(١) المسعودى ــ مروج الذهب – الجزء الأول – صـ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق – صـ٣٧٨.

(٣) أحسن التقاسيم – صـ٤٧٩.

والإتقان. ونجد فقهاء المذهب الحنفى فى المدن الكبرى، ولا نجد مالكية أو حنابلة أو معتزلة؛ إذ إنهم جميعًا على طريقة مستقيمة، ومذاهب محمودة، وصلاح وعفة".

أما وجود أهل الحديث، إبان تلك الفترة، فيثير الدهشة والحيرة، كما أن المقصود بالفرقة الداودية، أتباع داود الظاهري، لا فرقة البهرة الداودية؛ إذ الأولى من أهل الحديث.

اللغة

يقول المسعودي: "ولغة السند، خلاف لغة الهند" *ج١ ص ١٦٥*. ويصف البشارى (ديبل)، ميناء المنصورة، فيقول: "المدينة كلهم تجار، كلامهم سندى وعربى"[١].

ومن هنا، ندرك ما كان للغة العربية من أثر فى اللغة هنا؛ حيث تروج الألفاظ العربية فى اللغة السندية، مثلما تروج فى اللغة الأردية، ويتجلى أعظم الأثر فى خط اللغة السندية، الذى لا يزال هو الخط العربى نفسه (النسخ).

سقوط المنصورة

كيف تم انهيار الحكومة العربية فى المنصورة؟ لا توجد إشارة واضحة صريحة فى هذا الصدد. ومن المؤكد أنها قد استمرت حتى عهد البشاري؛ أى عام ٣٧٥هـ، ثم بعده بخمسة عشر عامًا، توالت هجمات محمود الغزنوي. وفى عام ٤١٦هـ، عندما شن محمود حملته المشهورة على (سومنات)، قد سلك طريق السند فى طريق عودته من هناك؛ أى من الكجرات إلى السند، ومنها إلى الملتان، على ضفاف نهر السند، ثم إلى غزنة.

---

(١) البشارى – أحسن التقاسيم – صـ٤٧٩. ومروج الذهب – الجزء الأول – صـ٢٨١.

وقد ذكر المؤرخون أنه مر من المنصورة فى طريقه هذا[1]، بيد أن ابن الأثير، فى كتابه (الكامل فى التاريخ)، قد ذكر هذه الفقرة الكاملة، ضمن أحداث ذلك العام[2]: "ثم صار إلى برهمناباد *(المنصورة)* العتيقة، وهى على فرسخين من المنصورة، ولم تكن المنصورة يومئذ، كان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من الكفار بها، فقاتلوه، ففتحها محمد عنوة، وقتل بها بشرًا كثيرًا، وخربت" *(ج٤ ص ٥٣٨)*، ومن هنا، عاد السلطان إلى غزنة، مرورًا (ببهاتيه) "[3].

والسؤال هنا: ما معنى ارتداده عن الإسلام؟ إن لم يكن قد تم التشهير بوالى المنصورة؛ لدعم هذا الهجوم عند المسلمين. إنه طبقًا لأجواء حصار هذه الفترة يكون معناه: أن ملك المنصورة قد اعتنق مذهب القرامطة، مثل نظيره فى الملتان، إذ إن شهادة البشارى المقدسي، قبل هذا الهجوم بواحد وأربعين عامًا، تؤكد أن أهل المنصورة كانوا من أهل السنة، بل تؤكد كل الدلائل أنهم أيضًا من أهل الحديث.

على أية حال، يتضح من ذلك أن الحكومة الهبارية، فى المنصورة، قد انتهت، بقضاء السلطان محمود عليها، عام ٤١٦هـ. وقد ورد ذكر قبيلة هبار بن أسد فى كتاب المحقق المشهور ابن خلدون، كالتالي: "إنه كان (عمر بن عبد العزيز) من نسل هبار بن الأسد، وقد استولى على السند بعد مقتل الخليفة المتوكل، وتوارث أولاده حكم السند من بعده، حتى سقطت دولتهم، على يد السلطان محمود الغزنوى، وقد كانت عاصمتهم المنصورة"[4].

---

(١) الكرديزى – زين الأخبار – صـ٨٧ – برلين.

(٢) ابن الأثير – الكامل – الجزء ٩ – صـ٢٤٣ – لندن.

(٣) قد كتب اليت أنه نقل عن ابن الأثير، أن السلطان محمود قد توج أحد المسلمين ملكاً على "المنصورة"، المجلد الأول، ولكن هذه الفقرة لم يذكرها ابن الأثير، وإنما ذكر ما نقلناه فقط، وربما أنه وقع فى هذا الخطأ؛ لاعتماده على إحدى الترجمات الأوربية.

(٤) تاريخ ابن خلدون – الجزء الثانى – صـ٣٢٧ – مصر.

هل كان أهل المنصورة أيضًا من القرامطة الإسماعيليين؟

إن ما أدلى به البشارى – الذى كان بدوره عالمًا وفقيهًا – فى السطور السابقة من شهادة، يفيد أن أهل المنصورة كانوا يتبعون المذهب السنى (٣٧٥هـ). وإذا وضعنا هذا نصب أعيننا، سيكون من الصعب علينا الاقتناع أنهم قرامطة، فى عام ٤١٦هـ. كما تبين، مما نقلناه عن ابن خلدون: أن السلطان محمود قد انتزع إمارة السند من الأمير الهباري، وكما اتضح، من أقوال ابن الأثير، أن الأمير الذى انتزع منه السلطان محمود الإمارة، كان مرتدًا، الأمر الذى يحتمل معنى آخر، وهو أنه قد صار قرمطيًا إسماعيليًا.

مثلما ذكرنا، فإن شهرة أهل المنصورة على أنهم من القرامطة الإسماعيليين، لم تكن هى المبرر لهجوم السلطان على ولاية المنصورة المسلمة. ونفهم من أقوال ابن الأثير، أن القرامطة قد أسقطوا أسرة الهبارى السنية، بعد عام ٣٧٥هـ؛ أو أنهم قد أقاموا دولتهم فى السند، بعد ضياع الملتان من أيديهم، وهى التى أسقطها السلطان محمود، عام ٤١٦هـ.

رسالة الدروز

إن ما ذكرناه من اقتباس لرسالة الدروز سابقًا، على جانب كبير من الأهمية فى هذه القضية؛ حيث جاء فيه: إن صاحب الرسالة إمام الدروز الإسماعيلي، بالشام، والذى يقول: للموحدين بالملتان، والهند عامة، والشيخ بن سومر (راجا بل) خاصة". وقد ورد فى هذه الرسالة: أن الوريث الشرعى لابن (سومر ملك بل) هما: (بهوترو١) و(هؤدل هيلا)، كما ذكر أسماء العديد من أفراد هذه الأسرة الآخرين، منهم العربي، ومنهم الهندي، كما ورد فيه ما يثير حميته: "المبجل (راجابل)، عليك بإيقاظ أسرتك، وعليك إرجاع الموحدين، وداود الأصغر إلى الدين الصحيح، وهو (أى داود الأصغر) من أطلق سراحه السلطان مسعود الآن، فأنت الوحيد الذى

تستطيع أن تقوم بهذه المهمة، وأن ترجعه هو، وابن أخته، عبد الله، وكل أهل الملتان، حتى يتميز أهل التوحيد والتقديس(١)، عن أهل الجهالة والتمرد"(٢).

ونستخلص من هذه الرسالة، النقاط المهمة التالية

١. إن (سومر) كان من أهل السند، ثم صار، فيما بعد، مؤسس الأسرة السومرية، وكان إسماعيليًا.

٢. إن أسماءهم خليط من العربية والهندية؛ مما يشير إلى أن هذه الأسرة مزيج من العرب والهنود.

٣. إن ملوك الملتان – كأبى الفتح داود، وغيره، وكذلك أسرة السومرى فى السند – من أتباع مذهب واحد.

٤. إن (سومر)، فى الغالب، كان (شيخًا)، وإمام الإسماعيليين فى السند؛ إذ إن الإسماعيليين يطلقون لقب (الشيخ) على زعيمهم الديني.

٥. يبدو أنه كان لأبى الفتح داود، ابن يشتهر باسم داود الأصغر، جعله السلطان مسعود يتوب عن المذهب الإسماعيلي، كما أنه أطلق سراحه بعد توبته هذه.

٦. إن عبد الله كان حفيدًا لأبى الفتح داود الأكبر، وابن أخت داود الأصغر، وهو الذى سعى أهل الملتان كى يجعلوه أميرًا عليهم.

٧. كان هدف هذه الرسالة؛ حض (سومر راجا بل) على استثارة حمية قبيلته، ومحاربة السلطان مسعود، وأهل الملتان، حتى تسترد الإسماعيلية قوتها

---

(١) ينفى الإسماعيليون الصفات عن الله، ويعتبرون أن الإيمان بصفات الله، مثلما يؤمن أهل السنة، نوع من الشرك. وبناء على ذلك، يعدون هذا هو التوحيد والتقديس، وكانت هذه هى عقيدة المعتزلة، لهذا كانوا يطلقون على أنفسهم، أهل العدل و التوحيد.

(٢) اليت – الجزء الأول – صـ٤٩١.

الزائلة، فيعودوا إلى حوزته. وهكذا، كان ثم محاولات عديدة تتم بالملتان، غير أنها جميعًا باءت بالفشل.

٨. وأخيرًا، أوضحت لنا الرسالة مدى ما كانت تتسم به شخصية (سومر) من القوة، والبطش، والأنفة. هذا وإن كان أحد أبناء (سومر) معاصرًا للسلطان مسعود، فيعنى أن (سومر) نفسه، كان معاصرًا للسلطان محمود، المتوفى ٤٢١هـ.

٩. هذه هى الأسرة (السومرية)، التى استولت على السند – بعد هذا الخطاب بعشرين عامًا – بدلاً من الغزنويين، أثناء اضمحلال دولة السلطان عبدالرشيد بن محمود الغزنوى (المتوفى ٤٤٤هـ).

أثر خالد من الأسرة الهبارية

على الرغم من أن الأثر الظاهر للسلطان الهباري، قد خفت ضوؤه إلى الأبد. فإن أثره الروحى ظل خالدًا؛ حيث استوطنت أسرته الملتان، بعد رحيلها من السند، تحت رعاية الغزنويين. وقد ولد شيخ الإسلام زكريا الملتاني، عام ٥٢٨هـ، وتوفى عام ٦٦٦هـ، على حد قول فرشته، وعام ٦٦١هـ، طبقًا (لأخبار الأخبار). وقد لقبه الشيخ عبد الحق الدهلوي، بالأسدي(١).

وقد علمنا، أن مولانا يعود نسبه إلى قبيلة "هبار"؛ وقد تتبع نسبه الشيخ عين الدين البيجابوري، فوجده يصل إلى هبار بن أسود بن مطلب بن أسد(٢).

وقد نقل بيرزاده محمد حسين، فى الجزء الثاني، صـ٨، من ترجمته الأردية لرحلة ابن بطوطة، اقتباسًا عربيًا من كتاب (خلاصة العارفين)، أحد ذخائر

---

(١) أخبار الأخبار – صـ٢٦ – مطابع هاشمى – ميرتهـ الهند.

(٢) فرشته – الجزء الثانى – صـ٤٠٤ – نولكشور.

الكتب القديمة، التى كانت فى حوزة أسرة الشيخ الحالية، والتى بدورها منقولة من مقولات جلال البخاري. وشجرة النسب الواردة فيه تؤكد ما ذكرناه.

وهكذا، فإننا أمام تاريخين لقدوم أسرة شيخ الإسلام إلى الهند؛ أولهما: القرن الأول الهجري، مع قدوم الفاتحين العرب، كما ورد عند ابن بطوطة. وثانيهما: نزوحها من البلاد العربية، فى القرن الخامس الهجري. ويبدو هذان التاريخان متفقين؛ حيث يتزامن قدومهم إلى السند، مع التاريخ الأول؛ أى القرن الأول الهجري، كما يتطابق استيطانهم للملتان، تحت رعاية الغزنويين، بعد سقوط المنصورة، مع التاريخ الثانى، أى القرن الخامس الهجري.

بيد أن مرورهم بخوارزم، عند مجيئهم إلى هنا؛ طبقًا لتاريخ فرشته، يفتقر إلى الصواب. ولكن ما يفوقه أهمية، هو ما أورده مؤلف (تاريخ طاهري)، حيث وضح قائلاً: "إن الشيخ بهاء الدين كان من أهالى السند، وإن أهالى (سمه) استوطنوا منطقة (سكور)، الموجودة حاليًا فى (سكهر)، بعد انهيار محمد تور الأول، الذى كان قد عمرها. فقد كانوا إذن من سكان هذه المنطقة".[1]

السند فى قبضة الغزنويين والغوريين وسلاطين دهلي

إن بقاء السند تحت سيادة الغزنويين حتى عام ٤٤٤هـ؛ ليؤكد أن خراجها كان يأتى إلى غزنة حتى السلطان عبد الرشيد الغزنوي، عام ٤٤٤هـ. ثم عمت الفوضى الدولة الغزنوية بعده، ومع ذلك، ظلوا حكامًا على مناطق البنجاب والسند حتى عام ٥٢٨هـ، اسمًا وقولاً، لا فعلاً .

وما إن حل عام ٥٧٨هـ، حتى حل الغوريون محل الغزنويين، فاستولى ناصر الدين قباجه، أحد قادة شهاب الدين، على السند، كما تولى آلتمش مقاليد السلطة فى دهلي. وفى النهاية، هزم آلتمش قباجه، وأجلاه عن السند.

(١) اليت – تاريخ طاهرى – صـ٢٥٦.

ومن ذلك الوقت، ظلت السند مرتبطة بدهلي، اسمًا وقولاً، ولكنها كانت مستقلة فعلاً . وفى عهد محمد شاه تغلق، عام ٧٥٢هـ، تناقلت السيادة فى السند بين الأسرات الحاكمة المحلية، ثم استولى عليها السلطان فيروز شاه، فى عام ٧٦٢هـ، عن طريق تسوية بينه وبين الحكام المحليين، ثم أسندها إليهم، وظلت فى أيديهم حتى عام ٩٢٧هـ؛ .ى أن اغتصبها الأمير التتارى أرغون، ومع نهاية عام ١٠٠٠هـ، أصبحت من الإمارات التابعة للسلطان أكبر المغولي.

السومرى

ليس لنا علاقة بكل التواريخ المذكورة أعلاه، ما علينا سوى البحث عن أصل قبيلتين مستقلتين، فى كل ما تناولناه من تواريخ. إحداهما قبيلة (سومري)، والأخرى (سما). فإن القبيلة التى استولت على السند، فى فترة ضعف الدولة الغزنوية، كان يطلق عليها (سومري)؛ أما القبيلة الثانية فهى (سما)، وقد استولت على الحكم، عام ٧٥٢هـ، فى عهد محمد شاه تغلق، وظلت تحكمها حتى عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م.

وهناك اختلاف شديد بين المؤرخين حول أصل هاتين القبيلتين، خصوصًا هوية قبيلة (السامرة)، وعقيدتها، اللتين تفتقران إلى المزيد من البحث.

أما الرسالة الدرزية، التى سبق الإشارة إليها؛ فيتضح منها: أن الشيخ "بن سومر راجا بل" كان موجودًا فى عام ٤٢٢هـ (أى فى عصر السلطان مسعود)، وأنه كان إسماعيليًا، وأن أئمة الدروز حضوه على استعاده حكومة الإسماعيليين، فى كل من السند والملتان. فلا عجب إذن إن أقام السومريون دولتهم فى السند، عقب ضعف الغزنويين، فى عصر السلطان عبد الرشيد (٤٤٤هـ).

وعلى أية حال، فقد ظلت دولتهم هذه من عام ٤٤٤هـ إلى ما بعد عام ٧٣٤هـ بعدة سنوات. ومن ثم، تعد شهادة ابن بطوطة أهم ما ورد فى هذا الشأن،

حيث إنه أتى إلى الهند فى هذا العام، عن طريق السند، عندما كان السومريون تابعين لحكام دهلي، وقد شاهدهم ابن بطوطة، ووصفهم قائلاً:

"وسرنا من نهر السند يومين، ووصلنا إلى مدينة جنانى[1]، مدينة كبيرة على ساحل نهر السند، لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة، استوطنوها قديمًا، واستقر بها أسلافهم، حين فُتحت على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون فى فتح السند... وهؤلاء الطائفة، المعروفون بالسامرة، لا يأكلون مع أحد، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحدًا من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد، وكان لهم فى هذا العهد أمير، يسمى "ونار"، وسنذكر خبره" (ص٣٩٢).

ثم يقول فى موضع آخر، أثناء حديثه عن (سيوستان) (سيهوان)، وهى الآن فى مدينة كراجي، بباكستان.

"كان يسكن بهذه المدينة الأمير "ونار السامري"، الذى تقدم ذكره، والأمير قيصر الرومى، وهما فى خدمة السلطان، ومعهما ألف وثمانمائة فارس، وكان يسكن بها كافر من الهنود، اسمه "رتن"، وهو من الحذاق بالحساب والكتابة، فوفد على ملك الهند، مع بعض الأمراء، فاستحسنه السلطان، وسماه عظيم السند، وولاه بتلك البلاد، وأقطعه سيوستان وأعمالها، وأعطاه المراتب، وهى الأطبال والعلامات، كما يعطى كبار الأمراء".

"فلما وصل إلى تلك البلاد، عظم على "ونار" و"قيصر"، وغيرهما، تقديم الكافر عليهم، فأجمعوا على قتله... وقدموا على أنفسهم "ونار" المذكور، وسموه ملك فيروز... وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم، قيصر الرومي. واتصل خبرهم بـــ"عماد الملك سرتيز"، مملوك السلطان... فجمع العساكر، وتجهز فى البر، وفى نهر السند... وخرج إليه قيصر، فوقع اللقاء، وانهزم قيصر، ومن معه أشنع هزيمة... ونزلت بتلك المدينة، إثر هذه الوقعة، بمدرسة فيها كبيرة، وكنت

---

(١) لا أثر لهذه المدينة، ويبدو أن النهر قد جرفها، حتى أن أبا الفضل لم يذكرها.

أنام على سطحها، فإذا استيقظت من الليل، أرى تلك الجلود المصلوبة، فتشمئز النفس منها، ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة، فانتقلت عنها"[1] *(ص ٣٩٩)*.

ويتضح من هذين الاقتباسين عدة أمور:

١- كان السامرة يربطون بين استيطان أسلافهم، وقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي.

٢- لم يكونوا هنادكة، وما كانوا يميلون إلى التبعية لهم، غير أنهم يتسمون ببعض الخصال التى تبعدهم عن عامة الناس.

٣- كانت السند تتبع سلطان دهلي، إبان تلك الفترة. وكان يقيم مع السامرة مندوبًا من قبل سلطان دهلي.

٤- كان نظام الحكم فى السند تابعًا للملتان أولاً ، ثم دهلى أخيرًا.

عقيدة السامرة

ثبت من رسالة الدروز أن (السامرة) كانوا يدينون بالمذهب الإسماعيلي، ولكن ما أورده ابن بطوطة؛ يعد إضافة مهمة، وهو أن السومريين قد جاءوا مع الفاتحين العرب، واستوطنوا هذه البلاد. ومن المؤكد أنهم ليسوا (راجبوت)؛ غير أن لهم بعض الطقوس، والشعائر الخاصة، يختلفون بها عن المسلمين، فى أمور الزواج والشراب والطعام. وفى الوقت نفسه، لا يعدون أنفسهم هنادكة أو كفارًا، بل موحدين مسلمين. واختاروا لأنفسهم ألقابًا إسلامية، كملك فيروز، ويعدون طاعة الكافر مهانة. لذا فهم ليسوا هنادكة ألبتة، وكانت عقيدتهم مزيجًا من مبادئ القرامطة والإسماعيليين، مع بعض الشعائر الإسلامية، والعادات والعقائد المحلية الأخرى. ومن هذا، أنهم جعلوا الإمام على - كرم الله وجهه - تجسيدًا للإله

---

(١) رحلة ابن بطوطة - الجزء الثانى - صـ٤ - ٦ - مصر.

(فشنو)[١]. بهذه الطريقة، كانوا يمزجون مثل هذا النوع من العقائد؛ مما يسر لهم نشر عقائدهم، فى كل البلدان.

وتؤكد كتب التاريخ على توافد الدعاة، من قلعة (الموت) الإسماعيلية، إلى السند، في العصور السابقة[٢]. وكان من مبادئهم إخفاء العقائد، كما كانوا يحبذون الأسماء الهندوكية، مثلما نرى اليوم بين طائفة (الخوجه)، فى بمباى. وهناك واقعة عجيبة بشأن ذلك، وردت ضمن سيرة جلال الدين البخارى (عام٧٠٧هـ/ ٨٠٠هـ)، مريد وخادم شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، الذى سنتحدث عنه فيما بعد. فذات مرة، قدم (سومر)، والى السند، فى خدمة الشيخ، وكان الدراويش والمريدون يتزاحمون حوله، فطرد (سومره) أحدهم من المسجد، دون إذن من الشيخ، فتفوه الشيخ فى هذه اللحظة بهذه الجملة: "سومره، ولكن مجنون"، فجن الرجل فى الحال، وضجت المدينة بمن فيها. وأخيرًا، جاءت والدته، وتضرعت للشيخ، فعفا عنه، وعندما عاد إلى رشده، جاء إلى المسجد، وقبل أقدام الشيخ، وصار من مريديه[٣]. أيفهم من هذه الواقعة، أنه رجع عن الإسماعيلية، وصار سنيًا؟

لقد سقطت الدولة الإسماعيلية فى مصر، على يد السلطان صلاح الدين، عام ٥٦٧هـ. ومن بعدها، استمرت سلطنة قلعة (الموت)، تحت زعامة حسن بن الصباح؛ حيث بدأت عام ٤٨٣هـ/١٠٩١م، وانتهت على يد هولاكو، عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. والظاهر أن انهيار المركز الرئيسى للإسماعيلية، فى مصر، كان له عظيم الأثر على جماعة الإسماعيليين فى السند. ولهذا، فليس من المستبعد أن يكون (السومريون)، أو بعضهم، قد اعتنقوا المذهب السنى، على يد السيد جلال البخارى.

---

(١) *الإله فشنو: هو أحد ثالوث الآلهة الهندوكية، وهو الحافظ.*

(٢) د. أرنلد ــ الدعوة في الإسلام – صــ٢٩٣.

(٣) فرشتة – المجلد الثانى – صــ٤١٦ – نولكشور.

أصل السومره

إن تفسير هوية (السومرة)، وما يكتنفها من غموض، يتطلب منا تتبعًا ملحًا لما طرحه أهم مؤرخينا القدامى، فى هذا الصدد. وقد اطلعنا على ما ذكره ابن بطوطة، من أن أسلافهم قد توافدوا على السند، واستوطنوها، إبان الفتح فى عهد الحجاج بن يوسف. ثم يطالعنا مير محمد معصوم، مؤلف (تاريخ معصومى)؛ بما أورده، فى الباب الثانى من كتابه: "لقد فتح السلطان محمود السند والملتان، ولكن حينما تولى السلطان عبد الرشيد، عام (٤٤١هـ – ٤٤٤هـ)، انصرف إلى اللهو والمجون، ورفع عن كاهله عبء الدولة الغزنوية؛ فضعفت الدولة على إثر كل هذا؛ فما كان من (السومره) إلا أن اجتمعوا فى منطقة (نهرى)، ونصبوا شخصًا منهم على العرش، يدعى (سومره).

وكان فى أطراف مدينتهم أحد الإقطاعيين الكبار، ويدعى سعدًا، فوطد (سومره) علاقته به؛ فتزوج ابنته، وأنجبت له ولدًا سماه (بهونكر)، وهو الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه"[1].

وبعد ذلك، يسرد لنا مير معصوم أحوال أحفاده، فمنهم من كان يحمل اسما عربيًا، مثل: (خفيف، عمر)، ومنهم من كان اسمه هنديًا، مثل: (دودا). ويعمد مؤلف تاريخ طاهرى غالبًا، إلى سرد القصص والحكايات، والتى يبدؤها بقصة عشق (عمر سومره) امرأة هندوكية، فيقول فى هذا الشأن: "كانت هذه الأسرة هندوكية، متمسكة بهندوكيتها. وكانت إمارتهم بالقرب من (الور)، واستمر حكمهم بها، من عام ٧٠٠هـ وحتى عام ٨٤٣هـ، و(محمد توران) كانت عاصمة لهم"[2].

ولم يرد فى (بيكـ لارنامه) سوى أنه بعد الفتح الإسلامى للسند، تولت الحكم قبيلة (تميم) العربية، وبعدها بفترة وجيزة، تولت أسرة (سومره)، التى استمر

---

(١) اليت ــ تاريخ معصومى – الجزء الأول – صـ٢١٥.

(٢) اليت ــ تاريخ طاهرى – الجزء الأول – صـ٤٨٤.

حكمها خمسة قرون، وكانت عاصمتهم هى (مهاتم تور). ومن العجيب، أن أسماء الأعلام والبلدان عندهم مزيج من العربية والهندية، فنرى أحيانًا (محمد تور)، وأحيانًا (مهاتم تور)، ويبدو أن مهاتم هى تصحيف لكلمة (محمد)، وقد كانت فى منطقة (ديركـ)، وهو نفس المكان الذى توجد عليه الآن منطقة (جاج كم) و(بادين)، التى بين (دنكا بازار) و(باركر).

أما مؤلف تحفة الكرام. فقد اقتبس من منتخب التواريخ (الذى ليس للبدايوني)، بل لمحمد يوسف، هذه العبارة: "عندما تولى السلطان عبد الرشيد، بن السلطان محمود الغزنوى، الحكم، استضعفه أهل السند، وفى عام٤٤٥هـ/١٠٥٣م، اجتمعت قبيلة (سومره) بتهرى، وتوجت شخصًا يدعى (سومره)، وكان له ولد اسمه (بهنكو)؛ كان قد أنجبه من ابنة أحد الإقطاعيين، ويدعى سعدًا، فتولى (بهنكو) الحكم، زهاء خمس سنوات، إلى أن توفى عام ٤٦١هـ"(١). (باختصار)

ثم يذكر صاحب تحفة الكرام فى موضع آخر: "إن أهل السومره هم من عرب سامراء، الذين نزحوا إلى السند مع قبيلة تميم، فى القرن الثانى الهجري، وصاروا ولاة عليها فى عهد العباسيين".

ثم يضيف: "كان (دلورائـ) ملكًا فى السند، فطغى عليه أخوه الأصغر (امرانى)، فلجأ الأخير إلى خليفة بغداد، فأرسل الخليفة معه مائة من عرب السادات وسامراء، واتخذت أسرة الساداتية السند موطنًا لها، وزوج (دلورائـ) ابنته من أحد رجالهم"(٢).

وذكر مؤلف تاريخ طاهرى سبب الخلاف الذى وقع بين (دلورائـ)، وأخيه الأصغر (امرانى)، فقال: "إن الصغير كان ينزع إلى الإسلام منذ طفولته، فقد قرأ القرآن الكريم، واعتنق الإسلام خفية، ثم ذهب لأداء فريضة الحج سرًا؛ وفى

---

(١) اليت ـ تحفة الكرام – الجزء الأول – صـ٣٤٤.

(٢) اليت ـ تحفة الكرام – الجزء الأول – صـ٣٤٣.

ظروف غريبة، تزوج بفتاة تدعى فاطمة، وهو فى الطريق، وعندما رجع من الحج، وافته المنية، حين وصل إلى منطقة (سيوستان) بالسند، ودفن بها، ومازال ضريحه قبلة أنظار الناس"[1].

كانوا خليطًا من العرب والهنود

إن كل ما ذكرناه من اقتباسات، يؤكد لنا أن هؤلاء القباجه كانوا هجناء من العرب والهنود؛ فمن ذكر أنهم عرب، يقصد جانبًا واحدًا، ومن قال إنهم هنادكة، فقد كان يقصد الجانب الآخر، ثم إن (سومر) هو مؤسس هذه الدولة، ولهذا أطلق عليهم اسم (سومره)، أو (سامرى)، وغير ذلك، وليس لهم علاقة بمدينة سامراء العراقية؛ إذ الاسم الحقيقى لمدينة سامراء، هو (سر من رأى)، فصارت (سامراء) على ألسنة العامة، وقد بناها المعتصم بالله العباسي، عام ٢٢٧هـ.

لم يكونوا من الراجبوت الخلص

ذكر المؤرخون الأوربيون أن هذه القبيلة من الراجبوتين، حديثى العهد بالإسلام. وهذا ما كتبه أيضًا محرر مادة "السند"، فى دائرة المعارف البريطانية[2]. كما حاول السيد اليت إثبات ذلك، ولم يأت أحد بسند علمى أو دليل. ويتضح من إجماع المؤرخين الفرس، أنهم لم يكونوا هنودًا خلصًا، فكيف يكونون من الراجبوت الخلص؟

لم يكونوا يهودًا

ذكر مولانا عبد الحليم شرر - رحمة الله عليه - أمرًا عجيبًا، وهو أن هؤلاء كانوا من اليهود، حديثى العهد بالإسلام. ويبدو أن مولانا قد اشتبه عليه

---

(١) اليت ـ تاريخ طاهرى - صـ٢٥٨.

(٢) الطبعة الحادية عشرة - المجلد ٢٥ - صـ١٤٣.

الأمر؛ لسببين، أولهما: أنه كانت جماعة تدعى سامرى (سامره)، تنتمى إلى جبل (شمرون) بفلسطين، والسبب الثانى هو عبارة قد أوردها البشارى المقدسى عنهم، والتى أولها "مولانا" بشكل غريب تدعيمًا لدعواه. والحق أن البشارى كان يستعرض الخصائص الأربعة الرئيسية، لكل فرقة وجماعة ذكرها فى مقدمته، فكتب يقول: "وأما الأديان، الذين هم ذمة، فأربعة: اليهود والنصارى والمجوس والصابئون، فاعترضه أحد بقوله: إن السامره أيضا هم أهل ذمة. وهكذا، تكون الأمم خمس لا أربع؛ فأجابه: وأما السامره، فإنهم صنف من اليهود، ألا نرى أن نبيهم موسى؟" هذا هو النص الأصلى للعبارة، وقد نقل محقق الكتاب، فى الحاشية، عبارة من نسخة أخرى لهذا الكتاب، أجيب عن هذا الاعتراض كالتالي: "إن عبدة الأوثان السنديين يقيمون فى دولة إسلامية، ثم يكون أهل الذمة أكثر من أربعة". فأجاب بشارى قائلاً: "وأما عبدة الأصنام فليسوا بذمة، ألا ترى أنهم لا يؤدون الجزية؟[1]، ومن ثم، فأهل الذمة هم أربعة".

ويبدو من ذلك، أن "مولانا" قد ربط بين ذكر "السامره"، فى العبارة أعلاه، والسند فى العبارة التالية لها، وأصدر فتواه، التى لا أساس لها من الصحة. وكتاب البشارى المقدسى متاح، لمن أراد أن يتحرى حقيقة هذا الأمر:

ملوك السومره:

ورد فى "تحفة الكرام" أسماء ملوك السومره. ومدة حكمهم، كالآتى:

مسلسل	اسم الملك	مده حكمه
١	سومره	فترة طويلة
٢	بهونكر بن سومر الأول	١٥عامًا (توفى عام ٤٦١هـ)
٣	دودا الأول بن بهونكر	٢٤عامًا (توفى عام ٤٨٥هـ)

(١) البشارى المقدسى ــ أحسن التقاسيم – صــ٤٢.

٤	سنكهر	١٥عامًا
٥	حفيف أو خفيف	٣٣ عامًا
٦	عمر(١)	٤٠ عامًا
٧	دودا الثاني	١٤ عامًا
٨	باتهو	٣٣ عامًا
٩	كنهرا الأول	١٦ عامًا
١٠	محمد تور (؟)	١٥ عامًا
١١	كنهرا الثاني	عدة سنوات
١٢	دودا الثالث	١٤ عامًا
١٣	تائى	١٥ عامًا
١٤	جينسر	١٨ عامًا
١٥	بهونكر الثالث	١٥ عامًا
١٦	حفيف أو خفيف الثاني	١٨ عامًا
١٧	دودا الرابع	٢٥ عامًا
١٨	عمر سومرا	٣٥ عامًا
١٩	بهونكر الثالث	١٠أعوام
٢٠	همير (مير)	الملك الأخير
جملة فترة حكم ملوك السومره		٣٦١ عاما

لم يرد هنا عدد السنوات المبهمة التى تولاها الملك الحادى عشر، ولا تلك الفترة التى تولاها الملك الأخير، ولو أضفنا هذه السنوات، لوجدنا أن مدة الحكم ٣٧٥ عامًا. وإذا كانت بداية حكمهم عقب نهاية السلطان عبد الرشيد مباشرة، أى

---

(١) من العجيب أن يكون "عمر" من الشيعة، أو ربما كان أصل اسمه "انر"، كما ورد فى "سراج عفيف"، ونطقه الأخر هو "اونار" أو "ونار" أو "انار"، كما ورد فى ابن بطوطة، وكتب التاريخ الفارسية.

عام ٤٤٤هـ، وسقوط دولتهم كان في عصر محمد شاه تغلق، أي عام ٧٥٢هـ؛ فإن الفرق ٦٧عامًا، وهي مدة تبدو كبيرة بالنسبة للمدة التي حكمتها هذه الأسرة.

نهاية السومره

في عهد محمد شاه تغلق، بدأت النزاعات بين السومريين وسلطان دهلي، ففي نهاية عصر محمد شاه تغلق، تمرد أحد المغول، ويدعى "طغى"، في الكجرات، وفور وصول تغلق إلى الكجرات، لاذ "طغى" بالفرار، ولجأ إلى السومريين في "تهتهـ" (السند)، فتعقبه الملك حتى "تهتهـ"، مواجهًا جبهة متحدة من المغول والسامره. وفجأة، تدهورت صحة الملك، وتوفى هناك، فواجه الجيش صعوبات جمة على يد المغول والسومره، بعد وفاة مليكه. وأخيرًا، توجوا فيروز شاه تغلق ملكًا عليهم؛ ليتخلصوا من هذا المأزق الحرج، فعاد الجيش إلى دهلي، وكان هذا عام ٧٥٢هـ(١).

ولكن عندما عـاد فيروز شاه، بعد عدة سنوات، عام ٧٦٢هـ، وجد حكومة الجام، وكان الحاكم "جام انز"، وابن أخيه "باتهينه"؛ وجام هذا لقب خاص بملوك "سمه". ومن ثم، يتضح لنا أن تلك الفترة قد شهدت سقوط السومريين، وقيام دولة السموين. وقد ورد في "تحفة الكرام" أن قيام الدولة السموية كان عام ٧٥٢هـ، ويتضح منه أن هذا الانقلاب قد وقع فور انتهاء حملة محمد شاه تغلق، وعلى حد قول فرشته، فقد كان للمسلمين اليد العليا في هذا الانقلاب.

ويبدو أنه بعد ثورة السومريين الإسماعيليين، أو أشباه الهنادكة، رأى عامة المسلمين أنه من الواجب عليهم أن يبعدوا هؤلاء السامره، على يد جماعة محلية حديثة بالإسلام. ومن ثم، أتاحوا لرئيس قبيلة (سمه)، ويدعى (اونر)، قتل آخر

---

(١) ضياء برني ــ فيروز شاهي – صـ٥٢٣ – ٥٢٥، كلكتا.

الملوك السومريين، الملقب (بهمبر) (امير)، وتصحيفه (ارمائيل)، وأتاحوا له إقامة دولته.

مزيدًا من التحقيق

إن قائمة ملوك (السومره)، وتحديد فترة حكمهم، فى حاجة إلى مزيد من التحقيق والتدقيق، ويجب على مؤرخينا الهنود أن يبذلوا قصارى جهدهم فى هذا الموضوع، فمثلاً، عندما فر السلطان جلال الدين خوارزم شاه، قبل عام ٦٢٠هـ بعامين، من التتار، ثم وفد إلى السند، ووصل إلى (تهتهـ)، قام شخص يدعى (حبسى)، أحد ملوك (السومره)، بوضع عتاده ومتاعه فى السفن، ولاذ بالفرار إلى إحدى الجزر[١]. ومع ذلك لا نجد اسم (حبسى) هذا فى القائمة. ولا يعتد بنسخة نولكشور. وقد يكون (حبسى) تصحيفًا (لجنيسر)، الذى ورد فى القائمة تحت رقم أربعة عشر.

وهكذا، كان هناك ملك يحمل اسم (اونار)، فى فترة مجيء ابن بطوطة إلى السند، عام ٧٣٤هـ، ولا نجده فى القائمة، ومن الممكن أن يكون هو (عمر)، الذى يقع فى التسلسل الثامن عشر.

"سمه"

هم الذين استولوا على السند، بعد قبيلة السومريين، وكانت عاصمتهم (تهتهـ)، التى أطلق عليها العرب (ديبل). و(سمه) لفظ يكتبه مؤرخو الفرس بصيغة الجمع (سمكان)، وهكذا صنيع المؤلفين الإنجليز، حيث أضافوا حرف (S)، ليصير جمعها (SAMMAS)؛ مما جعل البعض ينقلها (سماس).

وقد كان أهل (سمه) يدينون بالإسلام، غير أن هناك خلافًا حول ما إذا كانوا مسلمين منذ النشأة، أم إنهم قد اعتنقوا الإسلام بعد ذلك. وكانت (تهتهـ) مقرهم

---

(١) فرشته – الجزء الثانى – صـ٣١٦ – نولكشور.

الرئيسي، ولقبهم الرسمى (جام)، وأسماؤهم خليط من العربية والهندية؛ فعلى سبيل المثال، كان اسم ملك (سمه) المعروف (جام ننda نظام الدين). وكانوا على قدر كبير من القوة والمنعة؛ لدرجة مكنتهم من مواجهة ملوك دهلى فترة طويلة. وقد حكموا السند منذ عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م، حتى عام ٩٢٧هـ؛ أى ما يناهز مائة وخمسًا وسبعين سنة.

وثمة خلاف كبير بين المؤرخين أيضًا حول نسب هذه القبيلة؛ إذ أقر بعض مؤرخى السند أنهم من أصل عربي، ومن نسل أبى جهل. وقد أرجع مؤرخو الفرس – فرشته، وأبو الفضل فى (آئين اكبرى) – نسبهم إلى الملك الإيرانى (جمشيد)؛ بسبب لقبهم الرسمى (جام)، نظرا للتشابه بين (جم) و(جام).

بيد أن هذا لا أساس له من الصحة. وقد ذكر مؤرخو أوربا، مثل: اليت،[1] ومحرروا دائرة المعارف البريطانية[2]، ودائرة المعارف الإسلامية[3]، ذكروا أنهم من الراجبوت، حديثى العهد بالإسلام، وما كلف أحدهم نفسه أن يقدم دليلاً على صحة كلامه؛ عدا الأخير (محرر دائرة المعارف الإسلامية)، وغاية ما أتى به من دليل أن (جام) هو لقب ملوك الراجبوت فى منطقة (كجهـ وتوانكر).

والحقيقة، إن بعض بيانات المؤرخين القدامى تدعم هذا الرأي، خاصة ما ورد فى تاريخ معصومي: إن أهل (سمه) قد وفدوا من (كجهـ) إلى السند[4].

ومما جاء فى (جج نامه)، يتضح أن أهالى قبيلة (سمه) كانوا يستوطنون السند، قبل عهد محمد بن القاسم، عام (٩٦هـ). وهكذا، عندما وصل محمد بن

---

(١) تاريخ هند – الجزء الأول – صـ٤٩٧.

(٢) مادة السند – المجلد ٢٥ – صـ١٤٣، الطبعة الحادية عشر.

(٣) مادة "سمه" (Sammas)، الطبعة الإنجليزية.

(٤) اليت – تاريخ معصومى – صـ ٢٢٣.

القاسم إلى معمورتهم، استقبلوه بالمزامير والأناشيد، وسعدوا به كثيرًا، ثم ولى عليهم محمد بن القاسم زعيمًا عربيًا، قيل إن اسمه (خريم) (؟)، ووالده (عمر)[1].

وجاء أيضًا فى (تاريخ طاهري): "وهكذا خضعت تلك البلدة – التى تقع على ساحل البحر – لسيادة قبيلة (سمه)، التى مازالت أسرتها تستوطنها حتى الآن، وإليهم ينتسب ملوك (رائـ بهارا)، و(جام سهتا)، و(جهوتـ وكجهـ)"[2].

ولكن وقعت بين يدى فقرة وردت فى تاريخ البلاذري، فحواها: "ثم ولى ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان... ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمه المتغلب اليوم، وهو مولى لكنده"[3].

أنفهم من هذا أنهم كانوا من نسل (الصمه) هذا، ثم أطلق عليهم فيما بعد لقب (سمه)؟ وأنهم قد استوطنوا (كجهـ)، ثم قدموا من هناك، عام ٧٥٢هـ، وانتزعوا السند من قبيلة (السومره)؟

ملوك سمه

حيث إن عصر السمويين كان متأخرًا؛ أى عندما كانت دولة قوية للمسلمين فى دهلي؛ لهذا فإن أسماءهم وألقابهم، وفترة حكمهم، قد دونت بمزيد من الحيطة؛ وبناء على ما أورده فرشته، فإن تفصيل ملوكهم، كالتالي: "فى عهد الملك محمد تغلق، وبدعم من المسلمين، انتقلت سيادة السند من قبضة السومريين إلى قبضة السمويين. وكان أكثر زعماء هذه القبيلة ينعمون بنعمة الإسلام، كما كانوا يدينون بالولاء، غالبًا، لملوك دهلي، وظلوا يدفعون لهم الخراج.

---

(١) اليت ـ: جج نامه – صـ١٩١.
(٢) اليت ـ تاريخ طاهرى – صـ٢٦٨.
(٣) البلاذرى – صـ٤٣١ – ٤٣٢.

كما كانوا يتمردون عليهم أحيانًا. وأول ملوكهم فى العهد الإسلامى هو جام انر (انار أو ونار)[1]. وكان يمتاز بحكمته البالغة، وامتدت فترة حكمه ثلاث سنوات ونصف. ومن بعده، تولى الحكم أخوه (جام جونا)، الذى اتسم بالعدل الشديد. ثم جاء من بعده ابنه (جام مانى)، الذى ناهض سلطان دهلي، فهاجمه السلطان فيروز شاه فى السند، عام ٧٦٢هـ، ففشل فى بادئ الأمر، ولكن ما فتئ أن عاد من الكجرات، وانقض عليه، وانتهى الأمر بأن أبرم (جام مانى) معه الصلح"[2].

لقد ذكر سراج عفيف، المؤرخ والشاهد على عصر فيروز شاه، كل التفاصيل المتعلقة بهذه المعركة، وهذا الصلح. بيد أنه أورد اسم ملك تلك الفترة على أنه (اونر)، ويشاركه فى الحكم ابن أخيه (نانهينه). ويمكننا أن نقدر مدى قوة (السوميين)، إذا علمنا أن الملك (جام) حين واجه فيروز شاه، سلطان دهلي، بجيش قوامه أربعين ألفًا من المشاة، وعشرين ألف فارس، لم يكتب للسلطان الغلب أولاً بسبب قلة المؤونة والعلف؛ فترك السند، وذهب إلى الكجرات، ثم عاد إليه فى العام التالي، وشن عليه هجومًا مرة أخرى؛ فاضطر (جام) إلى عقد الصلح معه، وكان ذلك عام ٧٦٢هـ/١٣٦١م.

كيف تم الصلح؟

كان الشيخ سيد جلال الدين البخارى من أشهر العارفين بالله، فى هذا العهد، والذى سبق الإشارة إليه، فى الجزء الخاص بعقيدة السومريين، وكان يقيم فى مدينة (اوج)؛ فأرسل إليه (جام) رسولاً، يرجو منه الحضور؛ لكى يلتمس العفو عند السلطان؛ وبالفعل، حضر السيد جلال الدين البخاري، فأكرم الملك وفادته، فطمأنهم

---

(١) ورد اسم "جام" هذا فى نسخة فرشته، المطبوعة بنولكشور، باسم "افزا"، لكن يبدو أن هذا خطأ الكاتب أو المطبعة، فاللفظ الأصلى "اناى" أو "ونار" أو "اوثر"، مثلما ورد فى ابن بطوطة، وسراج عفيف.

(٢) تاريخ فرشته – الجزء الثانى – صـ٣١٧ – نولكشور.

السيد، رحمة الله عليه، وهدأ من روعهم، وأخذ كلاً من (جام) وشريكه في الحكم، (بانهينه)، وذهب بهما إلى السلطان فيروز شاه، حيث أبرمت شروط الصلح(1).

أسماء ملوك سمه

ذكر مير معصوم، وفرشته، أسماء ملوك سمه، وفترات حكمهم، غير أنهما اختلفا حول بعض أسماء الملوك الأوائل، فلم يرد، مثلاً، اسم (خير الدين) عند فرشته، بل ذكر مكانه (جام مانى)، وقد يكون (جام مانى)، و(خيرالدين) اسمان لشخص واحد. وثم خلاف في أسماء الملوك الأواخر أيضًا.

مسلسل	اسم الملك	مدة حكمه
١	جام اونار أو ونار أو اونر	٣ أعوام و ٦ شهور
٢	جام جونا أخو جام اونار بن بانهينه	١٤ عامًا، وكان معاصرًا لعلاء الدين الخلجي
٣	جام تماجي	١٥ عامًا
٤	جام خير الدين	١٦ عامًا
٥	جام بانهينه	١٦ عامًا
٦	جام تماجي	١٦ عامًا
٧	جام صلاح الدين	١١ عامًا
٨	جام نظام الدين بن صلاح الدين	عامين وعدة أشهر
٩	جام علي شير بن نظام الدين	٦ أعوام وعدة أشهر
١٠	جام كرن بن جام تماجي	عام ونصف العام

وبعد أن سقطت أسرة (جام اونر)، احتلت العرش أسرة أخرى، من

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: فيروز: شاهي. شمس سراج عفيف – صـ٢٤٠ – ٢٤١.

قبيلة (سمه) نفسها؛ وكان أول ملوكها (فتح خان):

١١	فتح خان بن سكندر	١٥ عامًا
١٢	جام تغلق بن سكندر، أخو فتح خان	٢٨ عامًا
١٣	جام مبارك (أحد أقرباء جام تغلق المقربين)	٣ أعوام
١٤	جام سكندر بن جام فتح خان بن جام سكندر	عام وستة أشهر
١٥	جام ورن رائـ (كان مسلمًا)	قدم من (كجهـ)، عام ٨٥٨هـ
١٦	جام سنجر (أحد زعماء قبيلة سمه)	٨ أعوام وعدة أشهر
١٧	جام ننداً نظام الدين	٦٢ عامًا
١٨	جام فيروز بن جام ننداً	آخر الملوك

وفى عام ٨٩٠هـ، إبان عهد (جام ننداً)، زحف شاه بيكـ ارغون من قندهار، وهاجم السند؛ إلا أن محاولته باءت بالفشل، ومن بعد (جام ننداً)، نشب الصراع على العرش بين ابنه جام فيروز، ومدعى الصلة بنسبهم، اسمه صلاح الدين.

وكان هذا ابن عم زوجة مظفر، سلطان الكجرات، فنهض هذا السلطان لمساندته. فطلب فيروز مساعدة بيكـ ارغون، القندهاري، وعونه، الذى ما فتئ أن انتهز الفرصة، واستولى على السند، عام ٩٢٧هـ؛ وبذا سقطت دولة السمويين[1].

إن مدة حكم الملوك، المذكورة أعلاه، هى ١٩٢عامًا؛ بيد أن مجموع السنوات، منذ عام ٧٥٢هـ وحتى عام ٩٢٧هـ، لا يربو على مائة وخمسة

(١) فرشته – الجزء الثانى – صـ٣٢٠ – نولكشور.

وسبعين عامًا. والغالب أن فترة حكم (جام ننداا) كانت أكثر مما هو مذكور. ويتضح من كثرة الأسماء، أنه كان اثنان من الأسرة يتوليان الحكم فى آنٍ واحد، مثلما ورد فى كتاب (سراج عفيف)[1].

عقيدة أهل سمه

كان أهل (سمه) من مسلمين، ولكن متى شرفوا باعتناق الإسلام، وإلى أى فرقة من المسلمين ينتمون؟ مازال كل هذا سرًا من أسرار التاريخ، لم يكشف عنه النقاب بعد. ولقد عرف المؤرخون تاريخ تحولهم الديني، عن طريق أسمائهم، التى هى مزيج من العربية والهندية؛ فمثلاً، نجد فرشته قد صنف الملوك الأربعة الأوائل، وهم على الترتيب: (جام اونر)، و(جام جونا)، و(جام مانى)، و(جام تماجى) باعتبارهم هنادكة؛ أما سلسلة الملوك المسلمين، فتبدأ بالملك الخامس (جام صلاح الدين)، حيث يقول: "وكما يظهر من الأسماء المذكورة، وخاصة اسم (تماجى)، أنهم ما كانوا مسلمين" (المجلد الثانى – صــ٣١٨ – نولكشور). والحقيقة، إنه لا ينبغى أن نخدع بأسماء هؤلاء الناس؛ فإن الاسم الأول (جام اونر)، والذى ذكره ابن بطوطة على أنه (اونار) (اونر)، واسم (السامرى)، الذى كان فى عهده (أى فى عهد ابن بطوطة)، لم يكن هندوكيًا، وكان يعتبر نفسه مسلمًا، ولم يكن يقبل أن يكون خاضعًا لهندوكي؛ لدرجة أنه ثار على سلطان دهلي، واتخذ (ملك فيروز) لقبًا ملكيًا له.

وقد أشاد صاحب (تاريخ طاهري) فى كتابه، بانتشار الإسلام فى عصره، وذكر أن اسمه (جام ننداا)، واسم والده (بانهينه)[2]. (وجام رائــ ورن) اسمًا

---

(١) فيروز شاهى – صــ١٩٩ – ٢٤٧ – كلكتا.

(٢) اليت ــ تاريخ طاهرى – صــ٢٧٣.

هندوكيًا، ولكن عندما قدم من (كجهـ)، واستولى على (تهتهـ)، أعلن قائلاً: "إنما جئت إلى هنا؛ لأحافظ على بلد المسلمين"(١).

ويبدو أنهم كانوا يحتفظون بأسمائهم الأصلية، فى بداية أمرهم؛ ثم أخذوا يقلدون سلاطين دهلي، ويسيرون على نهجهم؛ فشرعوا يتخذون أسماء عربية، كصلاح الدين، وغيره. وهكذا فإن الملك (جام)، الذى اتخذ لقب خير الدين، كان قد قضى فترات من طفولته مع والده، فى بلاط دهلى(٢).

وإذا تأملنا اسم الملك الأخير (جام ننداً نظام الدين)، لوجدناه من جزأين، أحدهما هندي، والأخر عربي. وبنفس الطريقة، كتب شمس سراج اسم الملك (جام)، الذى حارب السلطان فيروز شاه، كتب اسمه (رائـ اونر)(٣)، وكل القرائن تدل على أنه كان مسلمًا، وليس هندوكيًا؛ وإن صدق القول أنهم عرب، فهم مسلمون منذ نشأتهم؛ وإن كانوا هنادكة، فأعتقد أنهم اعتنقوا الإسلام قبل توليهم الحكم، وكانوا من أهل السنة.

وقبل أن نقدم أدلتنا، نود أن نتحدث، أولاً، عمن ساهمت جهوده فى اعتناق هؤلاء الإسلام، وعن نسبه أيضًا. فقد كتب السيد (أرنلد) – اعتمادًا على القياس فقط – أن هؤلاء الناس قد اعتنقوا الإسلام، عن طريق التجار العرب(٤)، ولكنى أعتقد أن المتصوفة هم أصحاب الفضل فى هذا، وليس التجار العرب.

شيخ الإسلام بهاء الدين زكريا والسيد جلال الدين البخارى

سبقت الإشارة إلى أن بعض أهالى أسرة الهباري، التى كانت تحكم السند، قد ذهب إلى الملتان، بعد زوال ملكهم، وكان من بين هؤلاء شخصية خالدة الذكر؛

---

(١) اليت ـ تاريخ معصومى – صـ٢٣١.

(٢) تاريخ معصومى – صـ٢٢٥.

(٣) تاريخ فيروز شاهى – شمس سراج عفيف – صـ١٩٩ – كلكتا.

(٤) الدعوة فى الإسلام – الترجمة الأردية – صـ٢٩٢ – عام ١٩٠٧م.

اشتهرت بشيخ الإسلام، بهاء الدين زكريا الملتاني، الذى عاش فى الفترة من عام ٥٧٨هـ إلى ٦٦٦هـ، وقد جاب مولانا كل البلاد الإسلامية الكبيرة، وأصبحت الملتان بسببه مركزًا للعلم والتصوف.

وقد قدم السيد جلال البخارى - أحد أئمة التصوف المعروفين - من بخارى إلى الملتان، وأخذ البيعة من الشيخ بهاء الدين. وحفيد السيد جلال البخارى هذا، كان السيد جلال الدين حسين البخاري، سيد الكونين، والذى سبق ذكره مرتين (ولد عام ٧٠٧هـ، وتوفى عام ٨٠٠هـ)، وقد كان العرف السائد لدى كبار المتصوفة آنئذ، أن يعدوا المريدين الأكفاء إعدادًا جيدًا، ويرسلوهم إلى المناطق البعيدة، للخدمة والتبليغ.

وبهذه الطريقة، كان قد أرسل شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، السيد جلال البخارى الأول لهداية الناس فى (اوج)، بمدينة السند، وكان هذا أواخر عصر حكومة (السومره) فى السند، وقد ذكرنا، كيف التف (السومريون) فى (اوج) حول السيد جلال البخاري، وصاروا من أتباعه ومريديه.

مما ورد فى (تاريخ طاهري)، يتضح أن شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، لم تكن له علاقات بالسند وحدها؛ بل كانت علاقته بأهل (سمه) علاقة وطيدة. (كتب الطاهرى "سومره"، بدلاً من "سمه"، ولكن ما يناسب الفترة التى ذكرها، أهل "سمه" بدلاً من "سومره"). وكانت هذه العلاقة وراء تعيينه أكبر مريديه فى هذه المنطقة بالذات. وإليك ملخص عبارة (تاريخ طاهري): " ظلت إحدى القبائل الهندوكية، والتى تدعى (سومره) (سمه)، تحكم السند، منذ عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وحتى عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م؛ أى ما يقرب من مائة وثلاثة وأربعين عامًا، وكانت عاصمتها (محمد تور). وما كنت الوحيد الذى شاهد أطلالها فى منطقة (ويركـ)، بل رآها الكثير من الناس. وبعد خرابها، استوطن أهلها منطقة سكورا (سكهر)، وقد جاءوا فى عصر ملوك (جام السمويين)، وهم الذين عمروا إحدى القرى هنا، وسموها أيضًا (محمد تور). ومن هذه القرية، كان أتباع شيخ الشيوخ، بهاء الدين زكريا،

والملا خليفة السندهي، ومريدوهما، أكبر متصوفة الهند، كما كان المريدون من كبار الإقطاعيين، والأعيان"[1].

وقد مر بنا، ذكر الواقعة الثانية، ألا وهي: أن أحد مريدى الشيخ بهاء الدين، وهو سيد جلال بخاري، قد فتح ولاية السند. كما أن أهل (السومره) فى (اوج)، قد أخذوا حفيده، سيد جلال الدين حسين بخاري، وكان يقيم فى (اوج) بالسند، فى الفترة من عام ٧٠٧هـ، وحتى عام ٨٠٠هـ. وعلى حد قول فرشته: "ذهـبوا إلى المسجد، وقبلـوا أقدام السيد، وطلبـوا العفو من الدراويش، وصاروا من المريدين"[2].

"وكان السيد البخارى يمارس الوعظ والإرشاد فى (اوج)، فكان الناس ينصتون إليه، ويتأثرون بقوله"[3]. ويتضح من حياة السيد – رحمة الله عليه – أن (السامره) قد صارت من مريديه، حوالى عام ٧٥٠هـ. وبعدها بعدة سنوات تقريبًا، تولى (السمويون) حكم الدولة، بدلاً من (السامره)؛ ولهذا فمن المنطق أن يكون الحكام من أسرة (سمه)، التى تولت الحكم بعد ذلك، وأن يكونوا أيضًا من أتباع هذا الشيخ، ومريديه.

حين قام محمد شاه تغلق بأول هجوم على (تهتهـ)، عاصمة السمويين، عام ٧٥٢هـ، وافته المنية هناك بصورة مفاجئة. وعندما شن فيروز شاه أول هجوم له، عام ٧٦٢هـ؛ باء بالفشل، ورحل إلى الكجرات؛ فاعتبر الناس أن هذا ليس إلا كرامة من كرامات الشيخ، وجرت على ألسنتهم هذه الفقرة، باللغة السندية، والتى فحواها: "إن بركة الشيخ جعلت أحدهما يموت، والآخر يفر هاربًا"[4]. وما المقصود

---

(١) اليت ــ تاريخ طاهرى – صـ٢٥٧.

(٢) فرشته – الجزء الثانى – صـ٤١٦ – نولكشور.

(٣) فرشته – الجزء الثانى – صـ٤١٦ – نولكشور.

(٤) شمس سراج عفيف ــ فيروز شاهى – صـ٢٣١ – كلكتا.

بالشيخ، فى هذه الفقرة، إلا الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني، أو الشيخ سيد جلال بخاري.

وعندما عاد فيروز شاه من الكجرات، فى العام التالي، وشن هجومًا على (تهتهــ)، لم يكن أمام (جام اونر) و(بانهينه)، آنئذ، إلا أن يبعثا رسولهما إلى السيد جلال الدين حسين بخاري، فى (اوج)؛ كى يتوسط لهما عند السلطان. وبالفعل، أرسل فى طلبهم، وعقد الصلح بينهما وبينه، على شروط مناسبة للطرفين. وقال للسلطان إن فى (عاصمة السوميين)، (تهتهــ)، امرأة من أولياء الله، وكان لا يمكن فتح هذه المدينة؛ ببركة دعائها، غير أنها قد توفيت، أمس الأول[١].

كل هذه الأحداث تشير إلى أى مدى كان ملوك (سمه)، وخاصة (الجاميين)، يعظمون الشيخ جلال الدين زكريا، والسيد جلال الدين حسين بخاري، كما تؤكد أنهم لم يكونوا مسلمين فقط، بل من أهل السنة أيضًا، وتبين أن السلسلة السهروردية الملتانية هى السبب فى هدايتهم.

لم تكن هذه الأحداث فى أواخر عهد (السوميين)؛ بل إنها كانت فى بداية عهدهم. ومن ثم، تصدق دعواى بأن (السوميين) لم يعتنقوا الإسلام بعد توليهم الحكم، وإنما كانوا مسلمين منذ البداية، خاصة، إذا ما ربطنا بين هذه الحقيقة وبين تلك الواقعة، ورأينا أن المسلمين كانت لهم اليد العليا فى حصول السمويين على الحكم.

ويقول فرشته: "فى أواخر عهد شاه محمد تغلق، انتقلت السلطة من أيدى السومريين إلى السمويين، بفضل مساعدة المسلمين. وإن أكثر حكامها كانوا مسلمين"[٢].

---

(١) شمس سراج عفيف ــ فيروز شاهى – صــ٢٤١.

(٢) فرشته – الجزء الثانى – صـــ٣١٧ – نولكشور.

الحقيقة أنه لو لم يكن أولئك السمويون مسلمين منذ البداية، أكان من الممكن أن يتعاطف المسلمون معهم؟

المدن الأخرى للسند وتخومها

بالإضافة إلى المنصورة والملتان، كان فى السند، وتخومها دويلات، وإمارات عربية صغيرة، والتى نجد آثارها أواخر القرن الرابع الهجرى، وقبل محمود الغزنوى؛ فقد فتح والده، سبكتكين، بعضها، ثم فتح السلطان أغلبها، وضمه إلى دولته.

ومن بين هذه المدن، الأماكن التالية. نعرف بها، مع ذكر ما يميزها؛ طبقًا لمعلومات الرحالة العرب، فى القرن الرابع الهجرى.

ديبل أو تهتهـ

ميناء مشهور، وكما ذكرنا سابقًا، فقد أطلق عليه العرب اسم (ديبل)، بينما سماها الفرس (تهتهـ)[(١)]، وكانت عاصمة لدولة (السمويين)، وهى التى هاجمها فيروز شاه، سلطان دهلى، ولم يكن النصر حليفه، وانتهى الأمر بالصلح، الذى توسط فيه الشيخ جلال الدين، أحد مريدى شيخ الإسلام، زكريا الملتانى[(٢)].

وقد أنجبت هذه المدينة العديد من العلماء، وأهل الحديث العظام، وقد ذكرهم العلامة السمعاني، المتوفى عام ٥٦٢هـ، فى كتابه (الأنساب)[(٣)]. وحيث إنها كانت ميناء، فقد كانت قبلة التجار العرب، ويمكن تقدير عدد سكانها مما حدث فى عصر

---

(١) آئين اكبرى (سندهـ).

(٢) سمش سراج عفيف ـ تاريخ فيروز شاهى - صـ ٢٤١ - كلكتا.

(٣) كتاب " الأنساب "، صورة فوتوغرافية، مطبوعة " ديبلي".

الخليفة العباسي، المعتمد، عام ٢٨٠هـ؛ إذ وقع فيها زلزال، أسفر عن سقوط مبان كثيرة، ويقدر عدد من كان تحت الأنقاض بمائة وخمسين ألف شخص[١].

وكتب البشاري، عام ٣٧٥هـ: " وديبل بحرية، قد أحاط بها نحو مائة قرية، أكثرهم كفار، والبحر يسطح حدارات المدينة، كلهم تجار، كلامهم سندى وعربى... كثيرة الدخل ".

عسيفان

ذكر البلاذرى أنها تقع بين كشمير والملتان، ويبدو أن هذا ليس صحيحًا تمامًا، لاسيما إن كان فى السند أسماء أخرى تشبه هذا الاسم. ولم يتمكن الدكتور ارنولد[٢] من معرفة موقعها، إبان تحريره لكتابه (الدعوة فى الإسلام)[٣]، وقد تم البحث فى هذا، من خلال مولانا شبلى النعمانى – رحمة الله عليه[٤]. ولكنى أعتقد أن اسمها الأصلى (اسيوان)، والذى يمكن أن ننطقه (سيوان). وتقع مدينة بنفس هذا الاسم (سيوان) بين دهلى والسند، وقد ورد هذا الاسم فى كتب التاريخ الفارسية[٥]. وقد ذكرها ابن بطوطة باسم (سيهوان)، وهى تقع الآن فى مدينة كراتشى، بباكستان.

---

(١) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء – مطبوعة كالكتا، صـ ٣٨٠، صـ٣١٢، ط٣، دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا – بيروت. *وهذا هو نص عبارة السيوطي: "وفى أيامه، دخل الزنج البصرة وأعمالها وأخربوها... ثم أعقبه هزات وزلازل، فمات تحت الردم آلاف من الناس، واستمر إلى سنة... وذكر الصولى أنه قتل من المسلمين ألف وخمسمائة ألف آدمي.*

(٢) *أرنولد: هو تومس أرنولد، أستاذ الفلسفة فى كلية على جره، انتقل إلى الكلية الحكومية بلاهور، وعاد إلى بلاده، عام ١٩٠٤م، وتوفى عام ١٩٣٠م، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "تاريخ الإسلام".*

(٣) الدعوة فى الإسلام – صـ٢٩١.

(٤) مكاتيب شبلى – الجزء الثانى – صـ١٧.

(٥) أمير خسرو ـ خزائن الفتوح .

وقد أقر البعض بأن (سيوان) و(سيوستان) مدينة واحدة. على أية حال، فقد كان يسكنها التجار المسلمون، فى بداية القرن الثالث الهجري، أى فى عهد المعتصم بالله، المتوفى عام ٢٢٧هـ[1].

تنبلى

وتنبلى عليها حصن بحرية أيضًا، قليلة المسلمين والتجار[2]، وهى من بقاع السند.

بوقان

ذكر البلاذرى منطقة فى السند، يطلق عليها بوقان، أو (بوكن)، وقال: "إن جميع سكانها، فى عصرنا، من المسلمين"[3]. وكان عصره أواخر القرن الثالث الهجري.

قصدار

عرفها البعض باسم (قندار)، وكان اسمها الملتان، فى عهد سبكتكين الغزنوي[4]، وتقع قرب الحدود الأفغانية الهندية، وكانت دويلة للخوارج من المسلمين. ويبدو أنه حين وافاها أبو الحسن على بن لطيف – أحد المعتزلة المتكلمين والمناظرين – وجدها مأهولة بالخوارج؛ وقد ذكر أنها تتمتع بالأمن والأمان، فلا أثر للسرقة، بل يترك أهلها ديارهم مفتوحة، لا يغلقونها، كما يترك

---

(١) البلاذرى – صـ٤٣٣.
(٢) البشارى – صـ٤٧٩.
(٣) البلاذرى – صـ٣٤٥.
(٤) طبقات ناصرى – صـ٧ – كلكتا.

المسافرون متاعهم فى المسجد، دون أن يمسه أحد، ولم يقابل إلا خياطًا مسلمًا (يقصد سنيًا)، وكان بها مسجد(١).

وحدد البشارى موقعها، فقال: "فتأخذ من (التينر) (ببلوجستان) إلى قصدار، على الساحل فى طول مكران، ١٢ مرحلة (اثنتى عشرة مرحلة)"(٢)، ويقول أحد الجغرافيين العرب: "إنها تبعد عن الملتان بعشرين مرحلة تقريبًا"(٣).

ويقول ابن حوقل (٣٦٧هـ): ومدينة (قزدار) مدينة لها رستاق ومدن، والغالب عليها رجل يعرف بمعتز بن أحمد، يخطب لبنى العباس، ومقامه بمدينة (كيزكانان).

ثم يقول البشارى المقدسي، الذى زارها عام ٣٧٥هـ، ما يلي:

"قزدار قصبة طوران، فى صحراء ذات جانبين، بينهما واد يابس، بلا جسور، فى إحداهما دار السلطان فيه قلعة، والجانب الآخر بودين، وفيه دور التجار، والمطارح أفسح وأنزه، والقصبة على صغرها مفيدة، وإليها يقصد نفر من خراسان، وفارس، وكرمان، ومن بلدان الهند، إلا أن ماءها رديء، ومشاربهم من قنى"(٤).

وصفوة القول، إنها كانت دويلة إسلامية صغيرة، وكان الأمير سبكتكين، والد السلطان محمود، يعتقد أن زوال الدويلات الحدودية، قبل الهند، أمرٌ مهمٌ؛ فاستولى عليها، فيما بين عامى ٣٧٥هـ و٣٨٧هـ (والذى هو تاريخ وفاة سبكتكين)، وعهد إلى حاكمها تحصيل الخراج من المسلمين هناك(٥).

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان – الجزء ٧ – صـ٧٨ – مصر.
(٢) البشارى – أحسن التقاسيم – صـ٤٨٥ – ٤٨٦.
(٣) أبو الفدا ـ تقويم البلدان – صـ٣٤٩.
(٤) البشارى – أحسن التقاسيم – صـ٤٧٨ – ليدن المحروسة – ١٩٠٦م.
(٥) تاريخ فرشته – الجزء الأول – صـ١٩ – نولكشور.

طوران

كانت دولة مستقلة فى عصر ابن حوقل (٤٦٣هـ)، فيقول: " ولطوران واد، وقصبته تدعى طوران، وهو حصن في وسط الوادى، وكان يلي عمله رجل مُن إخواننا، يعرف بأبى القاسم البصري؛ قضاء وإمارة وبندرة، وكان لا يعرف ثلاثة في عشرة، بل كان رجلاً من أهل القرآن "صـ ٣٢٤.

ويهند

من أشهر مدن الهند القديمة، ويرد اسمها فى قائمة الفتوحات الغزنوية؛ إذ استولى عليها محمود، بعد بيشاور مباشرة، عام ٣٩٣هـ[١]. وكان يقطنها المسلمون قبل محمود. وكتب البيرونى عنها، فى قانون المسعودى، يقول: "واسم مدينة قصبة القندهار " ويهند"، وهى على وادى السند"[٢].

ويذكر السيد (ونسنت اـ اسمتهـ)، فى تاريخ الهند القديم، أن العاصمة (اوهند) تقع على نهر السند؛ ويقول: إنه بعد فتح المسلمين كابل، عام ٢٥٦هـ، انتقلت العاصمة إلى (اوهند)، التى كانت تقع على نهر السند، فأصبحت مقرًا لإحدى الأسر الهندوكية الحاكمة.

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى (٣٧٥هـ، أى قبل هجوم محمود بخمس أو ست عشرة سنة)، يقول البشارى المقدسى: "سألت فقيهًا، من أصحاب أبى الهيثم النيسابورى، ورجلاً من أهل العلم والحكمة..... قد وطئ تلك النواحى، وعرف أسبابها، فصح عندى من قولهما، أن (ويهند) هى القصبة، وأن من مدنها: (وذهان) و(بيتر) و(نوج) و(لوار) و(سمان) و(قوج)[٣].

---

(١) الكرديزى ـ زين الأخبار – صـ٦٦ – طبعة برلين.

(٢) نقلاً عن تقويم البلدان – أبو الفدا – صـ٣٥٧ – باريس – ١٨٤٠م.

(٣) أحسن التقاسيم – صـ٤٧٧.

وكان عدد السكان المسلمين فى منطقة (ويهند)، لا بأس به، حتى قامت دولتهم، وحين كانت الغلبة (بويهند) للكفار، كان للمسلمين سلطان على حده "[١].

قنوج

غير منطقة (قنوج) المشهورة بالهند، كان ثمة منطقة عامرة، بالقرب من حدود السند والبنجاب، وقد ذكرها الرحالة العرب كثيرًا، وكان فيها مسلمون، وقد خضعت هذه المدينة لحكم المسلمين، بعد عام ٣٠٠هـ. وعندما زارها المسعودي، عام ٣٠٣هـ كانت "من أعمال الملتان" (ج١ - ص ١٦٥)، وتحت راية الدولة الإسلامية[٢].

ثم جاء البشاري، بعده بنحو سبعين أو خمسة وسبعين عامًا؛ فكانت آنذاك إمارة مستقلة، فكتب يقول:

"قنوج قصبة كبيرة، لها ريض ومدينة، وبها لحوم كثيرة، ومياه غزيرة، وبساتين، ووجوه حسان، وماء صحيح، ومتجر ربيح، والجامع فى الريض، وأكثر طعام المسلمين الحنطة، وبها علم وأجله"[٣]، ثم يمضى فى وصفه، ويذكر فى موطن آخر: (والغلبة بقنوج للكفار، وللمسلمين سلطان على حده)[٤].

وكان الرحالة والجغرافيون العرب أيضًا، يعرفون (قنوج)، التابعة لمنطقة (اودهـ)؛ ففى عام (٣٨٦هـ تقريبًا)، يذكر المهلبى، وزير مصر، فى كتابه الجغرافي، ما يلي: "قنوج من أقاصى مدن الهند، شرق الملتان، وبين الملتان، وقنوج نحو مائتين واثنين وثمانين فرسخًا، وهى عاصمة الهند، وأكبر مدنها، ولقد

---

(١) أحسن التقاسيم - صـ٤٨٥.
(٢) المسعودى - الجزء الأول - صـ٣٧ - باريس.
(٣) أحسن التقاسيم - صـ٤٨٠.
(٤) أحسن التقاسيم - صـ٤٨٥.

بالغ الناس فى وصفها، فيقولون: إن بها ثلاثمائة سوق لتجار المجوهرات فقط، ولدى ملكها ألفان وخمسمائة فيل، كما تتوافر بها مناجم الذهب".

ويقول الإدريسي، الذى كتب كتابه الجغرافى فى صقلية (إيطاليا)، عام ٥٤٨هـ: "قنوج بين ذراعين من نهر الكنك، وقال المهلبي، فى العزيزي: قنوج مدينة فى أقاصي الهند، وهى فى جهة الشرق من الملتان، وبينهما مائتان واثنان وثمانون فرسخاً، وقنوج مصر الهند، وأعظم المدن، وقد بالغ الناس فى تعظيمها، حتى قالوا: إن بها ثلاثمائة سوق للجوهر، ولملكها مائة فيل، قال: وهى كثيرة معادن الذهب، وقال الإدريسي، فى نزهة المشتاق: وقنوج مدينة حسنة، كثيرة التجارات، وبها يسمى الملك بقنوج، وعدت من مدن القنوج قشمير الخارجة، وقشمير الداخلة، وغيرهما، ومن قشمير الداخلة إلى قنوج، سبع مراحل[1].

نيرون

كانت نيرون من بين مدن السند الساحلية، وقرأها البعض خطأ (بيرون)، وقالوا إنها المدينة التى ينسب إليها أبو الريحان البيروني[2]، وقد كانت بين (ديبل) و(المنصورة)، وتبعد عن الأخيرة بخمسة عشر فرسخاً، ويقول المهلبي، وزير مصر فى القرن الرابع: "إن أهلها من المسلمين". وذكر الفستن، فى مؤلفه (تاريخ الهند)، أن الاسم القديم لمدينة (حيدر آباد) بالسند الحالية، هو (نيرون).

مكران

تقع على حدود السند، وكان يحكمها عربي، يدعى عيسى بن معدان، فى عهد ابن حوقل. وكانت عاصمتها (كنير)، ومساحتها نصف مساحة الملتان.

---

(١) أبو الفدا ـ تقويم البلدان – صـ٣٦٠ – باريس.

(٢) أبو الفدا ـ تقويم البلدان – صـ٣٤٩، نقلاً عن ابن سعيد المغربي، وتاريخ الأطباء، لابن أبى أصيبعة – الجزء الثانى – صـ٢٠ – مصر.

مشكى

كان بالقرب من (مكران) إمارة عربية أخرى، اسمها (مشكى)، وكان يحكمها، فى عصر ابن حوقل، مظاهر بن رجاء، وكانت كبيرة، تستغرق مسافة ثلاثة أيام لطيها، ويخطبون فيها لخليفة بغداد.

لقد أرهقنا، أنا وأنتم، السير فى صحارى السند، فدعونا نستريح من وعثاء السفر فى رياض جنة الله على الأرض؛ حتى نروح أذهاننا.

كشمير

إنها البلدة التى يصح القول فيها: إنها لم تفتح بخطط ملوك المسلمين الحربية وسيوفهم، بل بتأثير علماء المسلمين ومتصوفيهم. وقد وصل الجغرافيون والرحالة العرب إليها، دون أن يدخلوها؛ لوعورة طرقها.

وقد كان اسم السند يطلق على المنطقة الممتدة من البحر إلى سلسلة جبال كشمير، وقد اصطدم السلطان محمود بصخورها، بعد العرب، ولم يحالفه النجاح فى اجتيازها؛ ومع ذلك، كان التجار المسلمون يترددون عليها، فى تلك الفترة.

وبعد وفاة السلطان محمود بثلاث سنوات، أى فى عام ٤٢٤هـ، هاجمها السلطان مسعود الغزنوي، فحاصرها، وأغلق القلعة على أهلها، فحبس التجار الذين كانوا بها آنذاك فى القلعة أيضًا[١].

بعد هذه العجالة، والجولة الخيالية المقتضبة فى تاريخ الهند، نستأذن السادة القراء بالانصراف.

---

(١) فرشته – الجزء الأول – صـ٤١ – نولكشور.

الخاتمة

حاولنا فى الصفحات السابقة، أن نعرض على رفقاء رحلتنا صورًا من علاقات العرب بالهنود، والإسلام بالهند، وقد تجلت تلك العلاقات قبل قدوم الفاتحين من بلاد خيبر، وذلك لمعرفة مقام المسلمين فى هذه البلاد قبل الفتوحات. كانت علاقة العرب بالهنادكة علاقة عميقة ومستمرة، وكانت علاقة الإسلام بالهند متأصلة وضاربة فى جذور التاريخ، إلى أقصى مدى. وبعد ختام الكتاب، إليك بعض النقاط الأخرى المهمة، التى تجدر الإشارة إليها:

١- سوباره:

ذكر العرب أن (سوباره) كان اسمًا لمدينة قديمة، ومشهورة بالكجرات، وقد ذكرها الإصطخرى (عام ٣٤٠هـ)، ضمن المدن الشهيرة فى الهند. ومن بعده، أورد الرحالة المقدسى (عام ٣٧٠هـ) اسمها، فى أواخر القرن الرابع الهجري، وأواخر القرن العاشر الميلادي، وقال: إنها تقع بالقرب من (كهمبايت)، حيث يفصل بينهما أربع محطات. ويقول: " وهى على فرسخ (ثمانية أميال) من البحر" (أحسن التقاسيم – صـ٤٧٧ – ٤٨٦).

وقد أشارت الأبحاث العلمية، التى أجريت فى الأعوام الماضية، حول الآثار القديمة فى الكجرات، إلى أن مدينة ما كانت تحمل اسم (سوباره)؛ مما يؤكد لنا أنها المدينة التى ذكرها الرحالة العرب.

٢ – صدر مقال عن الاكتشاف الأثرى حول (سوباره)، فى مجلة (سنداى كرانيكل) ببومباي، عدد فبراير، ١٩٣٠م، فى الصفحة ٣١، ٣٢، وخلاصته: "تشير الاكتشافات الأثرية إلى أن تاريخ هذه المدينة يعود إلى عصر الملك (مكدهـ ديس) (بهار)، المشهور بأشوكا؛ حيث عثر منقبوا الآثار هناك على حجر تذكارى للملك أشوكا، عام ١٨٨١م".

وكانت هذه المنطقة إحدى المدن المزدهرة والمشهورة فى الهند، عام ٣٥٠ قبل الميلاد؛ مما جعلها تحظى باختيار الملك أشوكا، دون بقية المدن الأخرى؛ ليضع فيها حجره التذكاري. وقد نقل هذا الحجر السوبارى، ليوضع فى متحف أمير ويلز (غرب الهند)، وبه عشرة أسطر، وقد انمحت سطوره الأربعة الأولى. وهو مكتوب بالخط الديوناجري، الذى اشتقت منه الحروف الهندية، وجعلته أصلاً لها.

ويرى الباحث الأوربي، بوشلز: أن هذا الحجر قد جاء من العراق إلى الهند، عن طريق الرحلات التجارية، قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بسبعة قرون أو ثمانية (انظر الكتاب). ثم يقول الدكتور (بهنداكر): إن سوباره كانت ميناءً مشهورًا، فى إقليم (تهانه) ببومباي، وقد ورد ذكره فى ملحمة المهابهارت[١]، وذكره بطليموس، فى كتابه الجغرافى، باسم (سوباره)، وقد كانت هذه المنطقة مقدسة، وعاصمة (ابارنتا).

وتقع سوباره الحالية فى نفس موقع المدينة القديمة، التى تحمل اسمها، على الضفة اليسرى لأحد الخلجان، منعطفًا بين السكة الحديد لخليج (بسين)، ونهر (وتونا)، ومازالت إلى الآن مبانى (سوباره) القديمة وبيوتها، كما يوجد بها (بئر رام)، مما يدل على أنها مدينة مقدسة.

وقد اكتشف حجر (سوباره) التذكاري، عام ١٨٨١م. وكان فى هذه القرية ستمائة بيت، يسكنها نحو ألفى نسمة؛ بينهم براهمة، وهنود، ومسيحيون، ومسلمون. والمسلمون من العرب والإيرانيين، الذين نزحوا إليها، فى ظل العلاقات التجارية قبل سبعة قرون.

---

(١) المهابهارت: الملحمة القومية للهنادكة، ينيف عدد أشعارها على المئتى ألف. فيها وصف حروب الكورف والباندوف، ألفت فى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد.

من هذه الخلاصة، نستنتج أن المسلمين كانوا يسكنون أيضا هناك، مثل بقية المدن التجارية الساحلية فى الكجرات. وإذا كنا قد تعرفنا على هذه البلدة، قبل المسيح بمائتين وخمسين عامًا؛ من خلال ما اكتشف من معلومات مكتوبة على حجر الملك أشوكا، وكتاب بطليموس، فقد تعرفنا عليها أيضًا بعد المسيح بألف عام، مما ذكره الرحالة العرب المسلمين.

٢ – الأطباء الجاتين العرب:

الحق أنه قد سبقت الإشارة أعلاه (صــ١١) إلى استيطان الجاتين للعراق، وبلاد العرب، فى عهد الصحابة؛ أى فى القرن الأول الهجري، والقرن السابع الميلادي، ولكن مع التركيز على مميزاتهم العسكرية فقط. بيد أننا قد اطلعنا على أحد أعمالهم المجيدة، فى تلك الفترة، من خلال أحد المصادر المهمة، حيث كتب الإمام البخاري، المتوفى (٢٥٦هــ)، فى كتابه (المفرد)، واقعة من وقائع عهد الصحابة، فيقول: "ذات مرة مرضت أم المؤمنين، السيدة عائشة، رضى الله عنها، فاستدعى أبناء أخيها طبيبا جاتيا؛ لعلاجها "[١].

نعال السند الملكية

تحدثنا، فى الصفحة ٧٧ من الكتاب، عن نعال كهمبايت، التى كانت تصدر من المنصورة (السند)، إلى عاصمة الخلافة العباسية، فى العراق. وقد عثر حديثًا، فى الجزائر (الجزيريا)، على مخطوطة تعود إلى سبعة قرون، لكتاب مختصر، اسمه كتاب (الورع)، للإمام أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١هــ)، والذى طبع فى السند، ومصر، عام ١٣٤٠هــ، ويؤكد هذا الكتاب كم كانت نعال السند لامعة وفاقعة، لدرجة أن أهل الوقار لا يستحبون انتعالها، ويعتبرونها لائقة بالأمراء فقط[٢].

---

(١) الإمام البخارى – الأدب المفرد – باب: بيع الخادم – صــ٣٥ – مصر.

(٢) ابن حنبل – كتاب الورع – باب: لبس النعال السندية – صــ١٠١ – مطبعة السادات – مصر.

المؤلف فى سطور:

سيد سليمان الندوى (١٨٨٤ ـ ١٩٥٣م)

هو أنيس الحسن، عُرف بسليمان الندوي، ويلحق نسبه بالإمام الحسين رضى الله عنه، ولد فى ٢٢/ ١١/ ١٨٨٤م، بإحدى قرى إقليم بهار بالهند. كان من أسرة دينية عريقة، عُرف عنها تورعها بالعلم والأدب، ومن هنا تلقى تعليمه الأولى على يد أسرته، التى كانت تحترف مهنة الطب.

أتقن الفارسية والعربية وهو فى سن صغير، وفى عام ١٩٠١م التحق بندوة العلماء، وأكمل تعليمه بعد خمس سنوات، تتلمذ فيها على يد كبار العلماء من أمثال مولانا شبلى النعمانى، وعندما أحس الأستاذ بذكاء تلميذه احتضنه، وأوجد فيه القدرة على الكتابة الأدبية.

ظهرت أولى مقالاته عن علم الحديث فى مجلة الندوة، ذكر فيه أسماء الكتب التى تأثر بها، وتربى على فكرها ومنهجها؛ كالموطأ للإمام مالك، وفتح البارى لابن حجر، والفهرست لابن النديم، والملل والنحل للشهرستاني، وحجة الله البالغة لشاه ولى الله الدهلوي، وغيرها من الكتب التراثية العربية والفارسية.

ومن هنا بدأت مقالاته العربية تنشر فى المجلات الأدبية فى الهند وخارجها، فنشرت له مجلة " المنار" المصرية العديد من المقالات عام ١٩٠٦م، وهو العام الذى حصل فيه سيد سليمان الندوى على الشهادة العالية من الندوة.

ظلت خدماته العلمية تؤتى ثمارها حتى آخر لحظات حياته، فقد دافع مع المهاتما غاندى عن مفهوم اللغة القومية، وقال فى خطبته المشهورة عام ١٩٤٤م: إن صحة الألفاظ المستخدمة فى اللغة يجب أن تترك لمدى رواجها بين الناس لا

على أساس مصادرها، وساند اللجنة التى كانت تنادى بأن أى لغة تتخذها البلاد كلغة قومية يجب أن تكتب بالخطين العربى والديوناجرى.

كان سليمان الندوى يُبهر المعاصرين له بسعة علمه فى الميادين المختلفة، وكان إذا أمسك بالقلم تدفق نحوًا وصرفًا ولغةً وبيانًا وتاريخًا، كل ذلك فى نسق واحد، وكأنما هو متخصص فى كل علم على حدة، ساعدته دراسته فى الحديث على تنمية موهبة التمحيص والتحقيق لديه، حتى إنه لم يعد يطمئن لما يكتب إلا إذا وثّقه بأسانيده وآمن بأمانة رجاله؛ لذا اكتسبت مؤلفاته سمعة عالية بين القراء فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى.

أهم مؤلفاته:

١ ــ اللغات الجديدة معجم ١٩١٠م.

٢ ــ أرض القرآن (مجلدين) ١٩١٧، ١٩١٨م.

٣ ــ سيرة النبى (ثلاث مجلدات) ١٩٢٤ ــ ١٩٣٩م.

٤ ــ سيرة عائشة ١٩٢٤م.

٥ ــ خطبات مدراس ١٩٢٥م.

٦ ــ العلاقات العربية الهندية ١٩٢٩م.

٧ ــ الملاحة العربية ١٩٣١م.

٨ ــ الخيام ١٩٣٠م.

٩ ــ نقوش سليمانى ١٩٣٩م.

١٠ ــ رحمت عالم ١٩٤٠م.

١١ ــ حياة شبلى ١٩٤٣م.

المترجم فى سطور:

أحمد محمد عبد الرحمن، أستاذ فى قسم اللغة الأردية – كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر – القاهرة.

المؤهلات العلمية:

- ليسانس اللغة الأردية ١٩٨٤م – كلية اللغات والترجمة بتقدير عام جيد جدا.
- ماجستير فى الأدب الأردى ١٩٨٩م قسم اللغة الأردية جامعة دهلى الهند.
- M. Phil (أدب مقارن) ١٩٩١م قسم اللغة الأردية جامعة دهلى الهند.
- دكتوراه عن فن التراجم بين العربية والفارسية والأردية جامعة دهلى ١٩٩٤م.
- دبلومة عليا فى اللغة الهندية قسم اللغة الهندية جامعة دهلى ١٩٩٢م.
- درجة أستاذ مساعد بقسم اللغة الأردية كلية اللغات والترجمة بتاريخ ٢٠٠١/٦/٦م.
- درجة الأستاذية بقسم اللغة الأردية كلية اللغات والترجمة بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٦م.

تأليف الكتب العلمية:

- القواعد العملية لدراسة الأردية (مشترك) ١٩٩٧م.
- الشعر الأردى فى القرن الثامن عشر الميلادى (مشترك) ٢٠٠٠م.
- محاضرات فى نشأة اللغة الأردية وتطورها (مشترك) ٢٠٠٣م.
- الشعر الأردى الحديث والمعاصر (مشترك) ٢٠٠٤م.

- الشعر الأردى الكلاسيكى (مشترك) ٢٠٠٦م.
- كم علماء العربية فى شبه القارة الهندوباكستانية (مشترك) ٢٠٠٦م.

الترجمة:

- ترجمة كتاب التصوف المعروف بـ لطائف المعارف شاه محمد عبد العليم الصديقى القادرى من الأردية إلى العربية (مشترك) ٢٠٠٤م.
- ترجمة سيرة النبى لشبلى النعمانى الجزء الثالث (مشترك) مطبوع ٢٠٠٥م.
- ترجمة سيرة النبى لشبلى النعمانى الجزء السادس (مشترك) مطبوع ٢٠٠٦م.
- ترجمة العلاقات العربية الهندية لسيد سليمان الندوى مطبوع ٢٠٠٧م.
- مراجعة ترجمات القرآن الكريم والكتب الدينية باللغة الأردية لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف الإسلامية منذ عام ٢٠٠٠ وحتى الآن.

الأوراق البحثية:

- مصر فى أدب الفكاهة الأردى من خلال كتاب "بجنك آن" لمحمد خان منشور فى الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م.
- دراسة مقارنة لرواية صلاح الدين التاريخية فى العربية والأردية "منشور الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠م.
- أثر الحركة التقدمية فى الشعر الأردى الحديث الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣م.

- المرثية فى الشعر الأردى – تطبيقا على مراثى أنيس مجلة الدراسات الشرقية مرك الدراسات الشرقية جامعة القاهرة. العدد)٣٧(يوليو ٢٠٠٦م.
- الشخصيات الهندية غير المسلمة فى شعر إقبال مجلة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر العدد (٤٠) لعام ٢٠٠٦م.

الجوائز:

- جائزة شبلى النعمانى للنهوض باللغة الأردية فى مصر من الهند عام ١٩٨٩م.

التصحيح اللغوى: على أبو زيـــد
الإشراف الفنى: حســــــن كامل

شبه القارة الهندية هى إحدى هذه الواجهات الرئيسية لشبه الجزيرة العربية. ومن هنا، تقف العلاقات العربية الهندية على أرضية صلبة، تستند إلى تاريخ طويل من الاحترام المتبادل، والمنفعة المشتركة، رغم أن طبيعة العلاقات قد تغيرت نسبيًا، بعد انقسام شبه القارة عام 1947 م إلى دولتى: باكستان والهند، حيث دخلت هذه العلاقة مرحلة جديدة، وإن كانت لم تقطع جذورها بالماضى.

ومن هنا، جاءت أهمية ترجمة هذا الكتاب؛ لنرى كيف قدمت المصادر العربية وغير العربية قديمًا، صورة واضحة للمبادئ والقيم المتميزة، التى طالما شكلت روافد أساسية للعلاقات العربية الهندية. والكتاب يضع أمامنا عدة تساؤلات، لعل أهمها: إلى أى مدى استطعنا أن نستثمر هذا الماضى المشرق فى تحقيق تعاون بناء بيننا وبين الهند، فى الوقت الحاضر؟ هل تعثرنا فى معرفة قدراتنا الضخمة، فى مواجهة تحديات اليوم؟ أم أن نظرتنا المقصورة تجاه الأخر حالت دون تحقيق كل هذا؟

